

www.kotobarabia.com

الفاشيون و الوطن

د. سيد القمنى

سيد القمنى

الفاشيون والوطن

الإهداء

إلى ليلى وأيمن عبد الحارس

حتى لو باعدت بيننا الأيام

من أعمال المؤلف

١- الموجز الفلسفي، دار السياسة، الكويت، د.ت، نفذ .
٢- مشكلات فلسفية: بالمشاركة مع آخرين، التربية الكويتية .
٣- أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمـة، دار فكـر، القاهرة، ١٩٨٨ .
٤- الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية: طبعتان، دار سينا، دار مدبولى الصغير .
٥- النبى إبراهيم والتاريخ المجهول: طبعتان، دار سينا، دار مدبولى الصغير، القاهرة .
٦- الأسطورة والتراث طبعتان بدار سينا بالقاهرة، والثانيـة بتاريخ ١٩٩٣.
٧- حروب دولة الرسول: جـزأن الأول طبعـة دار سـينا بالقاهرة، والثانى طبعة مدبولى الصغير.
٨- قصة الخلق، منابع سفر التكوين، دار عيبال، قبرص .
٩- إسرائيل التوارة، التاريخ التضليل: طبعتان الأولى عيبال قبرص، والثانية دار قباء القاهرة ١٩٩٧.
١٠- رب الزمان: طبعة أولى لدى مدبولى الصغير، وطبعة ثانية لدى دار قباء بالقاهرة ١٩٩٧ .
١١- السؤال الآخر: الكتاب الذهبى، روزاليوسف ١٩٩٧ .
١٢- النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة: المركز المصرى لبحوث الحضارة، القاهرة ١٩٩٩ .
١٣- الفاشيون والوطن: المركز المصرى لبحوث الحضارة القاهرة ١٩٩٩ .

فهرس الكتاب

على سبيل التقديم

هذا الكتاب هو مجموعة مقالات ودراسات تم نشـرها تباعا بالدوريات القاهرية،لكن ما يميزها هنا عما تم نشره بتلك الدوريات،أنها هنا كما كانت فى الأصـل قبـل أن تتدخل فيها يد العاملين بهذه الدوريات، حيث أبدلوا كلمة هنا، وحذفوا كلمة هناك، مراعاة لتوازنات بعينها لم نكن ضدها، فللنشر بالدوريات ظروفه وسياقاته وشـروطه، لكن الكتاب هو مساحة حرية الكاتب كى يقول ما يريـد بكل دقة ووضوح ودون شروط مسبقة ولا رقابة سـوى ضميره وعقله وحدهما.

وبهذا الكتاب **يفتتح المركز المصرى لبحوث الحضارة** سلسلة من الأعمال التى تهدف إلى **(نقد المـنهج)**، نقـد مناهجنا فى التفكير والسلوك على كل المستويات بصدق مع الذات، من أجل فهم أفصح لواقعنا لتجاوزه نحو واقع أفضل، فى ظرف عالمى ومحلى لم يعد يحتمل تـأجيلا، وقبل أن يخرجنا العناتر الفاشيون من ساحة التاريخ.

تأسيس

نقد المنهج(*)

منذ فجره، ظل المنهج العربى السائد فى التفكير علـى كل المستويات يدور فى فلك التراكم وحده. ورغم المـرور بحقبة انفتاحية واضحة أدت إلى بروز كوكبة متميـزة مـن العلماء والمفكرين، إلا أن تلك الحقبة ومـا صـاحبها مـن اصطراع فكرى ثرى، انتهت بقرارات سـيادية مـع نهايـة القرن الرابع الهجرى، ولم تبق فى الساحة سوى وجهة نظر واحدة سائدة تمثل النصوصية المغلقة بالكامل. وهو ما أفرز فكرة الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة التى لا تقبل تحولاً ولا تبدلاً، بعد أن تجاوزنا خير العصور إلى الذى يليه ثم الـذى يليه. وبعد أن وضعت الأصول لرفض كل جديـد بحسـبانه بدعة والبدعة ضلالة، ولأن شر الأمور محـدثاتها. وبقيـت بيدنا نصوص مغلقة وثوابت هى المعيار الذى نزن به كـل أمر فى كل شأن ممكن.

وبعدها اقتصرت الثقافة العربية على الاجترار، يتعـدد فيها التوزيع ويتلون، لكن وفق نوتة واحدة لا غير. ومن ثـم انهمك العقل

(*) تم نشره فى روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/٨/٣١ العدد ٣٦٦٤

العربى فى المتاح فقط. وإبان ذلك تـم زرع غابـات مـن الموانع والتحريمات عبر مرور الزمن، لاعتبارات كهانية أو طقوسية، أما أخطرها فكان ما يفـرزه التحـالف الكهـانى السياسى السيادى.

كان المتاح هو إعادة توزيع النوتة كلما طـرأ طـارئ فامتلأت المكتبة العربية بكتب تكرر وتـردد فـى التفاسـير وتفاسير التفاسير وشروح المتن وشروح الحواشى وشـروح الشروح، وتبرير كثير من المظالم للحاكمين، فحققنا تراكمـاً كمياً هائلاً لم ينتقل أبداً إلى مرحلة التحول الكيفى. وانتهـت ثقافتنا إلى معلبات وصلتنا جاهزة لا دور لنا فيهـا ولا فـى إنتاجها، نستهلكها على الجاهز دون حتى أن نعمل فيها حاسة الذوق.

ثم كانت صدمة الحضارة والحداثة مع الحملة الفرنسية، التى فتحت عيون العرب على مدى التخلف الكـارثى الـذى آلوا إليه. ومع الصدمة جاء رد الفعل فى ظهـور تيـارات تطلب إعادة النظر فى ثوابتنا الفكرية. وهى التيارات التـى طرحت تساؤلات جديدة فتحت النوافذ لحركة النهضة، لكنها الحركة التى أصرت على الاحتفـاظ بوحدانيـة الشخصـية وثباتها مع ضرورة الأخذ بمنجزات العلم فى الدول المتقدمة، من أجل اللحاق بها.

وعلى المستوى الفكرى بدأت محاولات التغيير، لكنـه التغيير الأعرج الذى طلب الفرز العلمى الغربى معزولاً عن بنيته التحتية التى أفرزته فى بلاده. وقد بدأت تلك المهمة فى

بواكيرها بتقديم التبريرات الشرعية لقبول المنتجات التقنيـة للعلم الحديث.

وارتقت عمليات التبرير خطوة إلـى عمليـات تأويـل للنصوص لموافقة المتغيرات، وتحركت تصاعدياً لتـ ـؤسس لـبدايات حـ ـركة

ليبرالية على المستوى الاجتماعى والسياسى، توقف تناميهـا مع حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢. ومع توقـف التصـاعد الليبرالى تحول التنامى الفكرى إلى منهج تلفيقـى، فأخـذنا نكتشف أيامها أن الاشتراكية هى بنت الإسلام الشرعية، وأن العلم المتقدم الذى باغتنا فى كهوفنا فأبهرنا، إنما خرج مـن عباءتنا، وأنه كان موجوداً فى ثقافتنا سلفا ونحن عنه غافلون.

وتعالت حركات التلفيق لتقرن بـين مـا لا يمكـن أن يلتقى، فرفعت يوليو كل لاءات الحرية، وارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستبداد، لكـن فـى ظـل دولـة مباحـث ديكتاتورية صارمة لا تقبل خلافاً ولا رأياً، فرضت الصمت الكامل حيث كان لا صوت يعلو فوق صوت المعركة. وتـم مزج الاشتراكية بالقومية دون الشعور بأى خلل بمزج مبـدأ تحالف المقهورين فى العالم مع مبدأ القومية العنصرى.

وتراكم الخلل وتفاقم واتسعت خروقه حتى نفـذ منهـا عدو البلاد إلى حدود الدلتا الشرقية فى ١٩٦٧، وهو ما لـم يكن هزيمة عسكرية أو كارثة اقتصادية فقـط،لأن التوابـع أوضحت أن الهزيمة الأعمق والأكبر كانت للإرادة وللـذات وللشخصية الوطنية، بعد اكتشاف العجز الكامـل إلـى حـد الشلل،فكان الانتكاس فى ردة كاملة نحو الأسـلاف نبحـث عندهم عن تعويض ودفء وملاذ.

ولأن ثقافتنا الواحدية الشمولية الكاملة التـى لا يأتيهـا الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، تفترض أننا أمة مكتملة لأنها خير أمة أخرجت للناس، فلم نلتفت لحظة إلى عوامـل التخلف والضعف فى داخلنا، وأخذنا نبحث طوال الوقت عن شياطين تقبع فى الخارج تحوك لنا المؤامرات وتتربص بنـا الدوائر، هى التى تقف وراء هزائمنا وتخلفنا.

ولم نلحظ أننا نطلب من العالم الجديد بعلمه الحـديث أن يكون تغيره لصالحنا ونحن نجلس نبسمل ونحوقل،وأننـا ننزعج من كون الآخر يسعى لصالحه ولا يوافق شخصـيتنا الثقافية الواحدية، فكنا كأهل الكهف الذين صحوا من نـومهم على دنيا جديدة وفى أيديهم نقود صكت منذ قرون، نطالـب الناس فى الدنيا الجديدة أن يقبلوا التعامل معنا بهـا بـل وأن يقدموا اعترافا كاملاً برصيدها، بحسبانه رصيداً ممتداً لا تنفد خزائنه، يصلح لكل مكان وزمان.

نعم يجد منهجنا أصوله فى النصوص التأسيسية، لكـن أول من وضع له أسسه الفلسفية هو الإمام أبو حامد الغزالى (١٠٥٩-١١١١م) حيث رأى أن ارتباط أى سبب بنتيجته ما هو إلا ارتباط ظاهرى موهوم، لأن كمال الإيمان يكون فـى الرؤية التسليمية بالقلب وليس الحسية بالعقل. وضرب لـذلك مثلاً مشهوراً فقال: إنك إن رميت قطعة من القطن فى النـار فستراها بحواسك تحترق. ولأن الحواس كثيراً مـا تخـدعنا فهى غير موثوق بها كمصدر لمعرفة صادقة، لذلك فإن مـا تراه من تلازم بين النار والقطن وظاهرة الاحتراق إنما هـو تلازم رؤية حسية وليس تلازماً حقيقياً. والدليل الشرعى على ذلك أن خليل الله إبراهيم لم يحترق فى النار عندما ألقى فيها، فما يغيب عن الحواس والعقل ومبدأ السـببية، هـو الإرادة

الإلهية التى لا تغيب عن مؤمن. لذلك أصـبح مـن صـدق الإيمان عدم

الربط الموضوعى بين الأسباب والنتائج لأنه يعنى نقصاً فى الإيمان وعدم اعتراف بالإرادة الإلهية.
وعلى طريقة المتتالية العددية أفرز هذا المبـدأ كثيـراً مـن المفاهيم بالتوالد الذاتى، وهى مجموعة المفاهيم التى أسسـت لنا منهجنا فى رؤية العالم وسبل التعامل معه، ومثالاً لـذلك الربط الذى حدث بين هذا المبدأ الغزالى وبين القرار السابق ذكره أننا خير أمة أخرجت للناس، وأننا فى رعاية الله لأنـنـا حزب الله وغيرنا هو حزب الشيطان.
ثم تأتى الحدثان بما لم نحلم به من نكسـات وهـزائم وتخلف مروع، فلا نبحث أبدا عن الأسباب الموضوعية وراء ما يحدث اتباعاً للفلسفة الغزالية، ويتبقى فقط البحـث عـن أسباب توافق منهجنا وهى بذلك لا تخرج عن أمرين: الأول هو كيد حزب الشيطان الذى يقف وراء مآسـينا بمؤامراتـه الصليبية الاستعمارية الصهيونية الماسونية الاستشراقية. وأن العالم غير منشغل سوى بعالمنا المتخلف المتردى الـذى لا يستطيع لنفسه دفاعاً أو رداً.
وضمن ذلك تتوالد نتائج أخرى فيصبح العلم البشـرى بكل منتجه الهائل حليفاً لحزب الشيطان، فنجمع فـى سـلة واحدة بين داروين وماركس وفرويد دون أن نعـانى لحظـة قراءتهم لنعرف ماذا قالوا، لكن لأننا حزب الله فلا شـك أن حزب الله هم الغالبون. وهنا يطرح السؤال نفسه: إذن لمـاذا يحدث لنا ما يحدث؟ وهل تخلى الله عن أمته التى اختارهـا

لتكون خير الأمم وقيادة العالمين؟ هنا كان لابد مـن تبرئـة الإله فنكتشف أننا نحن الذين تخلينا عن عهدنا مع الله

بالتباعد عن أصول الدين والعودة إلى حياة الجاهلية الأولى، بنحت التماثيل وإباحة الفنون وإبـداع الموسـيقى والروايـة والشعر، ثم ارتكبنا أكبر الأثافى فسمحنا للمرأة بالخروج إلى العمل، وانحرفنا عن شريعتنا إلى قوانين مدنية ما أنـزل الله بها من سلطان. وأقمنا اقتصاداً على أسس غير حلالية تدخله أموال السياحة والربى، دون أن نلتفت إلى أن مجتمع السلف الذهبى كان بدوره مجتمعـاً مـن البشـر بكـل سـلبياتهم وإيجابياتهم، ولم يكونوا مجتمعاً من الملائكة.

ولأن الربط بين النتائج والأسباب ليس ديدن حزب الله، فإن الوقائع تفاجئنا لأننا لا نرى مقدماتها فتبهتنـا وتفزعنـا، وتنقض علينا الهزيمة من المجهول بشـكل إعجـازى، ولا علاقة لنا بها لأنها مؤامرة نسج خيوطها أناس غيرنـا.ومـا انتصار حزب الشيطان وفى قمته دولـة إسرائيـل إلا لأنهم أخلصوا العبادة لربهم ولم نخـلص
نحن للعهد مع ربنا (كما لو كان هناك رب لكل شعب). ومن هنا بات الحل الناجع هو استحضار القـوى السـماوية إلـى جانبنا لنفتح البلاد ونسبى العباد وبخاصة النساء. وهو الأمر الذى لن يتحقق إلا بالعودة إلى مجتمع السلف الصالح الأول، والالتزام بجميع الطقوس والشرائع والمعـارف، بارتكـاس واضح نحو المرحلة السحرية القديمـة لاستحضـار القـوى الغائبة بتعاويذ وتمائم تم استبدالها بكتب الأدعية المتنوعـة، الممزوجة بآيات من هنا وهناك.

ولما كانت الانتصارات الأولى قـد حققـت وجودهـا وأقامت دولتها بل وامبراطوريتهـا علـى أنقـاض أعظـم امبراطوريتين حينذاك هما الفرس والروم، فلابـد أن تقـوم نهضتنا على دمار الآخر القـوى

المتفوق المستعلى وغيابه بالكلية. ولأن المنهج التأسيسـى لا يرى فى الربط بين الأسباب والنتائج سبيلاً إيمانياً قويماً،فقـد سجلنا فى كتبنا التاريخية انتصاراتنا وسقوط الامبراطوريتين مصحوبة بأكبر حشد من المعجزات والنبوءات والمفاجـآت القادمة من عالم مفارق، فنصرهم الله وهم أذلة وأعز جنـده دون أى اعتبار للواقع الموضـوعى،وأن الإمبراطـوريتين الرومية والكسروية كانتا بالفعل فى طريقهما إلى زوال، وأن الفراغ فى المنطقة قد ظهر واضحاً ينتظر من يملأه.

وإعمالاً لذات المنطق والمنهج تتالت النبوءات تترى مع ما سمى بالصحوة الإسلامية، تنبئ بأن عالم الغرب المتفـوق إلى زوال بأسرار ربانية وفعل غيبى خارق. ودعـم لهـذه الرؤية موقفها سقوط المنظومة السوفيتية وتفككهـا، وبقيـت أوروبا وأمريكا، لكن قبل ذلك كان يجب تهيئة الأوضاع فى بلادنا واستلام التيارات الإسلامية المتشددة لمقاليـد السـلطة فيها، تهيئة لاستلام قيادة العالم، وهذا بدوره إنما هو عامـل أساسى لاستحضار القوى السماوية لأنه إزالة للطواغيت التى تمنعها من الحضور.وعند هذه النقطة بدأ نهر الدم فى التدفق.

لكن على الوجه الآخر بالرؤية العلمية وحدها يتضـح أننا قد وصلنا إلى مفترق الطرق الكبرى وإلى منطقة الأزمة، فمع إصرارنا على الثبات وعدم التغير، وفقد القـدرة علـى

التكيف مع المستجدات، تراكمت هزائمنـا وتفـاقم هواننـا، وتلازم مستوى سرعتنا فى الهبوط مع تسارع هائــل فـى التقدم العلمى والتقنى والحضارى فـي جـانب حـزب الشـيطان. ومنـطـقة الأزمة لابد أن تدفع

بالضرورة إلى طرح تساؤلات جديدة لم نعتد سـماعها، وأن تركز تلك التساؤلات على النقد الذاتى لكشف الخلـل حيـث النقد هو مفتاح الحضارة ورسول التقدم، ولأنه لا يمكن إقامة بناء سليم على أسس معطوبة. إننا بحاجة الآن وبإلحاح إلـى (نقد المنهج).

فلسفة الهكسوس(*)

قد يختلف كل الناس حول حقب بكاملها فى التاريخ، لكن أحداً لا يختلف فى أية بقعة فى الدنيا، وعلى أى مستوى، أن مصر قدمت للدنيا أول حضارة سامقة متكاملة، فاستحقت عن جدارة لقب (أمة) حقاً وصدقاً وعلماً. وأبدا لم تتحقق لأى من دول المنطقة ناهيك عن دول العالم، حتى العصور الحديثـة، الشروط العلمية الضرورية اللازمة لمفهوم الأمة إلا مصـر، منذ حققت وحدتها التاريخية الكبرى قبل قرون طويلـة مـن معرفة الإنسان الأوربى للمدن المستقرة.

ورغم الترديد الببغائى - وأظنـه المقصـود - لأفكـار مغلوطة عن مصر وتاريخها، وكونها كانـت دومـاً الابنـة الشرعية للدكتاتورية المطلقة، وأنها كانت وستظل فى حالـة قدرية مفروضة ومحكومة بنموذج نمط الإنتـاج الزراعـى الآسيوى، ومنظومة الاستبداد الشرقى، فقد أقامت هذه الرؤية نظريتها على فكرة السيطرة على نـزوات النهـر العظـيم المفاجئة الدورية، بين فيضانات عالية وشح يصل إلـى حـد الجفاف، اضطرت المجتمع إلى تكاتف قوى العمل تحت قيادة واحدة آمرة ناهية لا تقبـل الاعتـراض أو الإرجـاء. لأن الطـوارئ المفاجئـة طـورت الديمقـراطية البدائية فـى المجامع

(*) تم نشره فى جريدة الأهالى بتاريخ ١٩٩٨/٣/٤ العدد رقم ٨٥٩

والمشتركات المدينية والمعبدية نحو توحد وطنى قومى، فـى دولة مركزية ديكتاتورية بالضرورة، يمكنها اتخاذ القرارات الحاسمة لمواجهة الطوارئ المفاجئة.فابتعدت عـن الشـكل الديمقراطى الأول للمشتركات، التى كانت تتعدد فيهـا الآراء بتعدد المصالح ووجهات النظر، دون قرار حاسم إزاء نهـر جبار وحاسم.

إن هذا الترديد كان ومازال - عندى - أبعد مـا يكـون عن العلمية وشروطها وقوانينها، فمـا كـان ممكنـاً علـى الإطلاق فى ظل الديكتاتورية أن يبدع المصريون كـل مـا أبدعوه من علوم متقدمة وإبداعات لم تزل فخر الإنسانية على الكوكب الأرضى وفنون على كل الألوان والأنـواع؛ مـن هندسة الرى والمعمار إلـى المسـرح الملحمـى فـى أول مسرحية ملحمية ميلودرامية فى التاريخ، كما فى مسـرحية آلام (أوزيريس) وقيامته، إلى الشعر الغنائى والشعر الثورى كما فى القصائد التسع للفلاح الفصيح والحكيم(نفـرر حـو)، إلى الشعر الإلحادى الذى كان يلقى دون ملامة فى حضـرة الفرعون والمجمع الكهنوتى الرسمى وأمام الجماهير، وهو ما تمثله «أغنية العازف على الهارب»،إلى النقد اللاذع الناضج سياسياً واقتصادياً واجتماعياً فى قصائد الحكـيم (أبـى أور) الذى وصفه الأركيولوجى عالم المصريات الأشهر (برسـتد) بأنه أول الأنبياء وأكثرهم علما وحكمة، إلى ألوان الـرقص الإيقاعى والرمـزى والترفيهـى والأكروبـاتى والشـعبى والرسمى، مزجوا فيها الروح بالجسد واحترموا كليهما دون انفصال، فأبدعوا الرقص شبه العارى ليقرأوا

الروح فى لغة الجسد المبدع، فى مواسم احتفاليـة كرنفاليـة كثيرة متلاحقة، لو تابعتها لاندهشت متى كان هؤلاء النـاس يبدعون، بينما هم كانوا يبدعون لهذا السـبب تحديـداً بعـد الترويح الضرورى للعقل المنتج، إلى مواسم العمل الكبـرى التى يتحول فيها كل الوطن إلى رجل واحد وسـاعد واحـد، إلى اختراعات وكشوف تقنية هائلة التنوع كماً وكيفاً. ثم كان عشقهم العظيم للحياة وولههم وفرحهم بها دافعاً لاختراع عالم آخر من بعد الموت، فهم لم يقتنعوا أبداً وهم فـى مـرحهم السعيد بواديهم الخصيب بسنوات العمـر المعـدودة، لـذلك اتخذوا قرارهم بأن يعيشوا إلى الأبد، فى عالم آخر من بعـد الموت هو نسخة أخرى من مصر والحياة فى وادى النيـل. فعالم الخلد فى بـدايات الفكـرة كـان اختراعـاً مصـرياً وبمواصفات مصرية، فكى يكون جنات خالدة لابد أن يكـون مصرياً، حتى أعتى الشعوب عداوة لمصر لم ير الجنـة إلا كما رآها المصريون، فتصف التوراة فى سفر التكوين الجنة بأنها «جنة الرب، كأرض مصر - تكوين ١٠/١٣».

لقد وقفت الأغلبية مع معادلة تبدو - فى الظاهر - سليمة تماماً، هى أنه كى تقوم دولة مركزية قوية فى تلك الأزمان، فلابد أن تكون مصحوبة بقرارات سريعة قاطعـة حاسـمة، وأنها لابد - بسبب ظرف مثل ظرف مصر الطبيعـى - أن تُحكم بالديكتاتورية المطلقة.

لكن الرؤية العلمية السليمة لا ترى بإمكان هذه النظرية تفسير كَم الإبداعات الفردية العبقرية البعيدة عن منظومة الحكم، بل وأحيانا من داخلها. وهى الإبداعات التى ما كان يمكن للمجتمع أن يفرزها ويحققها إلا فى دولة مؤسسات مدنية،تسمح بعلمنة ومدنية وحرية مساحة الفكر والإبداع. وكانت عبقرية مصر أنها تمكنت من تحقيق التوازن بين طرفى المعادلة الصعبة، فحيثما كانت مساحة الفكر والإبداع، كانت هناك مساحة الحريات الكاملة.

فرغم المركزية الصارمة على مستوى الإدارة، والتى استدعت وجود رب أكبر للدولة يمثل منظومة الحكم فى السماء «فتاح،ثم رع،ثم آمون للدول الحاكمة الثلاث»،فقد أدرك المصريون مبكراً أن ما حققوه من درجات تحضر فارقة فى تاريخ العالمين، كان نابعاً من حرية المشتركات الأولى التأسيسية. لذلك - أبداً - لم يتم إدماج كل آلهة الوادى فى رب واحد، ولا تم إجبار مواطن على اعتناق عقيدة الدولة، بل لم يعرف المواطن العادى فى أبعاد الوادى المترامية الأطراف رب الدولة المتعالى البعيد. لأن الآلهة كانت بالمئات، وكان فى الإمكان ألا تعتقد فى أى إله ولا تحرم من مظلة المواطنة. بل كان ممكناً فى ظل النضوج الأمثل للدولة، الأمة - أن يتم توجيه ألوان النقد والتجريح حتى يصل إلى شخص الفرعون، بل إلى الآلهة ذاتها، دون أى تحرج.

لقد كانت المساحة الفكرية - بمصطلحات اليوم - مساحة معلمنة حرة تماماً، سمحت بكل هذه الإبداعات. ولتنظر معى - مثلاً - احتجاجات فلاح إهناسيا السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية، أو نصائح الفرعون (آخى توى) لوله (مرى كا رع)، وهو يضع له أسس الحكم المؤسسى المدنى.

كانت هذه مصر، فماذا حدث لمصـر؟ اليـوم أصـبحنا نحاكم الفكر وندين الإبداع، لأن هناك فكـراً واحـداً سـاد وأصبح سيد المناهج، يرى نفسه هو فقط الصحيح المطلـق، وغيره باطل الأباطيل والخطأ المطلق.أصـبحنا هكـذا بعـد ضياع التعددية،وأصبح النموذج الأمثل فى ظل الرأى الأوحد الصحيح هو التوقف عن أى إبداع. وبدلاً من العطاء الفكرى والثقافى والفنى أصبحنا نسمع عن رحلـة المفكـرين مـن الضلال إلى الإيمان بالرأى الأوحد، وعـن توبـة الفنـانين والفنانات وتأسلم الشيوعيين، وفساد يستشرى علنـاً فصـيحاً جهيراً تحت سمع القانون وبصر الدولة. ومحاكمات للمفكرين لأنهم يفكرون، ويقتلون بيد من يكتبون من أجلهم، وإدانـات للفنانين والفنانات وفضائح تشهير. مـع عجلـة متسـارعة واضحة تميل إلى الإدانة الفورية كلما كان الشـخص ممـن يمارسون العمل الإبداعى. والمصيبة الكارثية أنه حتى فـى المؤسسات المفترض أن مهمتها الدفاع عن المبدعين تحولت لتصبح أدوات إدانة وتشهير، لأن هذه المؤسسات لـم تنشـأ نشأة سوية من بين أصحاب المصالح فى قيامها، لكنها جاءت فوقية، لذلك سهل على التأسلم السياسى السيطرة عليها

من فوق، ولم تفهم مؤسسة الحكـم المصـرى حتـى الآن، وترفض أن تفهم. أما الكرنفالات فقد انتهت من حياتنا نهائيا.

ويمتد الدرس بطول حقب التاريخ المصـرى، فالمتـابع لتاريخ مصر القديم،سيجد هذا التاريخ الممتد مـن العبقريـة يتوقف فجأة، لا إبداع، لا كرنفالات، لا علوم،بل ولا حتـى كتابة أو تدوين،كما لو أن ستاراً كثيفاً من الظلمة قـد هـبط فجأة على التاريخ المصرى. وكان ذلك إبان حكم الاحـتلال الهكسوسى الاستيطانى البدوى لمصر.

والمفارقة المدهشة أن مصر الزراعية المركزيـة كـان يفترض فيها عـدم الإبـداع لخضـوعها لمنظومـة الإدارة الدكتاتورية، لكنها أعطت وأبدعت للسبب الذى أعود فأؤكده: هومساحة الحريات على المستوى الفكرى، لأن تعدد ألـوان الحياة فى وادى النيل، أدى إلى تعدد مماثل فى الرؤى، وتعدد مماثل فى ألوان الولاء، فكان لكل كائن أو ظـاهرة طبيعيـة إله، يمكنك أن تتبع مؤسسته الكهانية، أو تتبعه هو وحده، أو تتبع غيره أو لا تتبع أحداً أصلاً، لأن التماسك الطبيعى الذى حققه النهر، مع الحدود الواضحة الفاصلة الكبـرى الآمنـة، بامتداد سيناء الصحراوى القاسى شرقاً، والبحر العميق شمالاً ومجاهل أفريقيا جنوبا، والصحراء الكبرى غربـا، عوامـل شكلت أمنا من لون خاص، وتماسكاً مجتمعيـاً غيـر قابـل للتفكك، رغم التعددية الهائلة على مستويات مختلفة، أهمهـا المساحة الفكرية، مساحة الرأى والاعتقاد، مساحة الإبداع.

بينما على الجانب الآخر البدوى، كانت القبيلة قد انتهـت إلى نظام الواحدية الأولى، لأنها كانـت لا تعـرف معنـى المواطنة ولا الوطن المستقر لتحركها الـدائب وراء المـاء والكلأ، أو للهجوم على حدود البلدان الزراعيـة المسـتقرة لسلبها عرق العام إبان موسم جمع المحصول.

لقد قامت فلسفة القبيلة على التماسك الكامل علـى كـل المستويات، خشية الضياع، فكان كل الأفراد فى واحد. كانت القبيلة مستعدة للفناء جميعاً من أجل الثأر أو الدفاع عن أحـد أفرادها. ذابت جميعها فى جدها البعيد وسلفها الذى أصـبح رباً لها يضمن لها وطناً متحركاً هو بدوره معها أينما حلـت أو ارتحلت. هو رمزها وضامن وحدتها وبقائها. ويتمثل ذلك واضحا فى القبيلة الإسرائيلية التى كانت تحمل ربهـا فـى تابوت معها فى حلها وترحالها، وكانت تعترف بأن للقبائـل الأخرى أربابها، لكن الرب الوحيد الجدير بالولاء هو ربهـا هى.

ورغم ذلك كانت القبيلة - ولم تزل - تتمتع بنظام حكـم شبه ديمقراطى له شيخ منتخب حسب الظروف التى تحتـاج مهارات بعينها، تتوافر فى شخص بذاته يتم انتخابـه لـيحكم بمساعدة مجلس القبيلة الاستشارى. لكـن علـى المسـاحة الفكرية كانت الديكتاتورية كاملة والرأى أوحـداً، لا رب ولا فلسفة ولا رأى إلا الولاء لمنطق القبيلة وحده وربها وحدها، لأنه هو ذاتها وقوام استمرارها.

ألا ترون معى أننا بحاجة إلى إعادة النظر فى كثير مـن قواعد قراءة التاريخ التى نظنها علمية؟

المهم.. هكذا كان الهكسوس، حتى بعد أن وحدت قبائلهم ظروف المتغيرات الطبيعية فطردتهم من مساحات جغرافيـة واسعة، وجمعتهم فى سعيهم وراء مواطن جاهزة مفروشة.

لهذا أظلم الزمن المصرى إبان حكم الهكسـوس،وتوقفت مصر عن العطاء والإبداع، بعد أن توحد الجميع فى واحـد على المستوى الفكرى، وساد الرأى الأوحد الصـحيح علـى الإطلاق. وفجأة يرفع الستار مع عـودة الحكـم المصـرى الوطنى الزراعى التعـددى: الفكـر والـرأى، بعـد طـرد الهكسوس من مصر. لنرى أعظم الإبداعات طراً فى العـالم أجمع مـع الدولـة الثالثـة (الحديثـة) المعروفـة بدولـة الإمبراطورية.

ومرت مصر بألوان متعددة من الاحتلال، لكن البـدوى منها فقط كان يعيد إغلاق ستار الهكسوس على الإبداع والعلم والفن.

احتلها قمبيز فدمرها، ثم احتلها اليونان بالفتح السكندرى فازدادت عطاء وعلماً ومعرفة بمزج فلسفة اليونـان بعلـوم المصريين. واحتلها الرومان فتخضـبت بالجديـد فأعطـت المزيد، حتى غزاها العرب، ولا أحد يمارى فى أنـه كـان غزواً فالإسلام يسمى حروبه غـزوات، وأصـبحت مصـر عربية اللسان عربية الفكر، لكنها قامـت تمصـر غزاتهـا

ليصبحـوا جزءاً مـن نسيجها، واستخدمت مفردات ولغـة خاصة ضفرتها من لغتها القديمة ومن اللغة العربية لكن وفق قواعد وقوانين المصرية القديمة، وفى كـل الحـالات التـى كـانت تستعيد فيها مصراستقلالها عـن الدولة الأم ويتوقف نزح خيراتها مؤقتاً إلى مركز الخلافة، كانت تبدأ فى استعادة عافيتها ويعلو صوتها الإبداعى مرة أخرى.

واليوم فى ظل الهجمة البدوية القبلية النفطية العاتية على المساحة الفكرية فى مصر، أمكن عودة مناخ الهكسوس بكل ضراوة، فغاب النقد الفاعل المغير، وانتشر الفساد والرشوة، وأصبح للقانون حدود مطاطية، ولأساليب الضبط أخلاقيـات ومقاييس زئبقية، وسادت الهستريا نتيجـة توسـيع مسـاحة التحريمات على الفكر لصالح الباشـوات والعمـائم وكبـار الأفاقين الأماثل. ومن ثم لم تبق سوى مسـاحة صـغيرة لا تتسع لكم غضب هائل لدى من امتلك وعياً مزيفاً مع قلم فاقد للمنهج العلمى والوطنى.ومن هنا قـام الغاضـبون يـأكلون بعضهم بعضاً فى تلك المساحة المسـموح بهـا فـى النقـد والصراع.

بفلسفة الهكسوس تلك حاكمنا نصر أبو زيـد وصـادرنا العشماوى وخليل عبد الكريم، وبها كفرنـا إبـداعات عبـد الوهاب ونجيب محفوظ، وبأمرها حولنا كليات الفنـون إلـى كليات نظرية بعد تحريم الموديلات الطبيعية، ووسـط هـذا الصخب الهستيرى ضاعت الرؤية، وقبع الإرهـاب، وكمن وراء كل باب يطـل علـى أيـة مساحـة للحريـات والإبـداع . ومـع الفرصـة تقـوم قـوى المصالـح

تستثمر الواقع وأدواته لشغل الـرأى العـام عـن القضـايا المصيرية الكبرى للوطن .

مرحباً جارودى[*]

مثل هذا الهوس بجارودى له سابقة أخرى أيام الملاكم الأمريكى محمد على كلاى. هوس يشير إلى مرض نفسى ينتشر انتشاراً وبائياً حاداً بين أمة العربان، يمكن تعريفه بأنه «هستريا النرجسية الجماعية المخصية».

والنرجسية كما تعلمون هى مرض حب الذات إلى حد المبالغة والتضخم والورم غير الحميد، فيعتقد المريض أنه إنما وجد لتدور الأكوان من حوله، وأنه «خير أمة أخرجت للناس»، بينما الواقع يجهر بتكذيب هذا التميز الواهم وينفيه. وهو ما يؤدى إلى سوء حالة المريض فتتعدد حالاته وتتشتبك عقده، لذلك نعانى من عقدة الاضطهاد، وأن العالمين جميعاً يتربصون بنا لأننا مسلمون فقط. وأن هبوطنا إلى مستوى دول من الدرجات الدنيا ليس إلا ناتج مؤامرة كونية تاريخية يقودها حزب الشيطان منذ عبد الله بن سبأ والفتنة الكبرى، مروراً بالصليبيين ثم الاستعمار الأوروبى. وانتهاء بالكشف فى تفاصيل المؤامرة عن تحالف العلم والمنهج العلمى مع المجتمعات الأوروبية، مما أدى إلى تقدمها وتخلفنا على كل

(*) أرسل فى حينه إلى روز اليوسف ولم ينشر.

المستويات. وأن علماء العالم وفلاسفته ما صاغوا علومهم وفلسفاتهم إلا كراهة فى الإسلام وأهله وحرباً عليه من ماركس إلى داروين إلى فرويد. حتى تجسد الشيطان الأكبر أخيراً بنفسه فى الأمريكان والإسرائيليين. لكن حزب الله إن شاء الله هم الغالبون، والسبيل إلى ذلك ليس بمتابعة العلم ومنهجه العلمى والمساهمة فى الكشف والإبداع العالمى إنما بالعودة إلى السلف الصالح وكيف سلكوا فنصرهم الله، وهم أذلة. ومن ثم قمنا بتقصير الجلابيب وإطلاق اللحى وكفرنا المفكرين ودعرنا الفنانين، بحسبان تلك هى الخطوات الضرورية لمجيئ الملأ السماوى بقيادة الملاك جبريل على فرسه حيزوم، لينصر أمته بعد أن هبطت إلى قاع تراتب الأمم، وهان شأنها على العالمين. هذا دون أن نلقى نظرة واحدة إلى داخلنا وكيف نعيش وكيف نسلك وكيف نفكر.نحن لا نرى خروقنا وجهلنا ومنهجنا الواحدى الثابت المتخلف، لأننا نعتقد فى كوننا أمة مقدسة لا تخطئ. ولا شك أن ما يحدث لنا ليس لأننا نستحق ما وصلنا إليه، ولكن بسبب المؤامرة الكونية التاريخية!! وهذا المنهج الملتبس بوباء النرجسية يدفع إلى الهروب من الواقع بالنفخ فى الذات والعيش فى حلم مدينة الإسلام الفاضلة المقبلة، التى ستحرر بلاد المسلمين من هوانها وتخلفها ومن الاحتلال، لتحتل هى بلاد الدنيا وتنفل خيراتها وتسبى نساءها(؟!!).

وبين الحلم العنصرى فى السيادة واحتلال البلاد والسبى مع تسييد ثقافتنا المحنطة، وبين الواقع بكل مراراته نستعيد أمجاد العصور الخوالى، ونتنفس الخرافة ونمضغ الأسطورة، ونجتر العلامات اليتيمة للحريات والعدل الاجتماعى، فى عبارات طنانة من قبيل: أصابت امرأة وأخطأ عمر، ولو عثرت دابة بالعراق.. الخ، وهى عبارات تعد على أصابع اليد الواحدة عبر تاريخ يمتد أكثر من أربعة عشرقرناً ولم تجد طريقها إلى إصلاح الواقع حتى فى زمانها.

وينكشف خصاء نرجسيتنا أمام الدنيا ونحن نستقبل جارودى استقبال الفاتحين، فهو من سيرد عن أمته الإسلامية(؟!) الكيد الفكرى الصهيونى الشيطانى بعلمه. لأننا فى ظن أصحاب الاحتفالية لا نملك الإمكانات ولا القدرات العلمية والمنهجية الضرورية. وهكذا انفتح أمل العجزة بضم غير العجزة إلى حظيرة الإسلام.

ومع هذا النصر المؤزر والآيات الباهرات بإسلام جارودى، قرر الحمزة دعبس أن يدعو - بالمرة - كلينتون إلى الإسلام.

لقد وصل المرض قمته وأصبحت بلادنا مستشفى (طالبانى) كبير للأمراض النفسية المستعصية، فما الذى دعى دعبس إلى ذلك؟ الإجابة أن بلاد المسلمين بلاد تقبع فى وراء مؤخرة الزمان، وأن

كلينتون رئيس أقوى دولة فى العالم، وأن كلينتون وأمريكـا ينتصران لإسرائيل ويتعاملان مع المسلمين بكـل غطرسـة واستعلاء واقتدار. ولا حل إذن إلا على طريقة العثمـانيين، أن يسلم كلينتون ونستسلم نحن لسيادته وسيادة بلاده، يعنـى يمكننا القبول باستعمار كامل الأوصاف شرط أن يكون السادة مسلمين. لقد تدهور بنا الحال إلى موضع أدنى من موضـعنا زمن الحملة الفرنسية عندما رفض مشايخ الأزهر وجمـاهير الوطن الاستعمار الفرنسى رغم إعلان قادتـه إسـلامهم. إن الوجه الآخر لدعوة دعبس كلينتون للإسـلام هـو انـدماجنا الإرادى فى أمة عالمية سيدها مسلم يكون ونكون نحن ذيلها ومحل تجاربها العلمية.

لقد تحولنا إلى بشر كفوا عن التكيف مع المتغيرات فلـم يتطوروا وأصبحوا حقبة ساكنة حفرية بين الإنسان الواقـف على قدمين، وبين الإنسان المتحضر. لذلك نطالـب اللحـاق بالسادة شرط أن يكونوا مسلمين. وهى دعوة لم يـدع بهـا إخوتنا الأقباط شركاءهم فى المسيحية فـى الـبلاد القويـة المقتدرة، رغم ما يعانون منذ أيام الأنبا بنيـامين والعـرب الفاتحين حتى اليوم، أبداً لم يفعلها الأقبـاط ويفعلهـا دعـاة الإسلام الآن؟!

ولأن جارودى يجهد نفسه فـى العلـم وأصـوله، ولأن فصيل رجال الدين المحترفين منهم والهواة، لا يملك من زاد هذا العلم شيئاً ولو يسيراً. ولم يقدموا ما قدم جـارودى مـن تفنيد علمى رصين

للادعاءات الصهيونية والأساطير الإسرائيلية، فقد تساهل أهل شئون التقديس مع جارودى فى انتهازية ومطاطية لا تليق فى أمور الدين. ولم يستمعوا إلى الشهيد (فرج فوده) وهو يجأر لهم بالنداء (اختبروه بالختان)، لتمحيص إسلام الرجـل، لأن الختان شعيرة حنفية فارقة لأهل القبلة. وقـد يبـدو تسـاهل وعاظنا مع قضية ختان جارودى موقفاً تقدمياً متساهلاً، لولا أنهم ذاتهم من أدانوا تاريخيا بولس الرسول تلميذ المسيح لأنه أباح عدم الختان للراغبين فى دخول المسيحية.

ومن المناسب التذكير هنا أن جارودى لم يلتفت إلى هذا التنازل الكريم والرشوة الفصيحة، وظن أن علمـه سـيغنيه. فتصرف برعونة العلماء وغرور المفكرين. فقام يهاجم جمود الإسـلام والمسـلمين ومشـايخهم العنـاتر وعنصـريتهم وأساطيرهم. متصوراً سامحه الله وعفا عنه أن بإمكانه تحت راية الإسلام أن يفكر بحرية وأن يبدع دون قيود وتحريمات، كما هو معتاد فى بلاد الإفرنج الفرنسيس، غير مدرك أن ما يفعله بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فـى النـار. وأن عليه أن يخلع كل أثوابه القديمة بما فيها عقله ورأيه وأفكاره الملوثة بالديمقراطية والليبرالية والعلمنة وحقوق الإنسان وما إلى ذلك من بدع الغرب الكافر.

ولم يزل الصـدى يـردد أصـوات مشـايخ الإسـلام بتكفيرجارودى بالأمس القريب واتهامـه بالـردة عـن الإسلام.لـكن مع الضعف والهوان أمام الدولة الإسـرائيلية، ومع ظهـور كتـاب جـارودى الأخيـرعن الأسـاطير الصهيونية، تم الصفح عن جارودى وإعادته مرة أخرى إلى حظيرة المسلمين، وقامت هيئـات الدولـة الثقافيـة نفسـها

باستضافته فى احتفالية رسمية، يقودها مفكرو الدولة ورجالها المسئولون عن التثقيف العام.

نحن نفهم سر حفاوة الوعاظ بجارودى، نظرا لضـعفهم الكامل عن أى مواجهة فكرية مع الصـهاينة، لكـن غيـر المفهوم أن يحتفى به معرض الكتاب الدولى وهيئة قصـور الثقافة والهيئة المصرية العامة للكتاب، وصـحفنا القوميـة، والمعارضة على السواء؟! ولو كانت هذه الحفاوة التكريميـة بالرجل لأنه يتعرض للاضطهاد بسبب رأيه وفكره وعقيدته، فهو موقف كريم مشكور، راق وعظيم ونبيل وواجب، لكـن هل كان ذلك هو سر الاحتفاليـات المقامـة علـى شـرف جارودى حقاً؟

إذا كان هذا الفرض صحيحاً، فـأين كانـت كـل تلـك الأجهزة التثقيفية المباركةعندما تم اضطهاد حسين أحمد أمين دون احتفالية تأييد واحدة؟ وأين كانت أصـواتهم المحتجـة عندما تم اغتيال الشهيد فرج فودة ؟ وأين كانت مـؤتمراتهم فى أزمة نصر حامد أبو زيد؟ وفى أى جحور كانوا يختفون عندما اضطُهد حسن حنفى ولم يزل، وأيـن هـم الآن مـن محاكمة خليل عبد الكريم؟

الكارثة أنهم ليس فقط لم يكترثوا لهـؤلاء، بـل شـارك بعضهم من مثقفى الدولة فى مذبحة الرأى ضدهم، وعليه فإن افتراض سبب الاحتفالية باضطهاد جارودى لرأيه لا يفسـر الاحتفاليات الكبرى به، لأنهم لو كانوا يحتفون به دفاعاً عـن

حقه فى إعلان رأيه وما يعتقد، لكانوا فعلوها مع أبناء الوطن وهم الأولى بالتضامن «منهم من صودرت كتبه ومنهم من حوكم ومنهم من سجن ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر».

إذن السبب أن جارودى ينتقد أساطير الصهاينة نقدا علميا بينما يقعدهم المنهج الحجرى الثابت عن إتيان مثله؟

إن هذا الفرض يسقط بدوره فوراً، لأن لدينا مفكرين كباراً لا يقلون شأناً فى تناول الشئون الإسرائيلية بالنقد والتحليل وهم والحمد لله كثيرون. ومع ذلك لم يحتف بهم أحد، بل إن الأكثرية الساحقة لم تسمع بواحد منهم كما سمعت بجارودى. بل إن الفضيحة فى أن من يقفون اليوم إلى جانب جارودى الذى فضح أساطير الصهاينة، هم أنفسهم من طالبوا بمحاكمة كاتب هذه السطور فى كتاب كان مشغولاً بفضح أساطير الصهاينة بدوره، «السبب هو التباس الأساطير الصهيونية بمأثورات إسلامية تعد مناطقها من المحرمات». أى أنهم حاكموا كاتب هذه السطور لذات الأسباب التى وقفوا بموجبها إلى جوار جارودى، فهل هناك فصام أفصح من ذلك؟

إذن يسقط هذا الفرض لتفسير الاحتفاليات الجارودية بدوره، لنتساءل باحثين عن فرض آخر: هل السبب أن الرجل خواجة؟ وللخواجة فى تاريخنا عقدة ودلالات ومغزى وقيمة لأنه رمز التفوق. ذلك التفوق الذى نحترمه فى دواخلنا عندما نستخدم كل منتجه التقنى، ونحتقره فى العلن بحجة أنه

حضارة مادية أهملت الروح، لذلك نكرهه أيضاً. وجـارودى فرز التفوق الغربى، نكره تفوقه عندما ينقد مناهجنا الحفريـة وعقليتنا الأسطورية، لكنا نحبه ونحترمه عنـدما يفعـل ذات الفعل مع الصهاينة الخواجات مثله!!! لكن هذا الفرض يسقط بدوره ولا تكفى عقدة الخواجة لتفسير الاحتفاليات الكبـرى، والسبب أننا لم نحتف بخواجة آخر كان أشـد اقتـداراً مـن جارودى على المستوى النضالى والحركى. وقدم بدل العمل الواحد عشرات الأعمال فى نقد الصهيونية وتفنيد مزاعمهـا ومن بعض عناوين تلك الأعمال (الصهيونية فـى النظريـة والتطبيق، الفاشية فى ظل النجمة السداسية، التخريب الفكرى الصهيونى، الفلسطينيون شعب لا يقهر، فلسطين فى شـراك الصهيونية... الخ).

كان هذا هو الفيلسوف الروسى(يفجينى يفسييف) الـذى اضطهد بسبب آرائه ونكل به حتى لم يبق سـوى تصـفيته جسدياً. وهو ما قامـت به سيارة سوداء فـى منتصف الليل أمـام بيتـه، فعجنـت لحمـه بعظمـه عـدة مـرات. وفى١٩٩٠/٢/٢٠ شيع جثمانه عشرات الألـوف وتحولـت جنازته إلى مهرجان سياسى يندد بالصـهاينة، فهـل سـمع المحتفون من مثقفى الدولة الأماثل عن(يفجينى يفسييف)؟ لقد كان خواجة أيضا لكنه لم يكن مسلماً، لقد كـان شـيوعياً؟!! لذلك لا يعرفه أحد فى بلادنا.

وعليه لم يبق سوى سبب واحد يفسر احتفـالات منـابر التثقيف الرسمى بروجيه جارودى وهو أن جـارودى كـان مـن أتباع الصليب ثم أصبح من أتباع المصحف والسيف.

لهذا فقط يحتفى بك العربان يـا جـارودى، ولا نظنـك ترضى بالنزول إلى هذا الدرك. نعم مرحباً بك ضيفاً عزيزاً. ومعك فكرنا وضمائرنا وأقلامنا دفاعاً عن حقك فى إبداء ما تعتقد، لكنا أبداً لسنا معك لمجرد أنك مسـلم، فهـذا درك لا نرضاه لأنفسنا، لأنه العنصرية ذاتها.

منهج التكفير(*)

منطق القوة الغشوم هو بالضرورة منطق الكائنات التى منحتها الطبيعة القوة البدنية وسلبتها ملكة العقل والتفكير، وفى مملكة الأحياء يسير الارتقاء تطوراً نحو مزيد من العقل والمنطق يصاحبه انخفاض فى مستوى القوى الجسدية. وذات الأمر ينطبق على النوع الواحد فكلما قويت حجة الإنسان ورجح منطقه استغنى عن القوة فى الصراع، كما أن ذات المنطق يؤكد أن الإنسان قد ارتقى من بين الكائنات جميعاً وحقق سيادته على كوكبه نتيجة لاستخدامه منطق العقل. فقط يلجأ إلى القوة والقتل والتدمير عندما تعجزه الحجة العقلية والبرهان فى الصراع.

وفى السنوات الأخيرة شهدنا قليلاً من المعارك الفكرية الراقية انسحبت بسرعة لتفسح المجال للون آخر يعبر عن عجز بعض الأطراف عن خوض المعارك بأسلحة نبيلة وشريفة فيلجأون إلى الأسلحة الرديئة وعادة ما تكون فاسدة ترتد فى وجوههم دون حاجة الخصم لأى تعليق. وتتعدد سبل وأدوات العجز عن المواجهة الشريفة، فيلجأون إلى كيل الاتهامات والتخوين والتكفير والشتائم والبذاءات والمؤامرات دون الوقوف العقلانى مع ما يطرح أمامهم من منطق.

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف بتاريخ ١٩٩٨/٩/٧ العدد ٣٦٦٥

وغنى عن البيان أن التكفير والتخوين قـد أصـبح هـو القاسم المشترك اليوم فى لغة المشتغلين بشـئون التقـديس، سواء كان منهم المستترون تحت لافتات من قبيل (الكاتب أو المفكر الإسلامى)، ولا نفهم ماذا تعنى؟ اللهـم إلا إذا كـان الآخرون غير مسلمين، وهؤلاء تكون لغـة التكفيـر لـديهم ضمنية لكنها لا تصمد للفحص والفضح، أو سواء كان منهم المتطرفون الذين يعلنونها صـريحة واضـحة دون لـف أو دوران أو مواربة.

ورغم الزعم أن هذا المنطق جديد ووارد وليس من شيم الأمة لإلقاء اللوم طوال الوقت على العدو الموهوم خارجنـا، فالمعلوم للقاصى والدانى أن الأمر قد بدأ منذ معركة الجمـل فى ٣٥هـ، وربما قبلها فى سقيفة بنى ساعدة، ومن بعـدها فى صفين ثم فى النهروان ثم كانت قمة المأساة فى كربلاء، وكان الشاهد الواضح علـى أن ارتبـاط الـدين بالسياسـة وبالصراع على السلطة والنفوذ وصل إلى امتهان الدين نفسه بل ومزق الأمة، وانطلقت السيوف حتى استأصـلت حفـدة صاحب الدعوة أنفسهم، وإلى سيلان دمـاء المسـلمين فـى مجازر كان ضحاياها أكثر من ضحايا صراع المسلمين مـع غير المسلمين.

وكان ظاهراً للعيان أنهم جميعاً على تناقضاتهم الصارخة واختلاف سيوفهم على رقاب بعضهم البعض من الصـحابة الأكارم.

ويعلمنا درس التاريخ القريب أن الأنظمة الفاشية تعمـد إلى تبرير مسلكها بعدد من الأدوات كان أبرزها وأكثـرها جودة وكفاءة (الدين) . ولأن الدين عادة ما يكـون عنصـراً محايداً يحمل أكثر مـن وجه، فـإن الدولـة فـى الأنظمـة

الفاشية، وأيضا الضعيفة التى لا تجد حلاً ناجزاً لمشـاكلها، تلجأ إلى وسطاء الدين المحترفين ليقوموا بالانتقاء من بـين النصوص ما يوافق هوى الحكومات، أو إعادة القـراءة، أو تأويل النصوص بما يبرر المسلك والخيار المطلوب.

وهنا يجد العاملون بشئون التقديس فرصـتهم التاريخيـة لدعم مصالحهم والعـودة بقـوة إلـى الصـفوف الأماميـة السيادية،وهو الأمر المتكرر عبر التاريخ فـى أكثـر مـن موطن، لكنه كان واضحاً كل الوضوح فـى تـاريخ الـبلاد العربية بشكل خاص.

ومع تبدل الأنظمة الحاكمة وتوجهاتها تتبـدل القـراءات والتأويلات للنصوص، لسبب بسيط أوضحه الإمام على بـن أبى طالب عندما أبان أنها لا تنطق بلسان لكن ينطـق بهـا الرجال، وهو قول حق وقصد حق. لأن أى مفسر أو مـؤول لا يمكنه الزعم أن رأيه هو الصح المطلق، وإلا كان كمـن يزعم الاطلاع على المقصد الإلهى الرفيع.

وهنا تكمن جريمة مزدوجة، جريمة فى حق الدين وفـى حق العباد، فيتم التفسير والتأويل ويقدم بحسـبانه الصـواب النهائى. ويتم تطبيقه على عبادالله دون اعتبار للمظالم التـى تقع وترتكب باسمه، والمقصد الإلهى بـرئ منهـا. وهـ ـو الأمر الذى شهدنا بشاعاته فى تاريخ أوروبا الذى بلغ قمتـه إبان زمن محاكم التفتيش، كما شهدناه فـى تـاريخ الدولـة الإسلامية الإمبراطورية على تبدل الحكام فى دولتهـا وفـى دولها ما بين أموى وعباسى وما بين سنى وشيعى وفاطمى. وكان كل نظام يجد لمؤسسته أسانيدها الشرعية والنصية، مع عدد غفير من فقهاء كبار يبـررون للنظـام وجهـة نظـره ومنهجه السياسى، ومظالمه وقمعه للعباد.

ولأن مصر المحروسة هى شاغلنا وهمنا الأمس واليوم وغداً، فلا مفر من تسجيل حقيقة واضحة بشـأنها، فالدولـة بمؤسساتها الدينية تقدم كل إمكاناتها لإثبات حرصـها علـى صحيح الدين من وجهة نظرها، بينما يقـدم تيـار الإسـلام السياسى وجهة نظر أخرى هى النقيض تماماً، وكل منهمـا ينطلق من ذات النصوص، وكل منهما يعلم يقينـا أن هنـاك وجوهاً أغفلها للمقدس وسكت عنها وعتم عليها عـن قصـد لأنها لا توافق خياراته السياسية.

وهنا بالتحديد يحدد لنا الدكتور فؤاد زكريا نقطة الضعف الأساسية فى خلط المقدس الدينى بما له من احترام واجـب بأوراق السياسة وألاعيبها. لكن ذلك الضـعف يشـكل فـى مستوى آخر خطـورة شـديدة لأن خلـط أوراق السياسـة بنصوص الدين سيؤدى إلى خسائر على المستويين، فالسياسة لها دسائسها ومؤامراتها وتكتيكاتها واستراتيجيتها وتقلباتهـا التى لا تراعى سوى المصالح الدنيوية المباشـرة، وتعمـل بإخلاص وفق مبدأ الغاية تبرر أى وسيلة، فإذا خلطنا الـدين بالسياسة أسأنا إلى الدين وعاملناه بانتهازية واستثمرناه فـى مراحل ثم أعدنا استثماره فى مراحل أخرى هى على النقيض من الأولى، وهبطنا به من قدسه إلى منطقة ومنطق لايليـق بقداسته.ولو تعاملنا فى السياسة بأخلاقيات الدين وروحانيتـه وزهده وورعه وتقواه فستكون الخسائر محققة وماحقة وسط عالم يتعامل فى ميدان السياسة بمنطق أبعد ما يكـون عـن منطق الدين.

وبالإضافة إلى الضعف والخطر فى هذا المنهج، هنـاك أيضا تقع الجريمة فى حق الدين وفى حق الناس وفى حـق الوطن،لأن الذين يخلطون الدين بالسياسة هم الـذين نسـمع

منهم صيحات التكفير والمصادرات والتخوين، وهم يعمدون بدهاء إلى مزج الدين وأصوله بآرائهم، ويقدمونه من خلال طرائقهم فى التفكير، بهدف لا يخفى على لبيب، فالهدف النهائى أن يؤول إليهم العمل نيابة عن الله باستبعاد وتكفير كل المخالفين، وبهدف أبعد يطبقون فيه النصوص بما يوافق أهدافهم، ومثل تلك الانتهازية للدين التى يقدمونها للبسطاء من المتدينين الطيبين حقاً وصدقاً هى جريمة بكل معنى الكلمة، تتحول بالوطن إلى فاشية كاملة، سبق وعانينا منها طوال العصور السوالف.

ومادمنا بصدد نقد المنهج فإن هذا النقد يصطدم أول ما يصطدم بأصحاب منهج التكفير المتمسكين بحرفية الأصول لتطبيق النصوص على الواقع الراهن برؤية شمولية لا تراعى مستجدات العالم المعاصر بعد مرور ما يزيد عن أربعة عشر قرناً من الزمان.وإخضاع الحاضر لمرجعية ليست نصية حقاً لكن لمرجعية قراءتهم هم للنصوص وفهمهم لها التى يقدمونها للناس بوصفها الحق المطلق.

ومن هنا فهم يتنادون بدولة يصبح فيها جهاز السلطة السياسى هو الدين من وجهة نظرهم. وأن يقوموا هم على شئونه وكلاء عن رب العباد، ومن هنا تصبح قراراتهم مقدسة، ويصبح مجرد المخالفة ولو شكلية مخالفة واعتراضاً على الدين وعلى الله. وإذا كان حكم البشر يمكن النضال ضده لتغييره فإن مثل ذلك النضال ضد حكم من يحكمون باسم الدين سيكون نضالاً ضد الله، ويتحول الصراع بين الناس إلى صراع بين الناس والله،ولنا هنا أن نتخيل حجم أنهار الدم التى ستجرى فى ديارنا، فى زمن لم يعد فيه وقت

للتجارب على الوطن وعباد الله، بعد أن خضنا ذات التجارب وعانينا منها طوال القرون الغوابر.

أما الرؤية العلمية والعقلانية فإنها تظهر هؤلاء بمظهـر العجز الواضح والفصيح، فهم عجزة عن الأخذ بأسباب التقدم لأن التقدم يعنى العلم والعنت والجهد والمشقة، كمـا يعنـى الحريات الكاملة للفرد، وهو الكفر الفصيح من وجهة نظرهم. والمعلوم أن العلم لا ينمو ولا يزدهـر فـى منـاخ القهـر والاستبداد بقدر ما ينمو فى مناخ الحريات، بل إن هذا العجز لا يحتاج لإثباته، بدليل لجوئهم للأسلاف لحل مشاكل لـم توجد زمنهم، بحسبانهم عكاكيز يتوكئـون عليها نتيجة الشلل الذى أصابنا، الذى نتج بدوره عن هذا المنهج ذاته الذى ران على تاريخنا الطويل المتثائب.

والرؤية السلفية التكفيرية تقدم اقتناعها التام والكامل بتفوق عنصرى لا لسبب إلا للتميز بدينها على العالمين، رغم أنـه ليس لمجتمع بعينه أية خصوصية تميزه بسبب دينه، لأن لكل الأمم أديانها بدورها، وإنك لا ترى على خريطة العالم مـن يقدم مثل تلك الرؤيا إلا بين الدول القابعة فى قـاع التراتـب الحضارى.

والغريب أن منهج التكفير لا يلحظ وهو يلقى بتهم التبعية على كاهل المخالفين، لا يرى أنه هو المنهج التابع العـاجز عن الاستقلال عن الأسلاف، ولا يرى أنه فى تبعية كاملـة لأجيال انقرضت فى زمان غير الزمان وبلاد غير البلاد. أما الأغرب فإن هؤلاء المكفرين يخالفون ما اصطلح عليه فقهاء السنة وأهل القبلة أنفسهم، ويمكنك أن تجده عند ابن نجيم فى (البحر الرائق فى شرح كنز الرقائق) وعند الملا على القارئ

الحنفى فى (شرح الفقه الأكبر للإمام الأعظـم أبـى حنيفـة النعمان)، وعند ابن حجر المكى الهيثمى فى (الإعلام بقواطع الإسلام)، وعند حافظ الدين بن شهاب فى (الفتاوى البزازية)، التى جمعها ولخصها الشيخ خليل عبد الكريم، وكلها كما هو واضح مصادر ذات ثقل ووزن وتحوز اعترافـاً واعتمـاداً واحتراماً، وتجد فيهـا أن حكـم التكفيـر لا يـتم بـ ـدون فتوى،وليس لآحاد الناس إصدار تلك الفتوى ولو كان قاضياً، فصحيح الفتوى يلزمه إجماع الفقهاء وعلمـاء الـدين، ولأن تحقيق ذلك أمر شبه مستحيل فقد أجمع أهـل السـنة علـى تخطىء المسلم لا تكفيره، ويعد ذلك من ممادح أهل السـنة ومحمودهم الطيب، بل وضعوا حدوداً قصوى لا يتم بموجبها تكفير من يصل به الشطط إلى حدودها، فهم لم يكفروا مـثلاً من قال إن لله جسداً كالأجساد المخلوقـة، ولا مـن تمنـى مناكحة الإخوة لأخواتهم، ولا من شك فى أن النبى مـدفون بمسجده بالمدينة، ولا من يؤمن بالحج لكنه لا يـرى الكعبـة المكية هى بيت الله المقصود، ولا من تمنـى عـدم تحـريم الخمر، ولا من قذف جميع نساء النبى عدا عائشة لأن السماء برأتها فى حديث الإفك، ولا من أنكر صحابة جميع الصحابة عدا أبى بكر. إلى هذا الحد لا يكفر من قال به.

ويلاحظ هنا (مسألة التمنى) وأنها لا تكفـر مسـلماً، ولا شك أنه ضمن هؤلاء الذين يتمنون من ينشدون دولة مدنيـة كاملة تأتى فى شكل أمانى ومشروعات وأسئلة. وضمن ذلك أيضاً يأتى نقد المنهج الذى يمكنه التشكيك فى ثوابت جـرى عليها التقديس بفعـل الزمان لا لكونها كانت كـذلك حقـاً، حيث نقد المنهج يبغى الخروج بالوطن من منطقـة الأزمـة سليماً معافى قوياً مقتدراً دون اعتبار أو حسبان لأهل التكفير

والتنفير، بعدما علمنا مدى المساحة المتاحة للقول والرأى فى الفقه الإسلامى، وبعدما رأينـا مـ ـدى تنـاقض المكفـرين وخطورة مـا يطرحون على الأمة وعلـى الـدين وعلـى الوطن. ودون ذلك هناك طريق آخر على مفتـرق الطـرق الكبرى، وهو طريق سبقتنا إليه أمم خرجت من التاريخ وآلت إلى علماء الحفائر والآثار، عندما قررت الثبات وعدم التغير والحفاظ على الشخصية الثقافية الجامدة الواحدة.

منهج الطائفية وجائزة التسامح(*)

فى عرس دولى راق تسلمت السيدة سوزان مبارك جائزة التسامح التى حفظت لهـا حقّهـا التـاريخى عـن جـدارة واستحقاق، لما بذلته من جهود معلومة على مستويات عديدة، لعل أهمها المستوى الثقافى وهـو سـاحة تشـكيل وعـى المواطن، لإيمانها بالتنوير كسـبيل باتجـاه سـيادة مفـاهيم التسامح، التى لا يمكن استقرارها وتفعيلها إلا فى هياكل دولة مدنية. بهدف أن تدخل مصر عصراً تأخرت عنـه طـويلاً، على مستوى الحكومة والدولة والمجتمع، لتسهم بدور يليـق برصيدها التاريخى من الحضارة، فى الدفع من أجل مزيـد من الارتقاء الإنسانى على الكوكب الأرضى.

وفى كلمتها المتوازنة الدقيقة المفصحة عن وجه حضـارى حقيقى، والأكثر رقياً وحساً إنسانياً من كثير مما نسمع فـى عالمنا الثالث، أكدت هذه السيدة الجليلة أن جائزة التسامح هى لمصر جميعاً، وهـو ترميز واضح لأصحاب العقول يشـير إلى طريق الخروج من منطقة الأزمة عبر المعـانى التـى تحملها الجائزة. ورغم ذلك فإن المطالع لجهود هذه السـيدة مقارنا ببقية واقعنا ونغماته السائدة، لن يجد بداً من نقد هـذا الواقع قياساً على رموز جائزة التسامح ومعانيها نقداً واضحاً

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٤/٩/١٩٩٨ العدد ٣٦٦٦ (عند النشر اقتطعت المجلة أجزاء من الموضوع ولم تنشرها).

حتى لا تظل وحدها مع نفر يعد على الأصابع مـن دعـاة الدولة المدنية ينادون فى بيداء ويصرخون فى برية.

* * *

ولا شك أن الاستعمار بكل ألوانه، والسيطرة على الآخر والتدخل فى شئونه الداخلية، وفـرض إرادة القـوى علـى الضعيف سمة من سمات التدنى الحضارى التى لم تـتخلص منها الإنسانية بعد. ونحن بالطبع ألد أعداء الاستعمار، وضد كل ألوانه وأشكاله، لأننا كنا الجانب الأضعف منـذ أغلقنـا النوافذ على عقولنا وتقوقعنا داخل الشخصية الثقافية الثابتـة الواحدة، بينما ننعيها كل يوم على بنى صهيون.

وهنا يأتى التساؤل المفترض عن مدى صدقنا مع أنفسـنا فى الموقف من المبدأ الاستعمارى، وهل هو موقف مبـدئى أخلاقى يتسم بديمومة المبادئ واستمرارها؟ الواضح أننا نلوم القوى لأنه قوى ولا نلوم أنفسنا لضعفناولا نبحث عن أسباب هذا الضعف لتجاوزه لنعيش دنيا الأقوياء. ونروج تبريراً لهذا الضعف أن الاستعمار يكمن لنا بمؤامراته فى كـل طريـق، بينما الحقيقة التى نتغافل عنها هى أن ضعفنا كان السبب فى استعمارنا وتوارى إرادتنا وتراخيها.

إننا من موقع الضعف نعلن دوماً تمسكنا بالمبادئ الرفيعة مثل رفضنا لتدخل الدول القوية فى شئون الدول الأضـعف، ولكننا أبداً لم

نجد بأساً فى التدخل فى شئون أفغانستان إبـان مـا سـمى بالجهاد ضد الشيوعية، كما لا نجد أى مانع من التدخل فـى البوسنة.

نعم نحن ضد الاستعمار لكننا نرسل الـدمع ثـراً فـى بكائيات مكلومة كلما جاء ذكر الأندلس التى تحـررت مـن استعمارنا. وفى الوقت ذاته نؤمن عن يقين أننا رسل السماء لاحتلال العالم ونشر كلمة الله فيه، ولم يزل خطباء المسـاجد والزوايا فى كفورنا ونجوعنا يدعون الله أن يسـاعدنا فـى احتلال بلاد الغير ونفل أموالها وسبى ذراريها ونساءها.

وفى مصنفات سيد قطب نجد دعوة واضـحة صـريحة للتدخل فى شئون الشعوب والأمم الأخرى وفرض الإسـلام عليها بالقوة، لأن منهج الإسلام هو إزالة الطواغيـت مـن الأرض جميعاً وتحطيم الأنظمة السياسية القائمة فيها، أو أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون. أمـا الشـيخ يوسـف البدرى فيرى أنه من واجب المسلمين إعلان الحـرب علـى بلغاريا وأسبانيا باعتبارها دياراً للإسلام.

فهل تفصح هذه اللوحة عن إيمان بمبدأ إنسـانى رفيـع نتمسك به؟ أم أن الأمر لدينا كما لدى الجميع، حيث فعلنا فعل القوى زمن القوة فأقمنا إمبراطورية كبرى بـاحتلال بلـدان المتوسط جميعه، وهو الأمر الذى يسقط حجة تميزنا الثقافى الذى ندعيه ونترفع به على العالم، فقانون القـوة والضـعف يسرى على الجميع دون تميز لشخصية قومية على أخرى.

وهناك مشترك واضح بين أحوال الأمس وظروف اليـوم يقف وراء استمرار دعوة القوة زمن الضعف، وهو المشترك الذى لا يجعلنا نلتفت إلى أمراضنا الذاتية لعلاجهـا، وهـذا المشترك هو منهج الطائفية العنصرى، الـذى يكـاد يلغـى الوطن ومفاهيمه من خريطة هومنـا. فقـط نحـن نكـرر ونكرس طوال الوقت مفهوماً عنصرياً مفاده أننا خير الأمـم بدينها والأفضل بين العالمين لأننا حزب الله وكل آخر هو فى الدرك الأسفل لأنه حزب الشيطان.

وإعمالاً لهذا المنهج دعا الأستاذ الحمزة دعبس الـرئيس الأمريكى كلينتون للإسلام، وهى الدعوة التى سبق ووجههـا لسلفه بوش.وأبداً لم يتساءل الأستاذ دعبس عمـا يمكـن أن يغرى بوش أو كلينتون بالإسلام وهو يرى أحوال المسـلمين فى أدنى درجات الأمم. ويبدو أنه قد تصور أن مجرد إسلام كلينتون يعنى دخول الأمريكان فى دين الله أفواجا، كما لـو كان شيخاً لقبيلة تتبع سيدها، غير مدرك للفارق بين طرائـق الأمريكان وطرائقنا فى التفكيـر وفـى الأنظمـة القانونيـة والاجتماعية والسياسية. ثم لابد أن نتساءل عن موقفنا لو فكر كلينتون بنفس المنهج وطالبنا بـدخول دينـه أو الحـرب أو الجزية؟

إن الطائفية كرؤية عنصرية لا تشكل خطراً على الآخر المخالف خاصة مع وضعنا المزرى خـارج الحضـارة،لكن خطرها الماحق على الوطن والناس فى هذا الـوطن. ولأن أصحاب المنهج الطائفى ينزعجون من قوى الاستكبار فيبدو أن الأستاذ دعبس رأى أن الحـل هـو الاستسـلام لقـوى الاستكبار شريطة أن يكونوا مسلمين، ولا بأس فى هذه الحال

من التبعية، وهو ذات المنطق الذى قبلنا بموجبه حكم الـديلم والمماليك والعثمانلية وغيرهم من سقط متاع الشعوب ومـن سبقوهم على أكتافنـا دوراً فـدوراً، لا لشـيء إلا لكـونهم مسلمين، مما أدى إلى توارى مفهوم الـوطن وكـاد يلغيـه بالكامل.

والمنهج الطائفى لا يتوقف عند تلك الأسماء، إنما يتعداه إلى هيمنة للمنهج العنصرى سياسياً واجتماعياً وثقافياً للدولة والمجتمع ومجموع القيم والسلوك للأفراد والمؤسسات. بينما الشرط الأول للكرامة الوطنية هو تماسك الوطن فى مراحـل التحول والمنحنيات الخطرة، وهو ما يغفله المنهج الطـائفى ولا يستطيع حتى التفكير فيه.

وهنا نستأنس بفقرة للأستاذ نجيب محفوظ أوردهـا فـى كتاب أصدرته الهيئة العامة للكتاب ضـمن سلسـلة كتـب مواجهة الإرهاب يقول فيها: «هناك ملاحظات على تعامـل الدولة مع المواطنين وما يشوبه من تحيز وتفرقة .. والإعلام كثيراً ما يذيع على أوسع نطاق ما يعد استهانة أو تحقيراً أو إنكاراً لعقائد الآخرين، دون مراعاة لما قد يسببه ذلـك مـن هزات فى تماسك المجتمع».

وهذا يعنى أننا نفتقد لعنصر التماسك الوطنى ليس بسبب غيرنا لكن بسبب منهجنا، رغم أن لدينا دستوراً ينص علـى قواعد المدنية، وإن إعمال هذه النصوص لتحقيق الحريـات المدنية هو الكفيل بالوحدة الوطنية التى هى أسـاس هويـة الوطن، فهوية المسـلم المصـرى مصـرية لا أفغانيـة ولا حجازية، وهوية المسيحى المصرى مصرية لا أمريكيـة ولا

فرنسية، وعدم إعمال تلك النصوص بوضوح وبسرعة يعنى تشرذم الولاءات حيث ينتمى المسلم المصرى إلى الأفغـانى والحجازى وينتمى المسـيحى المصـرى إلـى الأمريكـى والفرنسى.

وقد سبق وقلناوزدنا أن لمصر ثلاث ثقافات لا ينبغـى أن تعلو واحدة منها فوق الأخريات، وتلك الثقافات هى الثقافـة المصرية القديمة الأصيلة، ثم الثقافة القبطيـة وهـى ثقافـة مصرية مكتوبة بالحروف اليونانيـة، ثـم الثقافـة العربيـة الإسلامية الوافدة. وإن تسييد الثقافة العربية وحـدها فـوق الثقافات الوطنية الأخرى يطعن فى صدق مبـدأ المواطنـة المصرية. لأن من يبغى سيادة الثقافة العربية وحدها لا يرى فى ثقافات مصر السابقة ثقافة له، مما يعنـى أنـه لا يفكـر كمصرى، بل كمستوطن عربى غاز، لهذا نكرر أن منطـق الطائفة يستتبعه بالضرورة إلغاء مفهوم الوطن بل وتمزيـق هذا الوطن.

والملاحظ أن أدعياء الثقافة العربية وحدها يتجاهلون دور المسيحيين المصريين والعرب فى صياغة المنظومة الثقافيـة المصرية والعربية مما يؤدى إلى قلقهـم علـى مصـيرهم وشعورهم بالغربة فى وطنهم لحصرهم فى خانـة الطائفـة وليس فى مفهوم الوطن الأرحب. والكلام عن تسامح المسلم مع المسيحى لا يغير واقعاً لأنه فـى مفهـوم المواطنـة لا يفترض وجود طائفة تسود وتتسـامح أو لا تتسـامح، بـل يفترض مبدأ المساواة لا مبدأ التسامح مع أهل الذمة. وقد أقر الدستور المصرى مبدأ المساواة بصرف النظر عن العقيـدة، كما وقعت مصر على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى

يقول فى مادته الثانية: «لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان دون تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أوالدين أو الرأى السياسى أو أى شيء آخر»، ودرس السودان ماثـل أمامنـا منـذ فجرتـه الطائفية.

وتكون الكارثة أعمق عندما تعتقد الطائفة السـائدة أنهـا تمثل الخير كله بحسبانها حزب الله. لأن هذا يعنـى أن مـن يخالفها مخالف للحق لـذلك لابـد مـن تـدمير المخـالف وإزالته.وهنا تفرخ الممارسات الإرهابية وتبيض، ومن هنـا نلح على أن علاج ظاهرة الإرهاب ليس فقـط بالمواجهـات الأمنية، إنما بتفعيل المنهج المدنى علـى كـل المسـتويات. والمعلوم أن من يرفض المنهج المـدنى صـاحب مصـلحة طائفية ومن يطلبه صاحب مبدأ وطنـى، فأغلبيـة باكسـتان المسلمة ترفض تطبيق المنهج المدنى بينما تلح فـى طلبـه الأقلية المسلمة فى الهند. فالمنطق المدنى ينحـاز للإنسـان وليس إلى طائفته أو طبقته ويقوم على الحرية ولا يجبر أحداً على اعتناق مبادئه بالرصاص والرشاشـات. أمـا المـنهج الطائفى فهو الذى دفع بالدكتور أحمد شـلبى فـى سلسـلة المواجهة ذاتها التى أسلفنا قول الأستاذ نجيب محفوظ فيهـا، ليقول:«أعداؤنا فى الخارج اهتزوا لسقوط واحد أو أكثر من الأقباط بيد المسلمين ولكنهم لا يعيرون أى التفـات لسـقوط الآلاف من المسلمين بيد المسيحيين فى البوسنة والهرسك».

وبغض النظر عن قوله بسقوط واحد أو أكثر لما فيه من تزييف فلنا أن نلاحظ إلى أى حد وإلى هذه الدرجة يغطـى

منهج الطائفة مساحة الرؤية ويصبح الأقرب للمسلم المصرى المسلم البوسنى وليس القبطى المصرى الذى تصبح دماءه حلالاً وعليه أن يدفع ثمن ما يحدث فى البوسنة والهرسك.

ألا ترون أننا بحاجة إلى تغيير عظيم وجهد أعظم حتى نستحق كرم السيدة سوزان مبارك بإهدائنا جائزتها، جائزة التسامح؟!

الواحدية والتعددية(*)

هناك نغمة سائدة يرددها الإسلام السياسى عبر مجلاته وصحفه المتعددة، وعبر مقاره التى تتعدد بتعدد المساجد والزوايا التى تعد بمئات الألوف، وهى النغمة التى ترسل نواحها وعويلها وهوانها تندب توارى الفكر الإسلامى فى أجهزة التثقيف والإعلام الرسمى للدولة، وأن تلك الأجهزة قد فتحت أبوابها للفكر العلمانى على مصراعيه. وتصحب تلك الشكوى أمثلة على ذلك بالمسرحيات الهزلية والأفلام الخلاعية والإعلانات المبتذلة والرقص وما إلى ذلك، كما لو كانت هذه هى العلمانية.

والمدهش أن تجد تلك النغمة المزورة آذاناً صاغية دون الوقوف وهلة للتأكد (فيما ينبهنا الدكتور فؤاد زكريا) من صحة ذلك الاحتجاج، ودون مقارنة بين عدد الصحف والمجلات والكتب الحزبية والرسمية التى تكرس وجهة نظر الفكر الإسلامى والسياسى منه خاصة، ولا تجد على الوجه الآخر مقارنة لنقول (مقارنة بين كذا وكذا) لأنه لا توجد مجلة ولا صحيفة واحدة مخصصة لمفكرى التيار العلمانى على غرار اللواء والدعوة والشعب والنور وعقيدتى... الخ. بل إن أى مفكر علمانى يحاول أن يجد أى منفذ يصل به إلى

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/٩/٢١ العدد ٣٦٦٧

وعى الناس، ويتحايل فيما يكتب ويلتف ويحاذر لكى يقـول كلمته، هذا إذا وجد المنفذ. ثم هل سمعنا برنامجاً واحداً على أى من قنواتنا التلفزيونية أو الإذاعية يخلو من لغة ومفردات واصطلاحات الفكر الإسلامى وحده. حتى فى البرامج العلمية المفترض أنهاعلمانية يتم السطو عليها لصالح الفكر الـدينى الأحادى السائد، لتفريغها من محتواها ومضـمونها العلمـى لصالح ما هو أبعد ما يكون عن العلم، ثم هل سمعنا برنامجاً واحداً ولو مرة فى الشهر، بل ولو مرة فى السنة يخصـص للفكر العلمانى؟ أو هل سمحت تلك الأجهزة لمفكر علمـانى ليدافع عن نفسه إزاء الحملات الضارية ومحاكمات التفريـق والتكفير والتنفير؟

إن دولة المؤسسات المدنية التى نزعمها للعالم لا تبـرز فيها سوى تجليات الفكر الإسلامى وحده على كل المستويات، وهو ما يعنى أن أصحاب هذه النغمة يريدون المزيـد، ولـم يبق من مزيد سوى السلطة نفسها. وهكذا سجلت مؤسسـات الدولة (فيما لاحظ الدكتور غالى شـكرى) تراجعـات إثـر تراجعات أمام التيار المتشدد حتى تحول الإعلام إلى أدلجـة لوعى المواطن وتهيئته لقبول ما يطرحه الإسلام السياسـى، والظهور بمظهر التناقض أمام رجل الشارع،ما بين شعارات اقتصاد السوق والاستثمار والسياحة وبين التدين الـذى هـو على النقيض من هذه الشعارات. وكان لجوئها إلـى إعـادة إنتاج الأيديولوجيا الدينية بانتقاءات تخدم شعاراتهامدعاة إلـى ازدواجية فى الإعلام والتعليم والقوانين (خاصـة الأحـوال الشخصية)، وهو ما يفتح فى وعى المواطنين الثغـرة علـى كامل اتساعها للإسلام السياسى ليقوم بدوره بانتقاءات أخرى

هى على النقيض، فترد الدولة بمزيد من البرامج والتشريعات والمقررات، بينما حقيقة ما يحدث هو أن السلطة تسلم وتقـر بما تفعله فى إعلامها وتعليمها بصحة ما يطرحـه الإسـلام السياسى، ويصبح وعى المواطن مع أحقية الجماعـات فـى استلام السلطة لتنفيذ ما أكدت السـلطة صـدقه، ولأن تلـك الجماعات تصبح هى الأولى بتنفيذه.

وترتب على تراكم أخطاء أجهزة الإعلام والتعليم سيادة فكر واحد أحادى مغلق على مستوى المجتمع والرأى العـام والقيم السائدة دون الالتفات لحظة إلى أسباب الكوارث وإلى خطأ المنهج، الذى لابد أن ينتهى بالضرورة بحسابات التنبؤ العلمىإلى سقوط مروع سيبدأ على المستوى الاقتصادى حتماً إذا لم يتم الإسراع بالربط بين سياسـةالانفتاح الاقتصـادى ونظام السوق وبين ليبرالية كاملة تطبق مشروعها المدنى فى الواقع، بما يسمح بتعددية ثقافية وسياسية ودينيـة ومذهبيـة، وأن يعترف هذا المشروع بـاختلاف الأصـول والمصـالح والأعراق والعقائد والعبادات والرؤى والفلسـفات، بحيـث تصبح المرجعية التأسيسية هى مصالح المنتجـين ومصـالح المجتمع المدنى لفتح النوافذ على العقل بتأسيس حريات الفرد الكاملة، ليجد العقل مناخه الحر، وهو المناخ الطبيعى لفـرز الكشوف والاختراعات والإبداع التقنى والفنى والأدبى. وهو ما سيؤدى بالضرورة إلى استقلالية الاقتصـاد المصـرى واستقلالية الإرادة واستقلالية القرار. حيث سيتميز الاقتصاد الوطنى والسياسة الوطنية بخصوصية المنجزات والكشـوف والمعلومات فيقف إزاء الآخر قادراً على المنافسة ونداً وليس عالة على ماكينة الكشف التكنولوجى المستوردة.

* * *

ولأننا قطعنا ذاكرتنا التاريخية وتوقفنا عند زمن السلف الصالح وحده وأسقطنا ما قبله لأنه حضارات كافرة، وأسقطنا ما بعده لأنه تلى خير العصور وانحدر إلى البدع والمحدثات،ففقدنا تلك الذاكرة ولم نعد نعى دروس التاريخ حتى تاريخنا الإسلامى تاريخ الدولة العربية الإمبراطورية لنعرف على الأقل السر الحقيقى الموضوعى وليس الأسطورى الوهمى وراء عزتها واقتدارها وعافيتها إبان ذاك. ولم نحاول أن نراها وهى تفتح نوافذها لكل ألوان التعددية فى الثقافات فنهلت من معارف البلاد المفتوحة وحضاراتها القديمة، من فارس إلى مصر ومن اليونان إلى الرومان. عندما قامت حركة ترجمة نشطة كبرى قام عليها مسلمون ويهود ومسيحيون. ومع الانفتاح الثقافى تحولت الحركة إلى الكشف والإبداع فظهر الخوارزمى وابن النفيس وابن الهيثم وابن سينا وابن رشد. وعلى مستوى الفكر الدينى الإسلامى كانت هناك تعددية هائلة ومدارس متناقضة متعاصرة متتالية، من حشوية إلى مرجئة إلى معطلة إلى سنّة إلى شيعة إلى معتزلة إلى أشعرية.

وعلى مستوى الفقه الإسلامى نفسه تعددت الآراء واختلفت داخل الزمن الواحد فتعاصر الفقهاء المختلفون حول قضايا الدين، فعاش أبو حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠ هـ) زمن مالك (٩٣-١٧٩ هـ)،وعاصر الشافعى (١٥٠-٢٠٤ هـ) أحمد بن حنبل (١٧٤-٢٤١ هـ). وأسس كل منهم مذهباً غير الآخر، بل وظهرت تيارات إلحادية كانت ضريبة

الحرية والتقدم والقوة، فكان هناك المعرى وابـن الراونـدى والرازى. واختلف المسلمون حول التفاسـير، بالمـأثور أم بالعقل أم بالرؤى الصوفية،واختلفوا حول مدى اعتبار أسباب النزول، وعلى ظاهر النصوص وتأويلها. وفى علوم الحديث اختلفوا حول صحيحها وعدد هذا الصحيح، واختلفوا حـول حجية السنة وحجية الإجماع، وحول معنى الصـحابة وهـل كانوا جميع من عاشوا زمن الدعوة أم المقربين فقط، ولم يتم تكفير أحدهم ولم يرفع أحد عليهم سلاحاً ولا طلب محاكمتهم، بل كان الواحد من كبار الفقهاء يقول: ربما كان رأيـى هـو الخطأ ورأى غيرى هو الصواب.

لقد فتحت الأمة نوافذها فتجدد هواءها وارتفـع شـأنها وعندما بدأ عصر الانتكـاس والتقوقـع وسـيادة منظومـة الشخصية الثقافية الواحدة المتحالفة مع السلطان بدأ التكفيـر والتبديع وصودر المعتزلة واختفـت كتـب بـن الراونـدى التسعون وحرقت مصنفات ابن رشد ونفى إلى بلاد الفرنجة، لندخل نحن العصور المظلمة نصنف كل شئون الحياة بـين الكفر والإيمان وبين الحلال والحرام، بينما بـدأت أوروبـا تنويرها بعصر مدرسى عرف اصطلاحاً بعصـر الرشـدية اللاتينية نسبة لابن رشد لتنطلق بعد أن أخذت بتصنيف آخر ما بين مدى النفع والضرر على الناس والأمم، وبين الصواب والخطأ العقلى والعلمى والعملى بما تقتضيه مصالح المجتمع والمنتجين.

وتوقف زخم أمة العرب مع سـيادة السـلفية المصـمتة الواحدية التى لا تقبل الآخر ولا ترضى بغيـر شخصـيتها الثابتة وترفض أى تغيير أو تبديل.وكـان هـذا هـو درس

التاريخ بل درس تاريخنا نحن وليس تاريخ آخر. فالحضارة تزدهر وتتفتح عندما تنفتح على الآخر وتسـمح بالتعدديـة، وتسقط عندما تسقط فى الواحدية والمطلقات اليقينية والـذات النرجسية المتضخمة. وهو ذات الدرس الذى حدث بـالأمس القريب عندما تحول الاتحاد السوفيتى من دولة عظمى إلـى دولة مغلقة على نصوص ماركسية مقدسة تكفـر المخـالف، فكان السقوط مروعاً.

وهنا ينبه الدكتور غالى شكرى إلى أن أوروبا قد وعـت الدرس وهى تصحو من عصور ظلامها الواحدى فانفتحـت على التعددية، وقررت أن تكون وارثـة لكـل الحضـارات القديمة والثقافات على تعددها، من تراث اليونان إلى الرومان إلى الفراعنة إلى الرافدين إلى الهند إلى الصين إلى فـارس، ومن أوزيريس إلى جلجامش إلى أوديب، دون عقد نفسية أو دينية، ولأنهم كانوا القادرين على تلـك الوراثـة وأمكـنهم اكتساب قدرة التغير والتكيف، أصبحوا بالفعل هـم الورثـة الشرعيون لمأثور الإنسانية، ولم يكونوا مثل أولئـك الـذين يدعون البنوة لتراث بعينه من باب سرقة التركـة. وانطلـق الورثة الشرعيون دون تعصب لتراث الغرب وحـده، ودون أن يحتسبوا أخذهم عـن تراث غيرهم غزواً ثقافياً.بينما نقبع نحن نؤكد دوماً أن الغرب قد أخذ عنا،لكنا لا نقبل أبداً الأخذ عنه وإلا كان غزواً ثقافياً، لا لسبب إلا لأننا الأمـة الكاملـة المختارة التى تملك كل المعارف اليقينية فى كل شأن ممكـن منذ الخليقة وحتى نهاية الأزمان.

اليولياويون والإسلاميون(*)

إن علاقة حركة ضباط الجيش اليولياويون بتيار الإسلام السياسى علاقة تاريخية مركبة فيهـا الكثيـر مـن وشـائج الاتصال لقيامهماعلى أيديولوجيا تتفق فى تفاصيلها الدقيقـة، وتختلف وتتناقض فقط عند منطقة السلطة والسـيادة. وهـو الأمر الذى يحتاج إلى بعض الفحص لفـك الاشـتباك بـين الخيوط المعقدة فى تاريخ تلك العلاقة، وإلقاء الضوء علـى القواسم المشتركة وعلى مناطق المغايرة والانفصال.

والمعلوم أن حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢، والتى لبست عباءة التيار العروبى القـومى الشـامى لتوسـيع مسـاحة الزعامة، قد بدأت تواصلها مع تيار الإسلام السياسـى قبـل يوليو ٥٢ بحوالى عشرين عاماً، عندما كانت جماعة الضباط الأحرار تحت قيادة عزيز المصرى، الذى عين عبد المـنعم عبد الرؤوف ضابطاً للاتصـال بـين الإخـوان المسـلمين والضباط الأحرار باعتباره عضواً فى كلا الجماعتين.

ومعلوم أن أنور السادات قد التقى بحسن البنا أكثـر مـن مرة سنة ٤٢ للتنسيق بين الحركتين تأييداً للفاشية الألمانية.

وبعد هزيمة ١٩٤٨ اتُهم جمال عبد الناصـر بتـدريب الإخوان على حمل السلاح والاشتراك فى جرائم اغتيال ولم

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/٩/٢٨ العدد ٣٦٦٨.

تثبت عليه التهمة، فى الوقت الذى كان فيه صالح أبو رقيـق الزعيم الإخوانى ينقل بمساعدة عبد الناصرالأسلحة المهربـة من المعسكرات إلىعزبة القيادى الإخوانى حسن العشـماوى بالشرقية. ومن المعلوم أيضاً أن الفريق الوحيد فـى مصـر الذى تمت إحاطته بموعد قيام الحركة بالاستيلاء على السلطة كان الفريق الإخوانى، وتم ذلك فى مقابلة بين كمـال الـدين حسين وجمال عبد الناصر وبين صالح أبو رقيق.

وأصدر مجلس قيادة الثورة مع استيلاء اليولياويين على السلطة فى مصر قراراته بحل جميع الأحزاب، لكنه استثنى من ذلك جماعة الإخوان المسلمين، بل وأشـركت حكومـة يوليو بزعامة محمد نجيب، ثلاثة من الإخوان فى وزارتها.

وبدأت بوادر الطلاق بين الفريقين مع اشتراط حكومـة الثورة عدم اشتغال الإخوان بالسياسـة، فكـان رد مكتـب الإرشاد صلفاً يطلب من الحكومة عرض أى قرار لها علـى مكتب الإرشاد للموافقة عليه قبل تنفيذه. وهو الأمر الذى أدى إلى مجموعة من التداعيات تحول فيها الحلفاء إلـى أعـداء الداء، فصدرت الأوامر بحل الجماعة والقبض على قياداتهـا فى ٥٤. فقرر الإخوان التخلص من عبد الناصر إبان خطابه فى المنشية بالإسكندرية فى ذات العام، وهـو مـا أعطـى الفرصة لليولياويين للتخلص من الإخـوان بعنـف انتهـى باعتقال الآلاف وإعدام ستة من القيادات.

وبانتهاء مدة العقوبة خرج الإخوان عام ٦٤ من السجون لكنهم عادوا إليها خلال عام واحد بعـد أن أعـادوا تنظـيم أنفسهم تحت مظلة أفكار سيد قطب بهدف تـدمير المنشـآت واغتيال القادة اليولياويين والاستيلاء على السـلطة، لكنهـا كانت المرة الأخيرة لهم فى الزمن الناصرى إذ انتهت بإعدام

رؤسائهم وإلقاء بقيتهم فى المعتقلات مـع تجـريم نشـاطهم وطنيا ودينيا وتحريمه بالكلية، إلى أن أعادهم أنور السـادات فى صراعه مـع التراث الناصرى ورجاله،لكن لينتهى الأمر كما هو معلوم باغتيال السادات على أيدى الإسلام السياسـى فى تراجيديا علنية تاريخية تشهد بمدى التركيب والتعقيد فى العلاقة بين التيارين، لكـن ذكـرى التعـذيب والمعـتقلات والإعدامات ظلت الهاجس الثأرى الدائم لدى تيـار الإسـلام السياسى إزاء الناصرية، والدعوة القومية فى عمومها.

ووشائج الاتصال بين التيارين تقوم على بنية تأسيسـية مشتركة فى عصب الأيديولوجيا ذاتـه، فالتعصـب سـواء للعنصر القومى العروبى عند اليولياويين أو للطائفة الدينيـة عند الإسلاميين سمة واضحة أفصحت فى حكومة الجيش عن عبادة البطل الفرد المنقذ. وهو الأمر الذى لم يحـاول تيـار الإسلام السياسى إخفاءه عندما وجه رسـالة مفتوحـة فـى صحيفة الأخبار بتوقيع سيد قطب لرئيس الحكومـة حينـذاك اللواء محمد نجيب يطالبه بإقامة ديكتاتورية عادلة ونظيفـة. وأفصحت السنوات الأولى لسلطة يوليو عن منهج ديكتاتورى واضح فأقصت الدستور وحلت الأحزاب وألغـت البرلمـان ووضعت أقصى الإجراءات الاستثنائية، فكان الوجه الفاشـى أول العلامات المشتركة بين الفصيلين.

وطبقت يوليو مبادئ الفاشيست بإخلاص، فالفاشية تختلق الأعداء وتخترع المظالم التاريخية لتضـمن ولاء الجمـاهير وانضوائها تحت قيادتها إزاء الأخطار ولمواجهـة الأعـداء، والفاشية تحول مناهج الإعلام والتعليم إلى تغن دائم بالقدرات الخارقة للبطل الملهم. والفاشية لا تترك أى مسـاحة للـرأى فيصبح الرأى واحداً والحزب أوحداً، أما المعتقلات والمشانق

فهى السلاح الأمثل بيدها لحسم أى خلاف، ولو حدث عكس ما حدث واستولى الإسلاميون على السلطة لفتكوا بحلفـائهم بشكل أكثر صرامة وبشاعة.

كذلك يتفق الفصيلان فى مشترك معلـن يعلـى مفهـوم الجماعة والأمة علـى حسـاب الفـرد وحرياتـه وحقوقـه الإنسانية، فالهدف الأعظم هو الأمة والجماعة أمام الأعـداء، وتتماهى الأمة في شخص الزعيم فيصـبحا رمـزاً واحـداً. وبسبيل ذلك لا بأس من إهدار كرامة المواطن والخوض فى بحار الدم لأن الفرد لا يوجد ولا يريد ولا يفكر ولا يرى إلا من خلال الجماعة وبموافقتها. وعلى الجميع اعتناق عقيـدة الأمة المتميزة بلسانها ودينها ورسالتها الخالدة،بغض النظـر عن وجود مواطنين أصلاء فى الوطن لا يدينون بالإسلام ولا يرون قدسية فى لغته.

ولأن الأمة المقدسة هى الصح الأوحد المكتفى بذاته فى المطلق، فلا وجود للفرد أو للرأى أو العقيدة المخالفة حتى لو كانت دينية، وحتى لو كان ذلك ضد مفهوم المواطنة السياسى الذى يضم المواطنين جميعاً بغـض النظـر عـن ألـوانهم وعقائدهم وعروقهم.

وعقيدة الأمة الجماعة مسكونة دوماً فى المنطقة العربية بهاجس الفتنة والتفرق،لأن الدولة الـعربية الأولـى قامـت على احتلال دول المحيط وتعريبها ثقافة ولغة وديناً ما أمكن، وهى على علم يقينى أن لهـذه الـبلاد حضـارات ولتلـك الحضارات أصحاب وعقائد مخالفة، لذلك كان منطق الأمـة فوق العقائد وفوق الأفراد وفوق المذاهب وضـد أى تعددية قد تفتح الباب إلى نزعات استقلالية تم تجريمها قومياً ونعتت

بالشعوبية الملعونة من العروبيين ومن المتأسلمين على حـد سواء.

إذن هنـاك أرضـية أيديولوجيـة واحـدة تجمـع الطرفين،لكن هناك أيضاً تناقضات حادة لا يمكـن إغفالهـا، ويعلمها يقيناً التيار القومى الناصرى ويتغافل عنها. تناقضات يغذيها اختلاف جذرى واستراتيجى عميق حيـث يتنـاقض المشروع الإسلامى التاريخى مع الفكرة العربية القومية بـل ويناهضها، ويغذى العداء لها ذكريات الإعدامات والمعتقلات والروح الثأرية المتربصة للقصاص الذى فيه حيـاة لأولـى الألباب. ناهيك عن التناقض التأسيسى بين المفهوم العروبـى الذى يقصر القومية على العنصر العربـى وبـين المفهـوم الإسلامى الطائفى الجامع لكل المسلمين بغض النظـر عـن غير المسلمين من عرب مواطنين.

وبات واضحاً أن معادلة النهضة التى أقامتها دولة محمد على قد انتهت بكارثة الهزيمة الكبرى للناصرية فى ٦٧، قبل أن يتمكن النظام العسكرى من تحقيق الفكرة القومية وإقامـة الإمبراطورية على غرار دولة الخلافة الغابرة، فاكتفى بإقامة أقواس نصر وهمية فوق ردم من جثث الشهداء والمعتقلـين وكرامة الإنسان والاقتصاد المنهار. ليتكـرر درس التـاريخ الدائم: أن غياب الحريات يؤدى إلى غياب مفهوم الوطن وأن التميز العرقى والطائفى تصـحبه بالضـرورة قـوة القهـر السياسى والمذهبى فلا يفرز فـى النهايـة سـوى النكبـات والهزائم. ومع الهزيمة ثم غياب الزعيم الملهم سقطت مراكز القوى السيادية التى كانت تعشش فى أرجاء البلاد لكن لتفسح المكان للفصيل الإسلامى ليستعيد نشاطه ويطرح مشـروعه البديل تحت ذات اللاءات الفاشية.

وبالهزيمة وغياب الزعيم وسقوط المشروع شعر المثقفـون الناصريون بعد انحسار نفوذهم باليتم والضياع فى العـراء، فقاموا يبحثون عن ملجأ وملاذ يضعهم مرة أخرى فى مساحة السلطة عند المشروع البديل المنتظر. كان الملجـأ وأقـرب المشاريع لذات المنهج وذات الفكر وذات الأيـديولوجيا هـو مشروع الإسلام السياسى، فبدأ الغزل فالحوار فالتحالفـات، لكنها أفصحت عن وجه ردىء أبان عما آل إليه حال المثقفين اليولياويين، فى صحف حزبيـة قامـت تتكسـب بنفحـات بترودولارية لمجرد الاستمرار فى الوجود، مقابل صـفحات دينية موسعة تردد أبشع المقولات الفاشـية وتضـرب كـل مساحات الحرية، معتمدة على حجة معلنة وهـى أن عـداء الإسلام السياسى للغرب كاف وحده كمعيار لصدق التوجهات ومبرر للتحالفات، مع إغماض العين تماماً عـن دور هـذا الغرب فى دعم وإقامة عمد تيار الإسلام السياسى، وأن أشـد أنصار هذا الغرب فى المنطقة هو المركز القدسى للإسـلام السياسى ومصدر التمويل الدائم للحركات الإرهابية الفاشـية فى الوقت ذاته.

وفى مواجهة الإرهاب أصدرت الهيئة العامـة للكتـاب سلسلة (المواجهة) المفترض أنها كرست لتأسيس وعى وطنى ديمقراطى فى مواجهة الإرهاب الفاشى، لكن للمفارقة أن تجد هذه السلسلة تؤسس للحاف بين الفصائل الباقية من تيار يوليو وبين الإسلام السياسى، فنقرأ فلسفة هذا التحالف فى كتـاب جذور الإرهاب حيث يقول الدكتورمحمد الفيومى صـفحة ٩ موضحاً قاطعاً: «إنه لا مستقبل للأمة العربية إلا بهما، فـلا

عروبة من غير إسلام ولا إسلام من غير عروبة، وهما معاً من ركائز الأمة التاريخيـة والحضـارية، ومنهمـا تسـتمد أصولها الإيمانية والعقائدية، والتشكيك فيهمـا يـؤدى إلـى زعزعة الثقة فى نفوس الشباب ويصبح لديه كل شيء مباح، مادام الإسلام قد أصبح قضية ثقافية يجوز حولهـا النقـاش والجدل».

الرجل يضع شروط التحالف واضحة، فهـو لا يرضـى مبدئياً بأى خلاف أو جدل خاصة حول الإسلام فذلك فى رأيه سبب الإرهاب. هذا رغم اختلاف المسلمين فرقـاً ومـذاهب وفقهاً زمن الإمبراطورية، ورغم الحس الشعبى الذى رأى أن فى (اختلافهم رحمة)، حيث يسمح الاختلاف بالتعدديـة فـى الرأى وعدم تسلط رأى أوحد لا يرحم. وعليـه فـلا يـرى الدكتور الفيومى مستقبلاً للأمة العربية بدون إسلام متغـافلاً تماماً عن ملايين المسيحيين العرب، ولم يقل لنا هل نؤسلمهم جميعاً وهل هذا ممكن فى عالم اليوم؟ أم نفعل معهم ما فعله النظام الناصرى مع اليهود المصريين عندما طـردهم مـن وطنهم ليعطيهم ذخيرة لدولة إسرائيل؟

هنا ننصت إلى صوت آخر، صوت مسيحى عربى هـو صوت أنطوان عويس يرد على هذا التحالف فـى مـؤتمر العلمنة والهوية العربية بلبنان فيقول: «إذا كانـت العروبـة مرتبطة بالإسلام فإنى لا أقبلها، وأنا أتكلم كمسيحى مارونى من كسروان، وأظن أن ٩٩% من المسيحيين لا يقبلون بها، أما إذا قالوا إن هذه العروبة هى فى الوقت نفسه ديمقراطيـة علمانية، فالمؤكد أن ٩٩% من المسيحيين يقبلون بها».

هل يجوز هنا تكفير الرجل وطنياً وتخوينه قومياً علـى العادة الفاشية؟ وهل يختلف أحد سوى الفاشيسـت علـى أن

الوحدة الوطنية هى القاسم المشترك الأعظم فى الهوية التـى توحد المواطن بالوطن؟ وهل الدعوة لتحالف القومى والإسلام تقيم حلفاً وطنياً أو قومياً فى مواجهة الآخر أم أنهـا تفتـت الجبهة الوطنية وتنشر الفرقة فى الصف الوطنى؟ وهل نـتج هبوطنا حيث نقبع الآن إلا عن تفعيل لاءات الصراع الدينى العنصرى مع إسرائيل؟فأعطينا إسرائيل مشروعية وجودهـا العنصرى الطائفى فى المقابل؟ وأسسنا العـداء العنصـرى الطائفى فى وجـدان الجمـاهير حتـى دفـع المسـيحيون المصريون ثمنه على يد الإرهاب لأنهم ليسوا مسلمين، فهـم ليسوا مواطنين، بعد أن غاب مفهوم الوطن وحلـت محلـه الطائفة والأمة الجماعة.

هذه مجمل الاتفاقات والفروق والتداخلات، لكن الفـارق الجوهرى بين المفهوم القومى العروبى وبين الإسلامى، هـو أن الإسلام دين فهو قيمة روحية وليس وطناً، أما العروبـة فهى قيمة حضارية تاريخية مادية، بدليل أن حضارة المسـلم العربى ليست هى إطلاقاً حضارة المسلم الأفغانى والصـينى وأن حضارة المسيحى العربـى غيـر حضـارة المسـيحى الأمريكى أو الفرنسى.

الفروق والتناقضات شديدة الوضـوح لكـن الأرضـية الجامعة الأوضح التى تجمع التيارين دوماً بشكل سـافر أن كليهما فاشيست.

الأبواق الفاشية(*)

لأسباب وجيهة نعيد التذكير بالعلامة الكبرى بين السمات الرئيسية للمنهج الفاشى فى التفكير ألا وهى زعـم امـتلاك الحقيقة الكاملة والحلول النهائية لكل المشاكل مع تشـخيص الفكرة فى شخص صاحبها الذى يصبح الزعيم الملهم البطـل المنقذ، وهى السمات التى ينبنى عليها رفض أى مخالفـة أو اعتراض أو نقد. حيث تتوحـد الفكـرة بشـخص الـزعيم وبالوطن معاً، وتصـبح مجـرد مناقشـة الفكـرة أو نقـد الأيديولوجيا أو مراجعة النفس للكشف عن الأسباب التى آلت إليها أحوال الأمة، أو الاعتراض علـى بعـض ممارسـات الزعيم أو ذيوله، تصبح خيانة للوطن بعد توحيد الأيديولوجيا والزعيم بالوطن «الذى هو أكبر من أى زعيم». ويتحـول النقد الذاتى إلى بيع لدماء الشهداء وسقوط فى حبائل الإغواء الصهيونى الصليبى الاستشراقى وهلم جرا...

وليس أدل على صدق هذا الطرح ممـا حـدث عنـدما اقتربنا من مناقشة المـنهج اليوليـاوى ومنـاطق اتصـاله وانفصاله مع تيار الإسلام السياسى بحقائق لم نؤلفهـا ولـم نخترعها أو نفتريها، فقد ثارت ثائرة ذيـول الفاشـية فـى صحيفة ترفع لواء الناصرية، وأبداً لم تقف الصـحيفة وقفـة

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/١٠/٢٦ العدد ٣٦٧٢

رصينة محترمة لتناقش أو لتقول: أخطـأت يـا صـاح أو افتريت كذباً أو استنتجت خطأ، أبداً لم تفند الحقيقة ولا الرأى بالرأى ولا الدليل بالدليل أو بالتكذيب الموثق إنمـا فتحـت معجم أدبيات الفكر الناصرى، وفعلت ما أكـدناه وقلنـاه أن كليهما فاشيست، فعمدت إلى بذاءات تقليديـة معلومـة فـى قاموسهم الخطابى تعبر عن مدى العجز الذى انتهوا إليه، مع جملة من الاتهامات الرخيصة بالعمالة والتآمر على الـوطن، كما لو كانوا هم أو الزعيم هم الوطن. بالضبط ودون فـارق يذكر كما تفعل فرق الإسلام السياسى التى تزعم لنفسها الحق مطلقاً وغيرها باطل الأباطيل،ولأنهم كل الحق ولأنهم الوطن فقد رأت الصحيفة أنه لا يوجد مفكر فى مصر المحروسـة جميعهاً فتطاولت على أعمدة الفكـر الـديمقراطى الـوطنى ماداموا لم يخرجوا من عباءة الناصرية. فإما أن تكون نفـراً تابعاً أو تكون خائناً، رغم أننا لا نعلم لهم مفكـرين حسـب المصطلح الدقيق للكلمة. هذا إضافة إلى كون المفكر الوطنى الحقيقى هو المفكر المستقل تماماً عن أى سـلطة وعـن أى حزب وعن أى جماعة، ولا يكتب إلا بـوحى يمليـه عليـه ضميره الوطنى ودون أى غرض أيديولوجى. وإزاء المفكر المستقل لا يجدون فى جعبتهم سوى العادة الرخيصة فيكيلون الاتهامات دون أن يقـدموا صحيفة اتهامات واضحة بالأدلة الثبوتية، ويطلبون من الخصم أن يثبت غير ذلك (؟!) نفـس المنهج المباحثى فى دولة المخابرات الغابرة: أنت متهم إلـى أن يمكنك تقديم أدلة براءتك (؟!!). فإذا كان هذا حالهم حتى بعد زوال عروشهم الفاشية وفى ظل مساحة سماح ديمقراطي لم يصنعوه ولا يفهموه، يمارسون من خلالـه ذات المـنهج ويكررون ذات الأساليب فماذا ننتظر منهم إذا نجح حلفهم مع

الإسلام السياسى فى الوصول إلى السـلطة؟ سـوى تكمـيم
الأفواه وإقامة المشانق، واستحضار عدو البلاد هـذه المـرة
ليس إلى مدن القناة لكن ربما إلى عمق الصعيد.

إن ما كتبته الصحيفة الحزبية اليتيمة قد أكد دون حاجـة
إلى شرح أو إيضاح ما سبق وقررناه: إن الفاشيست قضـية
واحدة وأرض واحدة وفكر واحد ومنهج واحد يقـوم علـى
تكفير المخالف دينياً ووطنياً لأنه تجرأ على المراجعة والنقد.
الأقنعة متعددة والقسمات واحدة.

فقط رأينا ضمن سلسـلة نقـد المـنهج التـى نكتبهـا
لروزاليوسف والتى تملكها حكومة مصر وليس الصهاينة كما
قالت الصحيفة المذكورة،مراجعة سريعة لكل المناهج التـى
آلت بنا إلى حيث نقبع الآن، فكان الرد الوحيد الممكن لـديهم
هو التكفير والتخوين الوطنى والسباب والقـذف. وكـل مـا
أردناه ليس بغرض أوحد هو النيل من التجربـة الناصـرية
فهى تجربة لها إيجابياتها، إنما كان عرضاً فى طريـق نقـد
المنهج، ولبيان أن المنهج الفاشى الذى يعمد للتكفير والتخوين
لا يقتصر على المتأسلمين وحدهم لكنه سمة عامة لـدى أى
منهج عنصـرى أو طـائفى. حيـث تعلـو فيـه العقيـدة
والأيديولوجيا والزعيم فوق مصالح البلاد والعباد. هذا رغـم
أن مصر أمر وهؤلاء جميعاً أمر آخر،فالإسلام قيمة روحية
وليس مصر. كذلك التجربة الناصرية كانت مجرد تجربة فى
تاريخ مصر العريض بما لهذه التجربة وما عليها لكنها أبـداً
ليست الوطن بحال.

وإذا كان تقييم التجارب يتم بمدى ما قدمت التجربة للوطن من نجاحات أو نكبات، فهناك معياران واضحان لتقيـيم أى نظام: الأول هو معيار الداخل ومدى ما حققته التجربة داخل الوطن من إطلاق للحريـات والمسـاواة بـين المـواطنين علىاختلاف مذاهبهم وعقائدهم ورؤاهم وتحقيق سيادة القانون على الجميع بلا استثناء والارتفاع بمستوى معيشة المـواطن والحفاظ على إنسانيته وكرامته بحيث يعدل المواطن الواحـد الدولة جميعاً فى ميزان الكرامة. والمعيار الثانى هو معيـار الخارج ومدى ما حققت التجربة من مكاسب ومـا أضـافت للوطن،ناهيك عن مبدأ المبادئ جميعاً ودونه كل أمـر آخـر وهو الحفاظ على الحدود الوطنية للوطن وهو أدنى المطاليب إزاء أى نظام حاكم.

والشاهد الذى لا نخترعه للصدق مع النفس والوقوف مع الأخطاء لتجاوزها نهائياً هو ما قرره واقع التجربـة، فعلـى مستوى الداخل لا مجال للحديث عـن الحريـات وكرامـة المواطن بعد إلغاء الدستور وحل الأحزاب ووضـع أقصـى الإجراءات الاستثنائية وتعيين صغار الضباط فى كافة مواقع السيطرة السيادية، مع تطهير البلاد من دعـاة الديمقراطيـة بحبس رؤساء تحريرالصحف وإغلاق حوالى خمسين مجلـة وصحيفة. هذا على مستوى الإعلام أما على مستوى التعلـيم فقد تم فصل ٤٥٠ أستاذاً جامعياً دفعة واحدة، وتعيين الصاغ كمال الدين حسين الذى يحمل درجة علمية أدنى من مستوى الثانوية العامة وزيراً للتعليم فى المكان الذى كان يشغله عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين قبل ثلاث سنوات، وغنـى

عن التذكير أن الصاغ كمال الدين حسين كان عضواً بجماعة الإخوان المسلمين.

ومع إنشاء إدارات الحكم المحلى حكم الضباط كل المحافظات ومجالس المدن والشركات والمصانع (وبالطبع الوزارات) واحتل غفر يوليو ٧٥% من مناصب وزارة الخارجية وسفاراتنا بالخارج.

وعلى مستوى القضاء تم التنكيل البدنى بحجة القانون المدنى الدكتور السنهوري ثم بعد سنوات كانت مذبحة القضاء المعلومة بعد أن أصبح الزعيم وكيل عموم مصر المحروسة.

وعلى مستوى الوحدة الوطنية اللازمة لتماسك الجبهة الداخلية إزاء صيحات الحرب، فقد تم وضع يد وزارة الأوقاف الإسلامية على الأوقاف المسيحية للصرف منها على الأزهر الذى أصبح مسئولاً بقرارات رئاسية عن كل تراث الأمة ورقيباً على فكرها وحليفاً لزعيمها. مع تحويله إلى جامعة للعلوم الوضعية لكنها الجامعة التى كرست الطائفية بقرار المادة (١١١) من الباب الخامس الذى يقصر دخولها على المسلمين وحدهم.هذا ناهيك عن كون تنظيم الضباط الأحرارنفسه لم يضم مسيحيا واحداً بينما كان معظم كوادره أعضاء فى تنظيم الإخوان وجهازهم السرى.

مع هذا كله (مع إيجاز شديد) لا مجال للحديث عن حريات، وبالتبعية عن مستوى معيشة واقتصاد آل إلى دمار شامل، ويبقى معيار الخارج، معيار حماية حدود الوطن الذى

هو مهمة العسكر الأولى والمهمة الوطنيـة التأسيسـية لأى نظام فى الدنيا وعبر التاريخ، مع ملاحظة أن العسكر لم يكن لديهم أية حجة بعد أن سيطروا على شئون البلاد جميعاً.يكفى هنا أن نطالع على خريطة فلسطين الشريط الضيق الساحلى للدولة الإسرائيلية قبل يوليو ٥٢، لنقارنه بمباحهـا المرتـاح الذى أدت إليه سياسات الفاشية فضمت الأرض حتـى مـدن القناة وابتلعت كامل سيناء وهى تملك مساحة حدودية تعـادل ما يزيد عن نصف حدود القطر المصرى جميعه، ووصـلت حدود إسرائيل إلى القدس شرقاً والجولان شمالاً.

إن أى كلام محترم أو وطنى صادق لا يمكن أن يقبل أى تبرير أياً كان إزاء ضياع الأرض واحتلالهـا خاصـة وأن العسكر كانوا كل شيء ويملكون كل شيء وكرسوا كل مصر من أقصاها إلى أقصاها عبر زمن أهدرت فيـه كل ممكنات الوطن وكرامة المواطن من أجل توسيع رقعة تلك الحـدود وليس إهدار نصفها فى فضيحة عالمية مروعة ليس لها نظير فى التاريخ.

تلك أيها السادة هى المعايير التى تقاس بها التجارب لكن بقايا ذيول الثقافة الفاشية يرون أن ذكر هذه الحقائق خيانـة للوطن وبيع للقضية وخروج على الصف الوطنى واختـراق للإرادة العربية وتفريط بالحقوق التاريخية، وإنهـم لازالـوا يتصورون أن بإمكانهم أن يخيفـوا أحـداً، أو أن يفرضـوا وصايتهم على أحد دون مسح عرق الخجل لما قدمت أيـديهم فى حق الوطن والمواطنين.

إن من حق هذا الجيل الذى أورثته الناصرية النكبات أن يعلم بما حدث دون تزويق، بـل إن مـن حقـه أن يطالـب بمحاكمة علنية تفتح فيها جميع الملفات لكل من شارك فـى الكارثة سواء منهم الأحياء أم الأموات لأنها الكارثة الأعظـم فى تاريخ مصر منذ توحيد القطرين*، لكشـف الأخطـاء والانحرافات وتقديم اعتذار واضح لائق لكل من طاله القهر مـن مواطنين، واعتذار أوضـح للوطن وتاريخـه، ولهـذا الجيل الذى يجنى ما زرعت أيدى هؤلاء بالأمس القريب.

أما التباكى على فلسطين فقد أصبح كذباً رخيصاً وملـلاً مقيتاً بعد أن تاجروا طويلا بقضية الحرب «التى خسـروها فى ساعات خمس أو بالأحرى وللدقة فـى ربـع سـاعة» للقضاء على قضية الحريات فى الداخل. وإن حجـراً يلقيـه صبى فى الانتفاضة اليوم لهو الأكثر شرعية والأكثر شـرفاً من كل الشعارات التى أضاعت فلسـطين وأخرجتنـا مـن التاريخ. لقد كشف أطفال الحجارة كم زيفنا وكم تاجرنا وكـم ضللنا حتى أوصلناهم إلى الحجارة سلاحاً. ولم تزل ذيـول الفاشية تعزف نغمات الحرب أو التخوين إزاء عـدو كانـت مناهجنا خير عون لقوته واقتداره. بعنصرية أعطته مبررات وجوده العنصرى، عنصرية مارسناها إزاء أشقائنا فى الوطن

---

* إن هذا القول من قبيـل المجـاز الصـادق فقـد احتلـت مصـر امبراطوريات كالروم والفرس، لكن الهزيمة الأعظم هى تلـك التـى تكون أمام دويلة لم تتجاوز العام العشرين من عمرها حينذاك، وبعـدد سكان لا يزيد عن المليونين.

وليس إزاء عدو خارجى، ولم نزل. عنصرية مارسناها إزاء ثقافتنا المصرية الاصيلة القبل عربيـة ولـيس إزاء ثقافـة الأعداء. عنصرية دفعتنا لطرد مصريين تاريخياً لمجرد أنهم يهود يخالفوننا العقيدة بـدعوى تـأمين الجبهـة الداخليـة، وأعطيناهم لإسرائيل تحاربنا بهم، فإن قلنا: أفيقوا يـا قـوم، قالوا: أهدروا دم الزنديق الخائن (؟!!).

إن دق طبول الحرب الآن هو الانتحار بعينه، وبيع كامل ومجانى للوطن، فلا نحن نملك منهجاً علمياً حراً فى منـاخ حر يسمح بالفرز العلمى لإقامة تصنيع تسليحى قادر مستقل، ولا نحن بتركة الفاشية التـى تثقل كاهلنـا اليـوم بقـادرين اقتصادياً على استيراد هذا التسليح،ولا العالم سيسـمح لنـا بامتلاك هذا التسليح من أجل هذا الغرض. وحتى لو تحققت المعجزة وامتلكنا السلاح الكامل واللازم مـع ذات مناهجنـا السائدة حتى الآن، فسنتركه مرة أخرى للصهاينة كما فعلنـا عندما امتلكناه من قبل، فالقدرة والنصر فى العقل وليس فـى السلاح، وفى المنهج قبل الأداة.

وهذا إنما يعنى أن مشروع الحرب قد تأجل إلـى أجـل غير مسمى، فمـا هـو البـديل سـادتى الأبـواق عاليـة الصوت؟وهل ثمة حل آخر سوى تركيز كل الممكنـات فـى التنمية والبناء الداخلى، والنضال الشرعى الرصين من أجـل الوصول إلى مناخ حريات كامل لا يعرف التكفير والتخوين والتحريم، حتـى نهيـئ العقـل للفـرز العلمـى الـلازم للتقدم،وللتحول نحو نظام مدنى كامل يوحد أبناء الوطن فـى بوتقة ومصهر واحد وبمساواة كاملة تخرج بنا مـن منطقـة الأزمة؟ لنخرج من مساحة الضعف إلى دنيا التحضر والقوة

بمنطق الزمن ومعاييره. وساعتها يكون لكل مقام مقـال إن شئتم حرباً أو دماراً تقدرون عليه، أما أن تكون مشلولاً قعيداً وتتنادى بالمغازى والمغانم قبل أن يتحرر عقلك من أسـباب هزائمك، فتلك والله مسألة لا يحلها إلا أطبـاء المستشـفيات النفسية والعصبية والعقلية.

وهم الحقيقة المطلقة زعم يدمر الأمة(*)

بيقين الإيمان وحده نؤمن ونسلم بأن هناك حقائق ومعارف وقيم قدسية مطلقة، لكننا نؤمن أيضاً أن هذه المعارف والقيم القدسية لا سبيل لبشر إلى الاطلاع على غيوبها ومعرفتها معرفة كاملة مطلقة، لسبب بسيط وبدهى هو أنها من خصوصيات الله تعالى وحده دون غيره، وأن غاية ما يمكن القول بشأنها أننا نعلم منها الظاهر فقط. لذلك تختلف معرفة هذا الظاهر باختلاف عقولنا وقدراتنا وظروفنا ومعارفنا وبيئاتنا وزماننا وأغراضنا، فالظاهر هو النسبى الممكن الذى يسمح بالاختلاف حوله أما الباطن فهو الغيبى المطلق الكامل الذى يليق بعلم الله وجلال كماله. ولا يزعم زاعم أن بإمكانه الاطلاع على المعرفة الكاملة، وأنه الأوحد المطلع على الحقيقة النهائية المطلقة ليفرض هذا الزعم على كل العقول وعلى كل العباد، لأنه فى هذه الحال كمن يزعم أن الله قد اختاره وحده من بين الناس وخصه بهذا العلم، وأنه الوحيد دون الناس الذى اطلع على المقصد الإلهى السامى الذى يليق فقط بالذات الإلهية العلية.

ومن هنا ساغ وباح للمسلمين الاختلاف فى التفسير والتأويل حيث الاختلاف بشرى وطبيعة من طبائع الأشياء،

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ١٩٩٨/١٠/٥ العدد ٣٦٦٩.

لكن الجرم يقع حين يزعم أحـد المختلفـين أن رأيـه هـو الصواب اليقينى الموافق للغرض الإلهى وأن ما خالفه هـو الخطأ والانحراف، وهو ما يؤدى فى النتيجة النهائية إلى أن ينسب الأول لنفسه كل الصـلاح والتقـوى ويكفـر الآخـر المختلف وينفيه من جماعة المؤمنين.

والتساؤل هنا يطرح نفسه مستفسراً: هل كان اخـتلاف الصحابة فى الفتنة الكبرى زمن عثمان بن عفان خلافاً حول حقائق دينية إلهية أم كان حول أمور دنيوية بحتة؟ إذا أجبنـا بأنه كان حول أمور دينية إلهيـة وأن أحـد الطـرفين فـى الصراع كان يملك الحقيقة المطلقة الإيمانية الصـادقة، وأن الآخر كان غير ذلك، فمعنى ذلك تكفير فريق من الصـحابة وهو أمر مرفوض يطعن فى مؤسسة الإسلام الأولى وينـال منها. وذات التساؤل يمكن طرحه حول الخلاف الـذى أدى إلى مذابح كبرى بين فريق الإمام على بن أبى طالب وفريق السيدة عائشة بنت أبى بكر وزوج النبى صلى الله علية وسلم فى وقعة الجمل وكان أعضاء الفريقين من كبار الصـحابة. هل كان هذا الخلاف خلافاً دينياً أم كان خلافاً دنيوياً؟ المعلوم أن صبغ أحد الفريقين بالحق ودمغ الآخر بالباطل قد أدى إلى تمزق صفوف الأمة فى فرق مذهبية كبرى تردد صداها منذ كربلاء وحتىاليوم، وتنذر بخطر وشيك على حدود أفغانستان وإيران، حيث الخطر كان فى ادعاء المختلفين أن كلاً مـنهم على الحق والصراط المستقيم وحدهم، وأن الآخـرين علـى غير هدى وكتاب منير، وأنهم الأخسرون.

بينما النظرة الموضوعية التى تحترم الدين وتترفـع بـه عن صراعات السياسة والقوة والنفـوذ تعتـرف بهـدوء أن الخلاف كان حول شئون أرضية دنيوية وأطماع بشرية حتى لو ادعى الطرفان وزعم المختلفـان واحتجـوا بالأحاديـث المختلقة ورفعوا راية الإيمان فى وجوه بعضهم البعض.

وهكذا ظل مبدأ امتلاك الحقيقة المطلقـة مسـلطاً فـوق رؤوس المخالفين، خاصة إذا اعتصم أصحابه - وهى العادة - بمراكز السلطة والنفوذ التى تملك قدرة القهـر والعقـاب. وهو الأمر الذى استخدم فى تاريخ الدول الإسـلامية علـى تواترها ضد الفكر والمفكرين، رغم أن الفكـر لا يسـتخدم السيف بل القلم، ولا يذبح المخالف بل يحاوره، فتـرك هـذا المنهج سجلاً مشيناً وكارثياً فى تاريخنا، عنـدما اسـتغلقت الأفهام على أحادية الرأى وصدق الواحـد السـائد وتكفيـر التعددية والخلاف، فساغ للخليفة هشام بن عبد الملـك قتـل المفكر المعتزلى الحجة غيلان بن مروان، ولم يجد الوليد بن عبد الملك جريمة فى أمره بضرب العالم الناسك نجيب بـن عبد الله بن الزبير بالسوط حتى الموت. وصار الأمر سـنة متبعة نضرب منها الأمثلة وليس على سبيل الحصر، فتم قتل العالم المؤدب الجليل صالح بن عبد القدوس بتهمة الزندقـة، ولحق به الشاعر بشار بن برد بأمر الخليفة المهدى. وكـان للمهدى لذة خاصة فى اضطهاد المفكرين وذبحهم حتى أنشـأ لهم حبساً عرف بحبس الزنادقة. ومن بعده أمـر المعتصـم فاتح عمورية بجلد المجتهد النابغة الجليل أحمد بـن حنبـل وحبسه حتى غاب عقله، وأمر الواثق بقتل سيد علماء عصره أحمد بن نصر ثم صلبه. ومات أبو يعقوب البويطى خليفـة

الإمام الشافعي في حبسه،وتـم قتل ابن حيان السبتي العـالم لأنه كان يقرأ في العلوم الرياضية، ولحـق بـه المتصـوف الزاهد الحسين بن الحلاج. وفي الأندلس تآمر وسطاء الـدين المحترفون على ابن حزم وابن رشد فحرقت مؤلفاتهم، وأمر المنصور ملك الأندلس بنفي ابن رشد وأبي جعفـر الـذهبي وأبي عبد الله قاضي بجاية دفعة واحدة، وقتل ابـن حبيـب لاشتغاله بالفلسفة. أما المفسر المؤرخ الكبير الطبري فقد تـم قتله بعد اتهامه بالإلحاد ولحق بـه الإمـام القشـيري علـم الأشعرية الأشهر، وغيرهم كثير.

ورغم التبديع والتكفير فإن الواضح أنه كان على خلافات دنيوية تم فيها استخدام الدين لامتطاء الجماهير نحو أغراض ومطامع بشرية بحتة، فدرس التاريخ يؤكد «فيما كشف عنه الأستاذ علي حرب» أن اختلاف المسلمين إلى فرق ومذاهب كان يقف على أرضية دنيوية، وأي علم أنشأته فرقـة مـن الفرق هو علم مبتدع، وكل قول جديد قال به فقيه هو محدث، وأن كل فرقة فقهية على اختلاف الفرق قد تعرضت للخطـأ والنسيان والتوهم مهما بلغت درجة الفقهاء، فقد كانوا بشراً لا آلهة.

وإعمالاً لذلك لا يمكن فهم اختلاف المذاهب على تنافرها الشديد واختلافها البعيد، ولا يمكن فهم تعدد المدارس الفقهية رغم تعاصرها وتزامنها، ولا يمكن فهم اختلافات المـدارس الفلسفية الإسلامية والمدارس الكلامية وتباينها وتعارضها إلا بالاعتراف بدنيوية الأغراض وبشرية المفـاهيم وتاريخيـة الأحداث. وأن عدم الاعتـراف بـذلك كـان وراء المـذابح

والمظالم حيث رأت كل فرقة أنها فقط المؤمنة وغيرها على ضلال.

وأن تاريخ السلطة والحكم عبر تاريخ الدولة الإسلامية منذ قيامها يشهد أنها لم تتشكل ولا مرة واحدة إلا بقوة العصبيات والمصالح وقدرة فريق على إخضاع الآخر؛ ولم تحسم الخلافة لفريق دون آخر إلا بالشروط الدنيوية وحدها، بالإنسان، بأهوائه ونزعاته وطموحاته، بالبشرية غير المعصومة وبكل ضعفها.ومن يزعم الأمس أو اليوم أوغداً أنه وحده الإيمان السليم وغيره ليس كذلك، أو أنه المطلع وحده على الحقيقة الإلهية الكاملة وغيره على ضلال،كمن يزعم أن القرآن الكريم ملكية خاصة وأن الله قد عينه وحده وكيلاً عنه وأعطاه وحده تفويضاً للفهم الصادق والتفسير الأوحد، هو كمن يغلق النص القرآنى وهو نص لا يقبل الإغلاق ولا يمكن استنفاذ ممكناته وتفسيراته لأنه نص ملك البشرية جميعاً ومن حق البشرية جميعاً، هو نص مفتوح دوماً لكل العقول فى أى زمان.

والمثال المعاصر أن الأزهر قد اختلف مع دار الإفتاء حول أمور كثيرة منها مسألة ختان الإناث ومنها فوائد البنوك، لكنه الخلاف الذى لا يضع أحدهما فى دائرة الإيمان والآخر فى خانة الضلال، وإلا مزقنا الأمة شر ممزق.

إن زعم امتلاك الحقيقة المطلقة أدى إلى الانغلاق على الذات ونفى المختلف وعدم الاعتراف للآخر بحقه الدينى والإنسانى فى الاختلاف، بل وأصبح ينظر للمختلف بحسبانه تابعاً لمؤامرات عالمية وأنه ضد الهوية ومن هنا تجوز

تصفيته بعد تكفيره. ويتصور هؤلاء لأنفسهم كـل الفضـائل الحق والوطنية، ولا يستطيعون رؤية المختلـف كعنصـر مكمل أو مماثل أو محاور فى ساحة لا يملكها أحد. يـرون أنفسهم الحق مطلقاً وغيرهم يتكلم عن هوى وضلال، ناقص العقل، قليل الدين، ضعيف الخلق، تشوبه النوازع الإنسـانية المتحللة الخاسرة، ولا علاج له إلا القتل!!

وهؤلاء ذاتهم من يزعمون أنهم يريـدون إقامـة دولـة إسلامية قوية، وقبل أن يقيموها يروعـون العبـاد بـالتكفير والتفريق والتنفير والذبح، حتى إذا ما نجحوا فى إقامة دولتهم أسالوا الدماء أنهاراً على اختلاف فى تأويـل نـص أو رأى فقهى، بل إن فرقهم تكفر بعضها بعضاً قبل أن يملكوا أعناق العباد.

وتكمن المهزلة فى استعلائهم الشديد بحقيقـتهم الكاملـة وشعورهم المريض بالتميز المفرط، بينما حقيقة الأمر أنهـم يستخدمون فكراً لا يكلفهم مشقة، فقط يحفظـون ويقـرأون ويتلون، ويرون أمة المسلمين هى الهاديـة للعـالم وقيـادة العالمين المقبلة مما يجعلنا أضحوكة للعـالمين، إذ يتسـاءل الآخر المتفوق كيف جاز لنا هذا الزعم بهداية البشرية ونحن أمة لا تصنع ولا تنتج ولا تكتشف ولا تبتكر ولا تخترع ولا تفكر، فقط تحفظ وتجتر ما حفظت ويقتل أهلها بعضهم بعضاً لخلاف فى الرأى والفكرة.

لقد ساد أصحاب هذا المنهج، وجعلوا لمنهجهم السـيادة على كل مؤسساتنا وعقول مواطنينا، حتى تجاهلنـا الواقـع وحركة التاريخ المتغير فى الدنيا فكان عقابنا أن تجاهلنا هذا

الواقع وتركنا فى موقعنا بالقاع المهمل. وفى هذا القاع لم تعد لدينا أية معرفة ممكنة سوى معرفة المقدس والتعرف عليـه حتى أصبح هو العلم الوحيد والمعرفـة الوحيـدة الممكنـة، وبامتلاك الحقيقة المطلقة انصرفنا عن تحصيل العلـم لأننـا نؤمن حسب هذا المنهج بالمفاجأة والمعجزة، فيكفـى التـزام الحقيقة المطلقة لتأتى المعجزة وتنهض الأمة، وهو المـنهج الذى لخصه الدكتور(حامد محمود اسماعيل) فـى الجـزء الثانى من كتاب (المثقفون والإرهاب) الذى أصدرته الهيئـة العامة للكتاب لمواجهة الإرهاب (؟!!) حيث قال لا فض فوه: «مع التزام الجميع بنهج الإسلام الصحيح تختفى كل السلبيات وتزول عن كاهل هذا البلد الأمين كل الظواهر التى تؤرقـه وتقلقه». أما ما هو الإسلام الصحيح فهو ما اختلفت حولـه المذاهب والفرق وزعمته كل منها منهاجاً لها فكان هذا حالنا وهذا مكاننا بين الأمم.

المرأة العربية

مرة أخرى وأخرى حتى تتحقق المطاليب(*)

مرة أخرى نخوض فى المحظور وندخل منطقة الخطر، فالحديث عن المرأة فى مجتمع يراها مجرد حرمة، عـورة، متاع للسيد الذكر، ولا يرى لها وظيفة خلقت من أجلها سوى إمتاع سيدها وراحة بعلها ومنحه العديد من البنين الذين هـم زينة الحياة الدنيا. هو حديث سبق وجرنا إلى دروب المحاكم ووضعنا فى مواقف الاتهام فى العقيدة وأمام القـانون (؟!!). وكان ذلك فرصة اقتنصها السادة الذكور الأماثـل للتكفيـر والتحريض وإهدار الدم عبر صحف تبحـث عـن قـارئ بضجيج الفتن، وكتب تم تكريسها لفتاوى مشايخ آخر الزمان، وليس للرد المنطقى الهادئ حول القضايا المطروحة ومـدى منطقية الطرح وصلاحه لشئون البلاد والعباد. وحيث نـرى القضية جزءاً لا يتجزأ من قضايا الحريات والتقدم من أجـل أجيال أكثر علماً ومعرفة وعطاء وإبداعاً، ومن أجل وطـن يعيش الزمان ويتفاعل معه ويتسنم موقعه بين الأمـم الـذى يليق بتاريخه الحضارى العريق، أرى أن القضـية قضـية حريتى كذكر وأنها يجب أن تمر عبر حريـة الأنثـى فـى المجتمع لأنها نصف الأداء والإبداع الممكن فى الوطن.

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/١٠/١٢ العدد ٣٦٧٠.

وكانت الغرابة والدهشة أن ينص دستور البلاد علـى أن جميع المواطنين يتساوون في الحقوق والواجبـات بصـرف النظر عن اللون أو الجنس أو العقيدة، ثم تحاكمنـا محـاكم الدولة لأننا نخاص للدسـتور ونحترمـه ونطالـب بتفعيـل مواده.ولا يخفى على أحد أن السر وراء هذا التنـاقض فـى موقف الدولة لا يخرج عن احتمالين، فإما أن هـذه المـادة الدستورية قد وضعت تجملاً أمام الدنيا دون إيمـان حقيقـى بمحتواها، أو أن الدولة قد انساقت فى المزايدة علـى دعـاة الإسلام السياسى إلى حد رأيناه فى إدخال مواد على الدستور لم تكن فى بنيته التأسيسية وتتضارب مع بقية نصوصه كمـا فى نص احتساب الشريعة الإسـلامية المرجعيـة الرئيسـية للتشريع، وهو بالطبع الافتراض الأرجح وجميعنا يعلم هـذا بوضوح.

وإيماناً بالمواد المدنية بالدستور-لأن الدستور بطبيعتـه مدنى- واحتراماً لتلك المواد المدنية،وإيماناً منا أننا لا نخرج على عقيدتنا الحنيفية بل نقول إسلاماً فى إسلام، نؤكد مبدئياً أننا نرى المرأة كائناً كاملاً عاقلاً راشداً، لا تقل شأناً عن أى ذكر،وأنها أبداً ليست مجرد متاع، وأنها أبداً ليسـت مجـرد نصف ذكر، فهى قد تكـون طبيبـة أو محاميـة أو عالمـة متخصصة منتجة مبدعة، وأن الذكر قد يكون رجلاً خامـل الشأن،مجرد كائن عالة على الوطن ولا يستحق أحياناً القوت الذى يمنحه له هذا الوطن.

لقد سبق وحوكم مفكرون وحوكمنا معهم لا لذنب حقيقى، فقط لأننا أعلنّا أمانينا الوطنية فـى تفعيـل المـواد المدنيـة للدستور بأن تأخذ المرأة المصرية مكانها فى المجتمع حتـى يمكنها أن تؤدى دورها فى العطاء، وأن توضع فى مكانهـا الإنسانى اللائق.وقد سبق وقلنا أن أهل القبلـة لا يكفـرون مسلماً يتمنى أو يتساءل، وهنا سنطرح مبررات التمنى مـع التساؤلات عسانا نظفر بمجتهد من رجال الدين ذوى المكانة، نفتح أمامه أبواب التاريخ ليدون على مدخلها اسمه بين مـن أعطوا للوطن وبذلوا من أجله. نطرح ما نطرح عسانا نظفر بشيخ جليل يود أن يسجل اسمه إلى جوار السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ الجليل محمد عبده، لأننا لا نقول أننا نقـدم اجتهاداً بقدر ما نقدم تساؤلات وأمانى ومبررات هذه الأمانى المشروعة والمنطقية.

* * *

على مستوى مسألة التوريث يعلم كل مسـلم أنهـا قـد تغيرت بتغير الواقع ومستجداته خلال حياة الرسـول نفسـه ثلاث مرات. لأن القرآن الكريم لم يأت دفعة واحـدة مثـل ألواح موسى،بل جاء مفرقاً منجماً تغيرت أحكامـه وتبـدلت بتغير الواقع وتحركه، فتفاعل مع الواقع وانفعل به وفعل فيه. وأول الآيات حول الميراث جعلته لذوى الأرحام دون تحديد أنصبة، ولمن كان له عقد موالاة، حيث كان بعض الناس قبل الدعوة يتحابون لدرجة أن يتعاقدوا عقداً يجعل كلاً منهما ولياً للآخر يرثه عند موته، وقد أقّرت الآيات هذه العقود فقالـت:

«ولكلٍ جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربـون والـذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم / ٣٣ / النساء».

وبعد ذلك تم نسخ هذه الآية بآية جديدة هى آية الوصـية «كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً علـى المتقـين / ١٨٠ / البقرة».ولم يلبث الأمر على حاله فالواقع سـريع الحركـة فتحرك الوحى مغيراً ناسخاً ما سلف بالآية«يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين / ١١ / النساء». وكانت تلك آخر آية بخصوص الإرث تواصلت بها السماء مـع الأرض حيث توقف الوحى برحيل النبى (ص) إلى الرفيق الأعلـى. وعندها توقف المسلمون وحتى اليوم رغم مرور أكثر مـن ١٤٠٠ سنة حدثت فيها متغيرات كبرى وهائلة.

ومن جانبنا ربما نفهم من تتالى آيات بأحكام ثلاثـة أنـه كان درساً للمؤمنين، فلو أراد الله حكماً صارماً قاطعاً واحداً لكان قادرا على تبيانه مرة واحدة دون تغيير أو تبـديل، وإذا كان للتغير والتبديل حكمة فلا شك أن الحكمة تحتمل أكثر من فهم، والفهم المتعدد يحتمل القول أن ذلك كان درساً للمؤمنين للاعتبار، وأن الإسلام ليس متجمداً ثابتاً،بـل إن للمسـلمين دوراً متحركاً فاعلاً فيه مادامو هم المؤمنون به، وأن المعنى هو أن يتغيروا بتغير المستجدات فى الأحكام التـى تتعلـق بحياتهم ومعاشهم ولا تمس جوهر العقيدة والغيبيات المطلقة.

وبهذا المعنى أفلا يكون تغير الحكم ثلاث مرات خـلال حياة الرسول وثباته بعدها مدعاة للقول بجمود الأمة خـلال

أكثرمن ألف وأربعمائة عام بعدها جموداً صـارخاً حرصـاً على مبدأ الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة؟

ربما يجد قارئنا فيما نقول هنا مجـرد افتـراض يمثـل اندفاعاً غير حميد فى الفهم، لهذا سنضع هنا - قدر المساحة المتاحة بالمجلة - أهم مبررات هذا التمنى والتساؤل منطقياً وشرعياً.

لقد وعى الفقه الشيعى الدرس فجعل البنت كالولد تحجب الميراث، لكن الفقه السنى رفض أن تحجب البنات الميـراث حتى ولو كن عشرات، لكن هل يجرؤ مجترئ على تكفيـر الفقه الشيعى لهذا السبب سوى من يظنون أنهـم المطلعـون على المقاصد الإلهية مباشرة؟ وهل توقفت الأمة عـن ولادة فقهاء كبار يملكون الجرأة الكافية لقول يتمثلـون بـه أسـوة باجتهاد الخليفة الراشد المجتهد عمر بن الخطاب، الـذى لـم يجتهد فى حكم بل وصل به الأمر إلى إلغاء سـهم المؤلفـة قلوبهم رغم نص الآية الكريمة على أن هذا السهم «فريضة من الله / ٦٠ / التوبة» بقول صريح فصيح ونص لا يحتمل لبساً ولا تأويلاً؟ لقد ألغى الخليفة عمـر فريضـة إسـلامية صريحة بعد أن تغيرت الأحوال وقوى شأن الإسلام ولم يعد بحاجة إلى شراء إيمان الناس. لقد غير عمر وأمضى اجتهاده ونفذ قراره وفرضه وتم العمل به حتى اليوم،بينما لم يكن قد مضى على وفاة النبى (ص) سنوات تعد على أصابع اليدين، ونحن لا نريد تغييراً ولا تبديلاً بعد مضى القرون الطـوال السوالف؟!!

سيرد علينا من يقول: لكن هذا هو الصحابى الجليل والخليفة الراشد وأحد المبشرين بالجنة وصهر الرسول وليس مثلنا مسلماً يعيش فى بواكير القرن الحادى والعشرين.وهنا نرد بأن تلك حجة عليكم لا علينا فكل تلك الصفات فى ابن الخطاب ميزات له فى عالم الخلد، لكنها أبداً لا تعطيه قدسية فهى له وليست علينا، فلم يكن يأتيه وحى حتى نرضى باجتهاده بعد أن رفعت الأقلام وجفت الصحف وما الرضى به إلا لمعقوليته وليس لقدسية صاحبه.

وإن الشائع بين الناس عن قدسية لحقت بالصحابة، معلوم أن سببها علماء الحديث الذين أعطوا الصحابة وضعاً فوق بشرى وذلك بغرض المساواة فى الحديث بين عمر بن الخطاب وبين آخرين من الرواة مثل أبى هريرة وابن عباس، حتى لتجد أبا هريرة فى علم الحديث أهم من الصحابة الخلفاء الراشدين مجتمعين، وحتى ضرب علماء الحديث بشهادة ابن الخطاب كل الحوائط لأنهم لو أخذوا بها لحذفوا مئات الأحاديث المنسوبة إلى أبى هريرة. ومثله أيضا عبد الله بن عباس الذى كان له من العمر سنوات عشر عندما توفى الرسول.

ولا بأس علينا ولا حرام ولا جرم نرتكبه إن ذكرنا وتذكرنا أن علم أصول الفقه قد تم وضعه بعد عمر بن الخطاب بعشرات السنين فلم يعلمه الخليفة وعلمناه نحن، فأعطى من يريد الاجتهاد ميزة إضافية اليوم. ناهيك عن العلم الحديث بكشوفه ومنجزاته ووسائله التى تساعد مجتهد اليوم ولم تكن فى طائلة عمر بن الخطاب.

ثم إن القاعدة الفقهية تقول: «إن العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً». والعلة فى جعل المرأة نصف ذكر هـو أن الذكر يدفع مهرها ويعولها هى وأولادها، لكن ذلك كان فـى الأزمنة الغوابر والمرأة اليوم دخلت كل ميدان بعـد تغيـر أوضاع الدنيا، وأصبحت تعمل وتربح وتعول البيت بدورها، بل وتضيف إلى عملها فى الدواوين عملها فى البيت تفضـلاً منها ومكرمة. وهكذا زالت العلة فما الحكمة فى بقاء الحكـم المعلول؟

سيرد علينا أهل التعصب الذكورى بأن المرأة تظل رغم ذلك ناقصة، لأنها تحمل وتلد وتحيض وهو ما يمنعهـا مـن أداء الفرائض فى مواقيتها. ويبقى الرد: هل انتقص ذلك من إنسانيتها أو من إسلامها فأصبحت من غير المسلمين؟ خاصة أن عدم أدائها الفرائض لأسباب فسيولوجية جاء بأوامر دينية وليس عن إرادة ورغبة منها.

وتظل الدهشة تزعجنا وتشككنا فى ذلك الموقـف شـديد التعنت من قضية المرأة بالتحديد وبالذات، والتركيـز علـى المرأة وميراثها وحيضها ولباسها وفتنتها حتى تأخذنا الشكوك كل مأخذ فى الحالـة النفسـية والهمـوم الجنسـية لهـؤلاء المتعصبين، وفى مدى حقيقة ما يعلنون وصدق ما يبطنـون، لأن هناك ما هو أجدى بهديرهم وصراخهم وفيه للأمة النفع العظيم، إذ لم نسمع منهم صوتاً جهيراً لتنفيذ أحكام الدين فيما يتعلق بزكاة الركاز على المعادن وأهمها البتـرول بـالطبع، والتى لو تم تطبيقها لرفعت الفقر عن كل بلاد المسلمين،فأين صوتهم أم أن المركز القدسى البترودولارى له أثـر آخـر،

فيؤمنون ببعض الكتاب ويغضون الطرف عن بعضه؟ وهـل لذلك علاقة بعيشهم الهنـىء وطعـامهم المـرىء؟ مجـرد تساؤلات بريئة إزاء تشددهم فى قضية المرأة، وإزاء قضـية فقر بلاد المسلمين رغم أنها محاولة بزكاة الركـاز، وهـى القضية الأجدى بالصراخ من قضـية الميـراث والحجـاب والطمث. والأهم هنا أن تبريرهم لنقص المرأة بعيوب خلقية فسيولوجية مردود عليهم بالقرآن نفسه فنقرأ الآيات الكريمـة وهى تتابع «فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلث ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهمـا السـدس مما ترك / ١١ / النساء».

هنا أيها السادة حالة مساواة واضحة لم تضع باعتبارهـا الحيض والنفاس كعلامات نقص،فمن مات وكـان لـه أخ أو أخت أو والدين أب وأم تساويا فى الميراث. الأمر إذن ليس لعيب جسدى يعوق المرأة عن أن تكون إنساناً كامل الأهليـة وإلا ما تساوت الأخت مع الأخ والأم مع الأب.

والكلمة الأخيرة: أسمعونا صوت عراككم من أجل رفـع الفقر عن كاهل المسلمين، **طالبوا أيها السادة بزكاة الركـاز لعلكم ترحمون،** وارحموا نساءنا فهن أخت ووالدة وابنة، كما تميزن بالحيض تميزن بحنو ورحمة لا يعرفهمـا الـذكور، وهنا الخلاف الفسيولوجى، وهنا أثـره الحقيقـى ونتيجتـه، الحنان الأنثوى الذى يجعل الحياة تخضر أمامنا مقابل القسوة الذكورية الغشوم التى تصيب حياتنا بالجفاف والتصحر.

المرأة والتراث(*)

نتحدث كثيراً عن الحريات وعن كرامة المواطن والوطن، وهو حديث حق طبيعى غير منكور، ونجأر بالشكوى من احتلال الغير للأراضى العربية بالقوة القاهرة، وهو أمر لا يختلف عليه اثنان، ونندد بقوى الاستكبار التى تكيل بمكيالين وهو الأسلوب الواضح لدول ذات مصالح فى المنطقة والتنديد بها مطلوب وهو أضعف الإيمان، ونرفع لاءات التحرر من التسلط السياسى والفقر والجهل والمرض وهو مطلب كل الشعوب فى جميع الأمم. لكن البعض المتشدد فى إعلان تلك المبادئ الرفيعة هم ذاتهم من يقفون بكل صمود وراء منظومة عقدية قانونية هى على النقيض الكامل من تلك المبادئ الرفيعة، حتى أصبحت طرائقهم مناهج تحكم مجموع القيم والسلوك والعادات للفرد والمجتمع والدولة، والأهم مؤسسات التثقيف الرسمية العامة إعلاماً وتعليماً. مناهج تكرس وجهة نظر واحدة إطلاقية لا تعترف بالتنوع والتعددية، مما يعنى عدم إيمان حقيقى بالمطالب المرفوعة بقدر ما تفصح عن حق إطلاق أيديهم وحدهم ونفى كل مخالف. وهى رؤى لا تحتاج جهداً لاكتشاف وقوفها ضد كل ألوان الحريات التأسيسية الابتدائية التى توافقت عليها

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/١٠/١٩ العدد ٣٦٧١.

الإنسانية، بعد رحلة صراع طويل ونضال دفعت فيه البشرية الكثير من الدماء والشهداء، من أجل إقرار تلك الحريات ضد أصحاب الرأى الواحد عبر التاريخ، حتى تم إعلانهـا فـى نصوص دولية ومواثيق وتعهدات ودساتير معلنة. وأهم هذه البنود هو المساواة التامة والكاملة بين المواطنين أمام القانون وفى المجتمع بكل مستوياته،بغض النظر عن أى اختلاف أو فروق فى اللون أو الجنس أو العقيدة.

والنظرة السريعة على تفاصيل المنهج السائد فى بلادنـا سواء على مستوى الفكر أو السلوك الفـردى أو الجماعى أو حتى القانونى تكشف على الفور عن عدم إيمان حقيقى بهـذه المبادئ، فلازلنا نحاكم الرأى ونجرم التفكير ونقتل من خالفنا الرأى ونصادر المؤلفات ونتعامل مع المواطن الذى يخالفنـا العقيدة بطائفية عنصرية بغيضة، علماً بأن طلبنا المشـروع بتحرير الأرض لابد أن يسبقه أولا تحرير الإنسان، وتحرير العقل من مخلفات الماضى المتجذرة فيه، والأهم ويقع ضمن تحرير الإنسان وتحرير العقـل تحريـر نصـف المجتمـع (المرأة).

وبصدد المرأة ومكانتها وحقوقها وحرياتها نسمع تغنيـاً بالحقوق التى نالتها المرأة المسلمة بمنحة تاريخيةأسستها لها ثقافتنا قبل أن يتعرف العالم على تلك الحقوق الأنثوية، وهنـا بالذات مكمن التساؤل عن مدى الصدق فى هذا الإعلان عن حقوق المرأة وحريتها فى ثقافتنا؟

يكفينا هنا الاطلاع السريع على قوانين الأحوال الشخصية حتى نكتشف على الفور مدى زيف هذا الادعاء وبطلانه بالكلية، ويكفينا أن نكتشف مدى مزايدة ذكور الشرق التليد على المبدأ الإسلامى الرفيع الذى لا يقر الزواج إلا بين طرفين مؤهلين له ذكراً وأنثى بالتراضى الكامل ودون قهر أو ضغط أو إكراه، وهو من المبادئ الرفيعة حقاً فى مأثورنا بلا منازع ينازعنا، لكن هل يقع مبدأ (بيت الطاعة) ضمن هذا المبدأ الرفيع؟ وهل بيت الطاعة سوى قهر زوجة ترفض الاجتماع برجل وإجبارها على الامتثال له سريرياً فى عملية اغتصاب علنية تتم تحت سمع وبصر الجميع وبحكم القانون وموافقة المجتمع؟

إن الحديث فى شئون قوانين الأحوال الشخصية ذو شجون تطول إلى ألف ليلة وليلة، ويعلمها الجميع بلا خفاء، لكن يبقى موقف أولئك الذين يعلنون حراسة العقيدة وموقفهم الذى يعلن حماية مأثور أسس للمرأة حقوقها وحرياتها، ولا بأس هنا إن ضربنا أمثلة سريعة لبيان مواقف هؤلاء، بعضها من المضحكات، وبعضها من المبكيات، لنضع دعوى حرية المرأة العربية التاريخية على محك مصداقية الفعل فى الواقع، ونحن على مدخل القرن الحادى والعشرين، وكيف يرى ذكور المنهج المحترفون وضع المرأة فى واقع الفعل وليس فى النظرية والشعارات. ولنبدأ بالمضحكات، فنقرأ كيف تقطع صلاة المصلى المسلم إذا مر أمامه أثناء الصلاة كلب أو حمار أو امرأة (؟!) هكذا، المرأة كالكلب وكالحمار. والحكمة فى الكلب لنجاسة شائعة لا نعلم مدى صدقها فى صحيح الدين، أما الحمار فربما لذكرى الشيطان الذى أمسك

بذيله فى سفينة نوح حسب رواياتنا الإخبارية «انظر قصص الأنبياء فى أى مصدر كبير كالطبرى أو ابن كثير أو ما فى مستواهما»، فما هى حكمة قطع المرأة للصلاة؟ هـل لأنهـا حسب الأقوال المأثورة رفيقة إبليس ورابع أربعة لا أمان لهم ولا توجد مع ذكر إلا وكان الشيطان ثالثهما؟ لقد سـاغ لنـا مساواة المرأة بالكلب والحمار والفرس لأن عقلنا لا يراها إلا مجرد شـيء، أداة للمتعـة، كالحمـار والفـرس لنركبهـا وزينة،حيث تم الإفتاء فى دولة عربية بجواز طلاق امرأة لم ترتكب إثماً، ولا يكون زوجها آثماً فى طلاقها، فقـط لأنهـا كانت شؤماً على زوجها، فقد أفلس زوجها بعد أن تزوجهـا، وذلك استناداً إلى غريب الحديث القائل: «الشؤم فى ثلاثـة : المرأة والفرس والدار» ؟!!

ثم هى حرمة، حرام، جنس محض، شهوة تسـير علـى قدمين، فتنة للإنسان بل وللحيوان، فحسب تلك الفتاوى يجوز للفتاة أن تخلع حجابها بغرفة نومها ومعها كلب أنثى لكن ذلك غير جائز شرعاً لو كان الكلب ذكراً؟! هكذا؟! أما إذا كانـت طالبة بكلية الطب فلا يجوز لها تشريح رجـل ميـت، وإن كانت هناك ضرورة فيجب استخدام الوسائل الكفيلـة التـى تحول دون رؤيتها لأعضائه التناسلية،كإطفاء النـور أثنـاء عملية التشريح مثلاً؟! «انظر أعداد مجلة نـون الموسـوعة الفقهية الكويتية / جمعها الدكتور حسن حنفى فـى: قضـية نون».

هذا ما كان عن المضحكات فى مناهجنا، وتوضح كيـف ينظر بعضنا للمرأة التى هى نصف المجتمع، ثـم يمتشـقون سيوف العنترية الخطابية مـن أجـل تحريـر الأرض مـن الطاغوت،دون الشعور بأى خلل أو تناقض.

فماذا عن المبكيات؟

هنا نضطر إلى دخول مساحة الخطر ودائرة المحظور، حيث الدخول محفوف بسيوف حراس العقيـدة ورشاشـاتهم وقضايا التفريق والتكفير فى المحاكم، لكن ما الحيلة وصمت مفكرينا من فضة وسكوتهم من ذهب فى منـاطق الخطـر، صمت غير جميل،وسكوت غير حميد إزاء مناطق هى انعدام العدل الكامل فى مناهجنا إزاء المرأة والمغالاة فـى ظلمهـا لقيام المنهج دوماً على رؤيتها ككائن طفيلى مهمتـه إمتـاع السيد الذكر، فإن انتهي دورها تم إلقاءها فى أقـرب كومـة مهملات، لأنها مجرد أداة، مجرد شئ.

إن المغالاة لدى الفقهاء والمفسرين فى الحالة التى بـين أيدينا تجعلنا نعتقد أنه كان بالإمكان إيجاد تفسير أكثر رشاداً وعدلاً وجمالاً من التفسير السائد، لآيات لا نشك أبداً أن لهـا تفسيراً آخر غير المطروح، وأن لأسباب نزولها قراءة أخرى تليق بعدل الله وكلمته الحق.وقد رنا إلى علمنـا أن الباحـث المغربى الدكتور محمد عابد الجابرى قد حاول وضع اجتهاد جديد لها، لكنه للأسف لم يصلنا، لذلك نطرح القضية وننتظر من يقول فيها جديداً يليق بالعدل الإلهى.

تقول الآيات الكريمة: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير، وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقـوا فـإن الله كان بما تعملون خبيراً.ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النسـاء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميـل فتـذروها كالمعلقـة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً. وإن يتفرقا يغـن الله كلا من سعته وكان الله واسـعاً حكيمـاً / ١٢٨ :١٣٠ / النساء».

تتفق كل روايات المفسرين على نزول هذه الآيات فـى سودة بنت زمعة إحدى نساء النبى (ﷺ) عندما كبـر سـنها فخافت أن يطلقها النبى، فوهبت ليلتها للسيدة عائشة وتنازلت للنبى عن جزء من حقوقها فى نفقتها. وفى تفسير بن كثيـر عن عمر بن الخطاب قوله: «هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا سنها فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها، فما اصـطلحا عليه من شيء فهو جائز»، وأورد أيضاً عن على بـن أبـى طالب قوله: «يكون الرجل عند المرأة فتنبـو عينـاه عنهـا مـن دمامتها أو كبرها، فإن وضعت لـه من مهرها شيئـاً حل له، وإن جـعلت لـه من أيامها فلا حرج»

[انظر تفسير ابن كثير طبعة دار المعرفة، بيـروت، ١٩٨٠، ج١، ص٥٦٣].

وإعمالاً لهذه التفاسير ذهب المفسرون إلى وجوب تنازل المرأة عن بعض حقوقها فى مقابل أن تظل تحظـى ببيـت الزوجية اتقاء للطلاق، وهو ما يعنى أن كبر سنها قد أفقـدها

بعض حقوقها التى سبق الاتفاق عليها والتعاقد بشأنها. وهـو أيضاً ما يعنى أنها بعد أن شقيت وتعبت وأعطـت عمرهـا لزوجها وبيتها فى شبابها، قد أصبحت بعد ذلك مقصرة فـى حقه لكبرها فى السن، بعد أن أنهكها عطاؤها لزوجها عـن استمرار هذا العطاء. ومقابل هذا التقصير حق عليها العقاب بفقد بعض حقوقها (!!).

إن العدل يقول بغير ذلك تماماً، لأن المسئولية تقع علـى الزوج حيث أن الإعراض جاء منه وليس مـن زوجتـه. إن العدل يقول بالعكس تماماً، يقول بوجوب مكافأة هذه الزوجة بزيادة نفقتها تكريماً لها وتعويضاً لها عن شقائها، ورعاية لها فى كبر سنها ومرضها عرفانا بجميلها. ومن الجور أن تقـيم امرأة مخلصة لبعلها وعندما تكبر فى السن يأخذون نصـيبها ليعطوه لزوجة أخرى شابة عفية قوية صبية يمكنها الإمتـاع ومنح الولد، ليس من العدل أن يكون البديل هو تخليها عـن حقها الجسدى لأن زوجها لم يعد يجد فيه المتعـة. إن هـذا التفسير المطروح فى مأثورنا يجعل المرأة مجرد وسيلة وأداة وشئ ويسلبها إنسانيتها، حتى يصبح عليها أن تدفع وتتنـازل مقابل عدم طردها إلى العراء عجوزاً ضعيفة بلا حـول ولا قوة، أو يكون البديل هو الطلاق.

إن متغير الزمان لم يعد يسمح بهذا الموقف الدونى إزاء المرأة. فلا شك أن هناك تفسيرات أكرم للآيات الكريمة،لذلك نُصر طوال الوقت على وجوب التسليم بوجود أوجه كثيـرة للتفسير والرأى احتراماً للنص تحريكـاً لأحكامـه بتحـرك الواقع. لهذا نُصر طوال الوقت أن القرآن الكريم نص لا يقبل الإغلاق على تفسير أوحد يضر بالـدين وبالـدنيا، بـالبلاد

وبالعباد. وأنه نص مفتوح يحتاج إلى جرأة علـى الجمـود والتقليد حتى يبقى فاعلاً فى حياتنا بما يرقى بهذه الحياة وبما يتلاءم مع متغيراتها. ولا شك أن هناك فقهاء راشدين سنسمع منهم بهذا الشأن قولاً حكيماً كريماً يليق بهم. ولا شـك أننـا سنسمع من جانب آخر صيحات التكفير والتنفير وهـو أمـر أصبح معاداً مكرراً حتى الإملال، لكن حديثنا للراشدين منا.

المرأة والرق والاجتهاد(*)

هناك أمورلا يختلف حولها أحد من المخلصين من أبناء هذا الوطن، فأمن مصر يرتبط بالضرورة بأمن المحيط، وهو ما يعنى أن هناك ارتباطاً مصلحياً مصيرياً بين مصر وبـين محيطها العربى، لكن هذا لا يعنى تفعيـل ذات الشـعارات القديمة التى أودت بنا إلى مكاننا الحالى، لكن غاية ما يعنيـه هو الحرص على التفاعل وتأكيد التعاون الذى يحمـى هـذه المصالح ويدعمها ويقويها فى إطار يجمع التعـدد ويثريـه التنوع.

والأمر الثانى أن هناك أرضاً عربية محتلة لن تحررهـا الشعارات بقدر ما تحررها القـدرات وممكنـات التحضـر والتفوق.

أما الأمر الثالث فهو أن القدرات العربية قد انتهت إلـى ضعف يشير إلى خلل كبير فى المنهج وفـى الأداء، مقابـل تقدم وقوة واضحين فى جانب المحتل، وهو ما يعنى وجوب البحث عن أسباب هذا الضعف لتلافيه وتجاوزه.

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/١١/٢ العدد ٣٦٧٣

والرابع أن هناك عالماً كاملاً يأخذ بمبادئ واضحة أدت إلى تقدمه، وأن هذا التقدم لا يعنى بالضـرورة أنـه عـدو، ومواقفه تقوم على مبدأ الصراع المصلحى، وعلينا أن نعـى مبادئ هذا الصراع وأن نمتلك أدواته. مع الأخذ بالحسبان أن الغرب قد تمكن من التفوق بمناهج وأدوات، ومن ثم عليـنـا اللحاق بهذا المتفوق والاستفادة من منجزاته بعيداً عن منطق العداء العنصرى أو الطائفى الدينى، فهى أمور لم تعد تشغل الدنيا بل إن غاية ما يشغلها هو مصالحها. ومـن مصـلحتنا تلافى أخطاءنا والاستفادة من خبرة الآخر التـى أدت إلـى تفوقه.فالحرب الآن هى حرب الحضارة التى تبـدأ بسـلامة منهج التفكير وتحرير الإنسان فى الداخل من كل ما يعـوق حريته فى التفكير والإبداع والكشف، لأن العلم اللازم للتقـدم لا ينمو إلا فى مناخ حر تماماً.

وضمن مبدأ الحريات كان لابد أن نتحدث عـن وضـع المرأة تأسيساً على أنه من اللغو أن نتحدث عن تحرير البلاد دون أن نحرر العباد، فنصف المجتمع شبه مشلول لا لشيء إلا لرفض مجرد إعمال العقل والرهبة من الجديد. ومن هنا استندنا إلى اجتهاد شخص فى قيمة الخليفة عمر بن الخطاب بما له من ثقل فى التاريخ الإسلامى، وتمنينا على الأفاضـل من رجال الدين المعاصرين اجتهاداً يقرب مـن اجتهاداتـه، خاصة وأن هذا الاجتهاد العمرى سابقة عظيمة الشأن تشـير إلى تفتح الأمة آنذاك وثقتها بنفسـها. فقـد اجتهـد الخليفـة وأمضى اجتهاده وأنفذه بحكم ما لديه من سلطة آنذاك، حيـث كان هو رأس الدولة وخليفة رسول الله (ص) فى المسـلمين. وكان المسلمون جميعاً يعلمون أنه اجتهاد ورأى لإنسان مثلهم

لم يكن يأتيه وحى بعد أن رفعت الأقلام وجفـت الصـحف برحيل المصطفى (ص) إلى الرفيق الأعلى. وقد علمنـا أن هذا الاجتهاد قد وصل حد إلغاء فريضة قررتها الآيات بشأن سهم المؤلفة قلوبهم.

وقد سبق فى أكثر من دراسة ومنتدى أن ربطنـا بـين قضية المرأة وقضية الرق فـى الإسـلام، حيـث تتقـاطع القضيتان فى نقطتين تشغلان الأمة:الأولى هى موقعنا الحالى فى العالم ووجوب إعمال مفاهيم الحريـات والتكيـف مـع المتغيرات كى نلحق بالأمم المتقدمة، تأسيساً على أن القرآن الكريم نص مفتوح لا يقبل الإغلاق علـى تفسـير أوحـد، والنقطة الثانية هى أنه علينا إبان هذا العمل علـى تأسـيس مناخ الحريات أن نراعى الحفاظ الواجب على النص المقدس واحترامه بما يليق بمكانه فى تراث الأمة التاريخى العريض.

والمعلوم أن الإسلام لم يشرع الرق ويبتدعه لأنه كـان شرعاً سائداً فى أقطار الدنيا عند مجيئ الدعوة الإسـلامية، ومن هنا كان موقف الإسلام متوافقاً مع عصره، لكنه ارتقى بالموقف من الرق خطوة تأسيسـاً علـى مفهـوم الأخـوة الإسلامية فى العقيدة، فحبب فى العتق وحض عليه، إلا أنـه لم يحرمه ولم يجرمه، وترك ذلك للمؤمنين بـه وبـدروس القرآن الكريم فى التدرج بشأن الأحكام التى تتعلـق بالحيـاة ومعاشها.

واستمر الرق زمناً طويلاً فى العالم،وكبقية العـالم سـايرت الشريعة الإسلامية قواعد زمنهـا، فعرفـت رق الغـزوات والسرايا والفتوحات، كمـا عرفـت رق البيـع والشـراء، وتراكمت بها الأبواب الطوال التى استغرقت مساحات كبيرة فى موسوعات الفقه الإسلامى التى تناولت بالتفصيل الـدقيق كل شاردة وواردة تتعلق بشئون الرقيق.

والمعلوم أنه كان للنبى (ص) عبيـده، كـذلك للخلفـاء الراشدين والعشرة المبشرين بالجنة وأئمة المسلمين وعامتهم. وانقسم المجتمع الإسلامى عبر قرون طويلة إلـى طبقـات: طبقة الرجال وطبقة النساء،ثم طبقة الأحرار وطبقة الأرقاء. ولم تكن هناك مساواة فى الحقوق بين هذه الطبقات خلال هذا التاريخ،وكان الأرقاء فى عداد الأموال والحيوانات،يشـترون ويباعون ويورثون دون حقوق البشر الأحرار، كذلك كانـت الإماء للمتعة الجنسية دون حقوق الزوجات الحرائر.

وخاضت البشرية نضالاً طويلاً حتى تمكنت من إلغـاء الرق بل وتجريمه عالمياً وإنسانياً وحضارياً بقوانين مدنيـة وضعية يحلو للبعض تسميتها بالقوانين العلمانية.

لقد بدأ الإسلام بالتحبيب فى العتق والتحـريض عليـه، وضرب أمثلة فى تدرج أحكامه كما فى أحكام الخمر، ليعطى الدرس حتى يتغير المؤمنون به عند تغير الظـروف، لكـن الأمة جمدت ولم تع الدرس العظيم حتى سبقها الآخرون إلى إلغاء الرق، وهكذا لم يعد بالإمكان تفعيـل أحكـام الآيـات القرآنية بشأن العبيد وملك اليمين فى هذا الـزمن، ففـرض

الواقع بتغيره إيقاف العمل بأحكام هذه الآيات بعد أن ارتقت البشرية عن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

وهنا تقاطعت لدينا قضية المرأة مع قضية الرق، فقمنا نطالب أهل الاختصاص باجتهاد مماثل لاجتهاد الفاروق عمر، اجتهاد يضع المرأة فى موضعها اللائق إذا أردنا منهجاً نواجه به الأقوياء، وذلك قبل أن يفرض الواقع متغيراته مع حركته السريعة ونظل لا نعى الدرس العظيم فى إسلامنا الجليل.وتفاجئنا الدنيا بما نرفضه، وحتى لا يحدث مع أحكام الآيات التى تتعلق بالمرأة ما سبق وحدث مع آيات الرق وملك اليمين، فهل هذه الأمانى والمطاليب إلا من أجل حريات تضعنا على أول طريق الحريات ومن أجل الحفاظ على مقدسنا من تعطيل أحكامه بالفرض القسرى. حيث يكون الأكرم هو التقدم باجتهاد من علماء الأمة بشأن وضع المرأة يتوافق ووضعها الحالى.

الكارثة أن العالم ألغى الرق وجرمه ولم يتقدم علماؤنا بإعلان وقف العمل بأحكام الرق، بل يتم تدريس تلك الأحكام فى مدارسنا كما سنرى الآن. وعندما طلبنا منهم إعلان وقف العمل بأحكام آيات الرق وفقهه قامت الدنيا ولم تقعد لأشهر وليس لأيام، فى صحف تبحث عن قارئ ولو بإشعال الحرائق فى الوطن. وقد انقسم المهاجمون إلى نوعين، نوع من الباحثين لصحفهم عن قارئ وسوق، وهؤلاء أفصحت كتاباتهم عن جهل مركب «وهو يختلف عن الجهل البسيط» بأبسط معالم الإسلام وقواعده الفقهية. أما الفريق الثانى فكان يعلم جيداً خطورة الأمر وجديته، ومع ذلك أبى الطبع الجامد إلا الجمود.

النموذج الأول لا يعرف الفرق بين الدعوة إلـى إلغـاء آيات «حاشا لله وحاشانا أن نطلب ذلك»، وبين التمنى بإيقاف العمل بالحكم (القاعدة).وإيقاف العمل بأحكام آيات للضرورة والمتغيرات أو النسخ حسب مصالح البلاد وتغيـر الزمـان والمكان أحد المعالم الفقهية الكبرى المحمودة للفقه الإسلامى، وهى من بسائطه المعلومة وتم العمل بها مرات خلال التاريخ الإسلامى زمن صاحب الدعوة (ص) والخلفـاء الراشـدين وتأسست لها القواعد فى علوم الفقـه، واتسـعت مسـاحتها وضاقت باختلاف الفقهاء وأزمنتهم وأماكنهم، ومن ثم فالقول بذلك ليس جريمة تستدعى التكفير إلا ممن وضعتهم الصدفة فى ساحة الكتابة، ومن ثم فلا مجال هنا لترديد ما قال هـذا الفريق لسطحيته وسذاجته الشديدة رغم خطورة ما يكتب فى صحفه.

أما الفريق الثانى فهو ما يشغلنا لأنهم الأزاهرة العارفون الدارسون المحترفون، وهم من يجب أن نسمع لهـم جيـداً. ونبدأ بالدكتور عبد الصبور مرزوق الذى ظل ردحاً طـويلاً من الزمن على رأس رابطة العـالم الإسـلامى، ونسـمعه يخاطبنا ساخراً من مطلبنا: «هكذا يطلب أخونا إلى رجـال الدين أن يعلنوا عدم العمل بآيات الرق فى القرآن الكريم كده خبطة واحدة؟؟ لماذا يا رجل؟ أنسـيت أن موضـوع الـرق والاسترقاق كان أبرز أهم تعاملات الإنسان فى القديم؟ وأنـه بهذا معلم تاريخى فى سلوك الإنسان له خطره المدمر ومـن ثم لا يصح تجاوزه».الشيخ يرى أن موضوع الـرق يجـب استمراره لأنه كان سائداً عند الإنسان القديم من باب تحنـيط التاريخ فقط!! وأبداً لم يتطرق للفرق بـين الحكـم والآيـة،

وتقريباً لم يقل شيئا له أى قيمة ولا معنى رغم كل التعـالى والترفع.

لنر إذن موقفاً آخر من القضية، وهـو موقـف واضـح صريح فصيح لم يلتف ولم يداور وإنما قالهـا سـافرة،فيقول الدكتور صلاح غانم: «لابد من وجود الرق مادامت هنـاك حرب وإلا سوف يستمر القتل، ويصبح كل من كان أسـيراً ولم يقدم فداء نفسه وجب عليه القتـل.. وبالتـالى لا يمكـن تحريم الرق لا وقت رسول الله ولا بعد رسول الله ولا إلـى قيام الساعة»، فهذا رجل لا يشغله أن يصـل صـوته إلـى المحافل الدولية ونحسده على جرأته.

أما الدكتور عبد المعطى البيومى فقـد وجـد التبريـر المعاصر لاستمرار العمل بأحكام آيات الرق فقـال لا فـض فوه: «وبقاء الآيات القرآنية فى الرق مثل غيرها من الآيات كضمان لتغيير موقف القوى العالمية. ونحن نرى أن أكبـر القوى العالمية الآن تتنكر للمواثيق الدولية فى كل يوم. فماذا لو تنكرت لميثاق تحرير العبيد؟ إن موقـف القـرآن يمثـل ضمانة للحرية، فنحن مع إلغاء الرق طالما احترمـه الغيـر [لاحظ أن الدكتور بذلك وافقنا على إيقـاف العمـل بأحكـام الآيات،« فإذا لم يحترم الغير ميثاق الحرية فكتابنا جاهز باق ليفصل لنا كيف تكون معاملة من يتنكرون للمواثيق الدولية».

الرجل الطيب مع إلغاء الرق لكنه مع اسـتمرار العمـل بأحكامه فى فقهنا فربما عادت القوى العالمية الكبيرة للعمـل بنظام الرق، وهكذا تكون لدينا أحكام الرق عندما نتمكن مـن

هزيمة تلك القوى العالمية الكبرى ونسبى رجالها ونسـاءها (؟!). وهو ما يذكرنا بالملحة الفكهة المصرية الواعية التـى تقول إن دولة صغيرة فقيرة أصابتها مجاعة شديدة فـاجتمع حكماؤها للبحث عن حل، فقال حكيم: الحل أن نعلن الحـرب على أمريكا وطبعاً أمريكا ستهزمنا وتحتلنا وفى هذه الحـال ستكون مضطرة لتوفير الطعام لنا. فرد عليه حكيم آخر لـه حكمة الدكتور البيومى متسائلاً:وافرض أننا هزمنـا أمريكـا فمن أين سنوفر لها القوت؟!

أما الدكتور محمد رأفت عثمان الأستاذ بجامعة الأزهـر فوقف يعلن احتجاجه لقولنا أن الفقه الإسلامى يضع الرقيـق فى صف الحيوان ليعقب: «وقوله أن نفقة الرقيق تتساوى مع نفقة البهائم لا صلة له بالإسلام»[1]. هذا رغم أن ذلـك يـتم تدريسه فى أحكام النفقة للصف الثالث الإعدادى (أزهـرى) فتتساوى المرأة (أم الولد) مع الرقيق مع البهائم أو بـالنص: «ونفقة الرقيق والبهائم واجبة فمن ملك رقيقاً أو عبـداً أو أم ولد أو بهيمة وجب عليه نفقته». وفى شروط القصاص نجـد النص يشترط «ألا يكون المسلم أنقص من القاتـل بكفـر أو برق فلا يقتل مسلم بكافر حربياً كان أم ذمياً أم معاهـداً ولا يقتل حر برقيق». وفى أحكام الدية نقرأ النص «ودية الـذكر من اليهود والنصارى والمستأمن والمعاهد ثلث دية المسـلم،

---

[1] وردت كل هذه الأقوال فى عدد صحيفة العربى الناصرى الفاشستى الصادرة فى ٩٨/٣/١٦ وفى عدد صحيفة صوت الأمة الصادرة فـى ١٩٩٨/٤/١٩.

ودية المرأة الحرة والخنثى نصف دية الرجل الحر الموافـق لها فى الدين». النص هنا علا بشأن المـرأة درجـة عـن الرقيق، فلا يقتل حر برقيق لكنه يساويها بالخنثى وهى حرة فيعطيها نصف دية الذكر الحر، ثم إن ديتها أعلى مـن ديـة الذكر المسيحى (؟!).وفى شأن معاملة الأسرى يقول الدرس الذى يدرسه طلابنا فى هذا الـزمن «إن إسـلام الكـافر لا يعصم زوجته عن استرقاقها ولو كانـت حـاملاً» **(**جمعـه الأستاذ رضا البهات من كتاب تقريب فتح القريب**)**.

هذه اعتراضات رجال الأزهر على أمـانى ومطاليـب تخرج بنا من العصور الوسطى، وهذا مـا يدرسـه رجـال الأزهر لأولادنا وبناتنا، ثم نتساءل من أين أتـى الإرهـاب؟ ويبحث الدكتور مصطفى محمود عن مصدر الإرهاب فـلا يجد سوى مؤامرة الأعادى الحاقدين على الأمة فيقول: «وما تلك الأصولية التى تدفع بالمسلم ضد المسلم إلا فتنة رسـمها الأعداء بعناية وأنفقوا عليها بسخاء»، لكن هل هؤلاء الأعداء هنا بالداخل أم بالخارج؟ ! هذا بينما يستمر الكتاب الأزهرى يعلم أولادنا وبناتنا قائلا: «للجهاد حالان أحدهما أن يكـون الكفار فى بلادهم فالجهاد فرض كفاية». وسبق وقال: «ولا يقتل مسلم بكافر حربياً كان أم ذمياً» فالكفرة نوعـان **مـنهم الذمى فى بلادنا**، ثم نندهش لموقف الإرهاب من المسيحيين؟

لقد قدم الإسلام العظيم دروسه، وأكد تدرجه فى أحكامـه وتركها بين أيدى أهله المؤمنين به فهل تشير تلك اللوحة إلى أن أهل الإسلام قد وعوا الدرس؟ ...

«رنا إلى علمنا أنه بعد المعركة التى أثارها حديثنا بشأن أحكام الرقيق، أصدر الشيخ الدكتور سـيد طنطـاوى شـيخ الجامع الأزهر توجيهاته برفع المـواد المقـررة بالمعاهـد الأزهرية بشأن الرق من المناهج».

دروس الوحى(*)

عندما يختلف الناس حول قضية من قضـايا الثقافـة أو الإبداع الفكرى أو الفنى أو حول أمور علمية بحتة أو حـول رؤى بحثية، نجد كلاً منهم يحاول أن يقدم ما لديه من شواهد وقرائن وأدلة واستنباطات وبراهين وتجارب لتأييـد موقفـه ووجهة نظره، وقـد يختلفـون اختلافـاً كبيـراً، لكـنهم لا يصادرون رأى بعضهم البعض، بل يسـلمون فـى النهايـة بالرأى الصواب الذى حاز البرهان والحجة المقبولـة مـن الجميع،لأن مثل هذه القضايا تخضع لمنهج واحد يتفق عليـه الجميع هو منهج البحث العلمى. بل قد يلجأ المختلفون إلـى الاستعانة بآراء بعضهم البعض دون غضاضة، ولا يـرون الآخر المختلف عدواً نقيضاً بقدر ما هو مكمـل ومضـيف ومتمم، من أجل الوصول إلى الحقيقة المرجوة.

لكن فى بلادنا لا تعرف الاختلافات هذه الأصول وتلـك القوانين والآداب، لأن الأغلبية لا يقرون بأصـول المـنهج العلمى فى البحث والاختلاف، وهى الأصول التى تؤدى إلى اتفاق الجهود باتجاه الغرض، والوصول إلى نتائج يتفق عليها الجميع.

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/١١/٩ العدد ٣٦٧٤

وعندما يمس الاختلاف شأناً من شئون التقديس الأيديولوجي أو الدينى أو السياسى أو الأسطورى، نبقى فى مساحة الرأى المختلف حوله وليس مساحة قواعد المنهج العلمى التى لا يختلف حولها. علماً أن الرأى يرتبط عادة بالهوى والمزاجية والمصلحة الخاصة والعاطفة أكثر مما يرتبط بالعقل والعلم والمصالح العامة، وربما يكون صاحب الرأى صادق النوايا لكنه عندما يعمل المزاج والهوى والمصلحة الخاصة يخرج من ساحة العلم إلى ساحة الخلاف غير المنتج، ويؤدى منهج الرأى إلى عدم اتفاق أبدى وخلاف لا يلتقى، تصحبه عادة الرغبة فى إلغاء الرأى المخالف بل ومحوه محواً.

ومع الرأى والهوى والعواطف يتم مزج الرأى المخالف بصاحبه مما يحمل على البعد عن الموضوعات المختلف بشأنها إلى الأشخاص،وينتهى الأمر بالتكفير والتنفير الوطنى والدينى والطعن فى الشرف والنزاهة وطهارة اليد إلى آخر هذه القائمة من مصطلحات.

والخلاف الناشب اليوم يمكن تصنيفه بين طرفين بينهما درجات متفاوتة، الطرف الأول محافظ تقليدى مردد بحجة الأصالة والحفاظ على الذات من الذوبان فى الآخر المخالف المعادى بالحفاظ على المأثور كما هو وكما كان، والطرف الآخر يحاول الانتقال بالفكر والسلوك والوعى إلى مستوى التفاعل مع المتغيرات الجديدة والتكيف معها، دون أن يكون بالضرورة ضد الهوية أو ضد الحفاظ على المأثور. حيث نجد كثيراً من المعتدلين المجددين يسعون إلى الجديد عبر القديم، وبالاستناد إليه والتمسك به، ويؤكدون أن ذلك التجديد

من باب الحفاظ على القديم والحرص عليـه مـن الجمـود والانغلاق فالضياع. إذ تؤكد دروس التاريخ أنك عندما تهمل حركة الواقع ترتكب خطيئة يكون عقابها أن يتجاهلـك هـذا الواقع. وهذه قوانين الكون ونـواميس الطبيعـة والوقـوف ضدهايعنى الخروج من التاريخ بل ومن الوجود، وإن بقـى بعضها فإنه يصبح علامات على حقب تطور ماضية رفضت التكيف وقاومته لعلل وأمراض ذاتية، فانتهت إلى حفريـات حية تردد: « هذا ما وجدنا عليه آباءنا» فآل أصحاب القول إلى تاريخ مضى ينعته المؤرخون بالجاهلية.

وإعمالاً لهذه المعانى نعود فنؤكد أن الإسلام دين متحرك حى، وأن نصه المقدس نص مفتوح يقبل تعدد الأفهام حولـه وتغيرها بحركة الزمن المتغير وانتقالها عبر المكان. وبهـذا المعنى وحده يصح القول بصلاحية النص المقدس لكل مكان وزمان، وليس بتثبيته عند معان بذاتها وتفاسير بعينها عنـد الأسلاف، مرت عليها أزمان وتغيرت أحوال، كما لو كـان حق التفكير قاصراً فقط على الأموات.

إن الصلاحية للزمن والمكان ليسـت بتحويـل الـنص المقدس إلى كتلة جامدة نستخدمها تعاويذ وتمائم نستمطر بها اللعنات على من تفوقوا من أعادى، لأننا جمـدنا نصوصـنا وتفكيرنا ولم نتحرك مثلهم. ولم يعد بيدنا سوى العودة إلـى الزمن السحرى عندما كانت الكلمات تحرك الجبال وتشـفى الأمراض، فقمنا ندعو عليهم رب السماوات لإفنائهم، وهـو النموذج المضحك المبكى الذى قدمه الدكتور حسن الترابـى فى السودان بعد ضرب الأمريكان لمصـنع الشـفاء، فـدعا الشعب السودانى عبر أجهزة الإعلام لتكريس أسبوع كامـل

للدعاء على الأمريكان تحت شعار أسبوع الدعاء المسـتجاب (؟!).

والمصيبة أن من جمد النصـوص وأدى إلـى تكلـس جماعى فى عقل الأمة هم أهلهـا ولـيس أعـداؤها، رغـم الدروس الواضحة التى قدمها القرآن الكريم وقدمتها أحـداث زمن النبوة لأتباع الدعوة وأهلهـا. وأهـم تلـك الـدروس الواضحة الناصعة الكاشفة التى لا يختلف حولها عاقـل، أن القرآن الكريم لم يأت دفعة واحدة وكتلـة واحـدة متكاملـة مصمتة. وكان الله قادراً على إنزاله لنبيه دفعـة واحـدة أو تسليمه إياه مكتوباً وينتهى الأمر، كما حدث فى ألواح موسى وصحف إبراهيم. لكنه لم يفعل إعمالاً للحكمة الإلهيـة فـى الكون وفى التاريخ، لأن محمداً خاتم الأنبيـاء والمرسـلين وليس هناك نبى أو رسول بعده، وهو ما يعنى ختام تواصل السماء مع الأرض بالرسالات، وهو أيضا ما يعنى وجـوب إيضاح الدرس الأخير للبشرية، درساً عملياً نهائياً واضـحاً، تمثل فى مجيئ آيات القرآن الكريم مفرقة على مـدى زمـن طويل هو عمر الدعوة(حوالى ثلاثة وعشرين عاماً كاملـة). فجاء الوحى متفاعلاً مع واقع الزمن حينذاك فجـادل النـاس وتغيرت أحكامه بتغير أحداث هذا الواقع حـين كـان يلـزم التغير، وتبدلت عندما تحرك الواقع فلزم التبـديل والتغييـر. حتى يعمل أتباعه ومن آمنوا به وحملوا أمانتـه مـن بعـد، ليغيروا فهمهم عندما تتغير الأحوال،ويبدلوا أحكامهم ليتكيفوا مع ظروف الزمن، فيظلوا متجددين بفكر متجدد.

إن أول من لم يع هذا الدرس الكـونىولم يفهمـه هـم الجاهليون، فعمدوا إلى السخرية منه وتندروا من هذا المنطق

التطورى التاريخى الذى يوافق نواميس الكون وقوانين الخلق والطبيعة، فقالوا: «ألا ترون إلى محمد يأتى أصحابه بـأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه؟ ويقول اليوم قولاً يرجع عنه غداً؟». فكان رد الآيات الشارح البليغ: «وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بـل أكثـرهم لا يعلمون /١٠١/النحل».

الوحى هنا يؤكد أن الله هو الذى يعلم بما ينزل، لأنه هو من خلق الكون، وهو من وضع له قوانينه، والله لا يخـالف قوانين هو واضعها لأنه الأعلم بها، ومن لا يفهمـون هـذه السنن والقوانين وصفتهم الآيات بالجهل فأكثرهم لا يعلمون. ومن هنا جاز للوحى أن يطور أحكامه بشأن قضايا عديـدة مثل قضية الخمر وقضية الميراث وموقفـه مـن أصـحاب الديانات الكتابية. لكن كان طبيعياً أيضاً أن يقف بأحكامه عند ظروف زمن الدعوة وواقعها ليتوافق مع الواقع، كما وقـف بأحكام الرق ووضع المرأة عند مفاهيم ذلـك الزمن،وتـرك الدرس لأتباعه من بعد ليتحركوا ويتغيروا ويتفـاعلوا مـع الواقع عندما يتغير ويتبدل.

واستمرت الآيات تتغير وتتبدل فالله صاحبها وصـاحب الكون وقوانينه ويعلم ما يفعل (أعلم بما ينزل)، فرفعت آيات وأُنسيت آيات ونُسخت آيات «ما ننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مثلها /١٠٦/البقرة». بل ومحيت آيات «يمحو الله ما يشاء ويثبت/٣٩/الرعد». وهـو مـا يعنـى أن روح

القرآن فى موافقته لنواميس الكون، وأن الدرس بمتابعة هذه الروح والتطور مع المستجدات لصالح البلاد والعباد.

وقد وعى المفكرون المسلمون الأوائل هذه الحقيقة وأدركوا حكمة النسخ والتبديل، وخشوا أن يأتى قوم ينكرون هذه الحقيقة، فقال ابن عباس فى قوله تعالى: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً» قال: «الحكمة هى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه»، وأورد أبو جعفر النحاس القول: «فمن المتأخرين من قال: ليس فى كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ.. وهذا القول عظيم جداً **ويؤول إلى الكفر»**.

ولأن النسخ والتبديل يتعلق بمعاش الناس، ولأن هذا المعاش متغير، ولأن منصب القضاء يجب أن يراعى ذلك التغير، قال الإمام على لقاض: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت».

وكان من نفاذ البصيرة أن يدرك أوائل المسلمين حقيقة ارتباط حكمة النسخ بالتغير حسب مصالح البلاد والعباد،ونموذجاً لذلك ما أكده الإمام الألوسى فى قوله إن الناسخ «لابد أن يكون مشتملاً على مصلحة خلا منها الحكم السابق، لما أن الأحكام إنما تنوعت للمصالح، وتبدلها منوط بتبديلها حسب الأوقات فيكون الناسخ خيراً منه فى النفع، سواء كان خيراً منه فى الثواب أو مثلاً له أو لا ثواب فيه أصلاً».

كذلك أدركوا أن درس نزول الوحى مفرقاً متفاعلاً مع الواقع، يعنى وجوب التغيير كلما جد جديد، وهو ما يدل عليه قول الإمام الزمخشرى: «والله تعالى ينسخ الشرائع لأنها مصالح، **وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصالح**. وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً.. والتبديل من باب المصالح كالتنزيل، **وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة فى خروجه عن الحكمة»**.

[انظر: السيوطى: الإتقان فى علوم القرآن، المكتبة الثقافية، ص ٢٠، وأبو جعفر النحاس: الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم، ص ١،٣، والزمخشرى: الكشاف، ٤٢٨/٢ ، والألوسى: روح المعانى ٣٥٣/١٢].

لكن رجال الاحتراف الدينى وحلفهم غير المقدس مع المنظومة السياسية وسلاطينها عبر تاريخ وظروف ومصالح ومنافع خاصة ضد مصالح البلاد والعباد، جمدوا العقل وفهم النص المتحرك، ولازال رجالهم اليوم على الحال نفسه لا يقبلون للأحكام المتعلقة بمعيشة الناس تغيراً فى الفهم بتقلب الأحوال وتغير الأوقات، متمسكين بالمنطق الذى قال فيه الله تعالى: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة /٣٢/الفرقان».

لكن الله لا يخالف نواميسه، وإرادته أن يتعلم خليفته فى الأرض مراعاة تلك النواميس، لذلك أكد للمؤمنين بهذا الدرس أن الحكمة الكبرى كانت فى عدم نزول القرآن دفعة

واحدة، حتى لا يثبت الناس عند حرفيـة نصوصـه، فقـال تعالى: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلاً /١٠٦/الإسراء»، صدق الله العظيم.

نقد منهج الدولة(*)

لازلنا نحاول العثور على مناطق الضعف فى مناهجنا، التى أدت بنا إلى تراجع حضارى كامل، وتخلف فارق بيننا وبين دول العالم المتقدم، وانتهت بنا إلى متتالية كبرى من الهزائم والتراجعات، مع استمرار احتلال أراض عربية من عدو جاءها شتاتاً من أنحاء العالمين، فانتهى قوة كبرى تخطب دول العالم وده، وذلك بفضل مناهجنا فى التفكير على كل المستويات.

ومرة أخرى نقوم بتبيان خريطة تصورنا لموقفنا الذهنى المنهجى إزاء الأحداث التى جرت فى منطقتنا، للتنقيب وراء أسباب الضعف لتجاوزها إذا أردنا مكاناً بين الأمم. حيث تم تكييف ما نقدمه من نقد ذاتى لمناهجنا بحسبانه تهجماً على الأمة وثوابتها، وتوصيفه بأنه يصب فى النهاية فى خانة العداء لها. وهو التفسير الذى يؤكد كل ما قلناه فنحن قوم لا نقبل نقداً ويضيق صدرنا بالحق ونحب مدح الذات حباً جماً إلى حد المبالغة بل والنرجسية المرضية، وتركبنا عصبية العنتريات إذا كشف لنا أحد عن عيوبنا وخروقنا، وتصبح محاولات الإصلاح فى نظرنا تحالفاً مع أعداء الأمة الذين يتربصون بها الدوائر. غير مدركين أن مواجهة الاحتلال

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/١١/٢٣ العدد ٣٦٧٦.

الإسرائيلى للأرض، لا يمكن أن ينجح بالمواجهة العسـكرية وحدها، إنما أولاً بالعلم والثقافة والتحضر.

إن الخطوة الأولى فى علاج السقم والعلـل أن يعتـرف المريض أنه مريض وأنه وبحاجة للعلاج. يجب أن نعتـرف بأننا شعوب مهزومة ومتخلفة تستشرى فيها الأمية المعممـة والأمية الثقافية، ويجب أن يأتى هذا الاعتراف عـن قناعـة وببساطة، ولا ندفن رؤسنا فى أوهام تضخم الذات المرضى، حتى نجد لعللنا علاجاً ولحالنـا صـلاحاً. وبـذات الهـدوء والبساطة يجب أن نعترف أننا نعانى من تخلـف حضـارى كامل، حتي بات نصيبنا صفراً كبيراً فيما تقدمه شعوب العالم يومياً من ألوف الاكتشافات والاختراعات التى تعمق الهـوة بيننا وبين المتقدمين كل ليلة، بل كل سـاعة دون مجـاز أو مبالغة.لأن التقدم لن يكون بغير العلم الذى يصـوغه العقـل البشرى ويبدعه الإنسان بالمنهج العلمى وحده.

والعلم يحتاج إلى تربة يبذر فيها ويروى لينمو بتـدريب العقل على المنهج العلمى فى التفكير، وليس منهج الانتظـار البليد لحدوث المعجزات وعودة الأساطير الحفريـة. وبـذرة العلم هى منهجه أما تربته التى ينمو فيها فهى مناخ الحريات الكامل، الذى لا يعرف الوقوف فى أحكامـه بـين الحـلال والحرام وبين الإيمان والكفر، قدر ما يقف بـين الصـواب والخطأ العقلى على مستوى التفكير والمنهج العلمى، وبـين المصالح والمنافع المرجوة على مستوى الفعـل والسـلوك، حيث أصبح من غير الممكن اليوم لعقـل جاهـل ومتخلـف وعدوانى أن يعارك معارك هذا الزمن، بعد أن انتهى عهـد السيف والخيل بل والدبابـة والمدرعـة والمـدفع والكثـرة العددية، وأصبحت الحرب تُدار الآن من داخل الغرف مكيفة

الهواء، كما لا يمكن لإنسان قد انتقصت حريته ومواطنته أن يحرر أرضاً أو يبنى وطناً.

والحريات الكاملة تعنى ديمقراطية كاملة غير منقوصـة، لتغييب المناهج الفاشية فى التفكيـر، التـى لـن تغيـب إلا بالاعتراف بالتعددية المؤدية إلى التكامل. وهو التكامل الذى لا ينفى التعارض بقدر ما يعنى أن الـرؤى المتعارضـة لا تنفى بعضها، أو أن أحدها صحيح مطلقاً والآخر باطل، لأنها جميعا فى النهاية رؤى بشرية. ومن ثـم تصـبح ممارسـة الاعتقاد السياسى أو الدينى عملاً حراً إرادياً طوعياً، تفـرزه قناعة الناس وليس الإكراه أو غسيل الأمخاخ المبرمج. وهذا يعنى عدم وقوف مؤسسات الدولة إلى جـوار عقيـدة دون أخرى، فعلى كل عقيدة أن تبرز بقواها الذاتيـة دون عـون الدولة التى تفسد المساواة بينهما إذا ساعدت إحـداهما علـى الأخرى. وفى الوقت ذاته، وحتى تكون هنـاك ديمقراطيـة حقيقية، يجب على مؤسسات الدولة أن تقف ضد كل ألـوان الشمولية التى تزعم الطهارة المطلقة والوطنية المطلقة والحق المطلق، حيث الديمقراطية نصاب سياسى يقوم على مبـ ـدأ المواطنـة لا الأيـديولوجيا ولا العنصـر ولا الجـنس ولا الدين.والمواطنة مبـدأ لا يقبـل التجزئـة أو الانتقـاص أو الحصر، لأنها ملك الجميع حيث الوطن وطن الجميع.

وهنا لا يمكن الحديث عن ديمقراطية فى ظل سيادة منهج طائفى واضح كامل على مستوى الإعلام والتعليم، حتى أنـه أحياناً يقف وراء اتخاذ القرارات السياسـية. والملاحـظ أن الخطاب السائد خطاب طائفى متعصب يضع المسلم خـارج التاريخ فلا يعيش عالمه ولا يتصالح معـه أو يتكيـف مـع

جديده، بل يريد تغيير العالم كله ليتفق مع وجهة نظره.وهـو المستحيل الذى أدى بنا إلى حيث نحن الآن، بعـد أن ظللنـا زمناً نطلب من العالم موافقته على ما نطلب نحن إزاء قضايا كبرى مصيرية، وتوهمنا امتلاك قدرات القوة القامعة لإقناعه بمطالبنا، وعاندنا العالم بعنتريات خطابية انتهت إلى كوارث كبرى، دون أن نعمل حسابنا بين الممكن والمستحيل.

وإذا كنا نطلب من العقل الجمعى الاعتـراف بنواقصـه وأخطائه، فيجب من جانبنا أن نعترف بخلل يعتـور مطلبنـا بالحريات الكاملة والديمقراطيات غير المنقوصة، ففى ظـل مناخ التجهيل العام السائد، ومع مطلب تطبيق الديمقراطيـة السياسية الفورى، فهو ما يعنى أن من سيصلون إلى السلطة بالانتخاب الحر هم ألد أعداء الحريات وأشد أنصار الرجعية وأكبر أنصار الفاشية. الـذين يسـتخدمون لاءات الحريـة والديمقراطية لا عن قناعة حقيقية، لكن كوسيلة فقط إلى غاية السلطة وساعتها يكون لكل مقام مقال ولكل وقت أذان.

فمجتمعنا لم يزل قبلياً عشائرياً طائفياً يذهب فيه صـوت المواطن الجاهل بالحريات وبالمواطنة ناهيك عن الأمى إلى حليفه فى القبيلة أو الطائفة الدينية أو الأيديولوجيا، ولا يذهب إلى من يمكنه الحفاظ على الديمقراطيـة ومصـالح النـاس والوطن.هـذا رغم أن ذات الجماهير فى ذات الوطن كانـت قد بدأت تجربتها الليبرالية بنجاح واضح عبر ثلاثـين عامـاً انتهت بحاف العسكر والعمائم فى يوليـو ١٩٥٢، ممـا وأد التجربة الوليدة بعد تكريس الإعلام والتعليم الموجه للواحدية الفاشية الشمولية العنصرية الطائفية، حتـى عـاد الشـارع المصرى إلى زمن التفكير أيام المماليك.

ومن هنا لا نجد بأيدينا لتحقيق الأمل كى يعيش أولادنـا كراماً فى وطن كريم سوى القنـوات الشـرعية، وتوجيـه الخطاب لسلطات الدولة ومؤسساتها كلما كان ذلـك ممكنـاً، لبيان الأخطاء فى مناهجها، لأننا لا نستطيع أن نكون ضمن قافلة مداحى الدولة المنتفعين، ولأننا لا ننتمى إلى حـزب أو جماعة أو مؤسسة، حفاظاً على حق القـول دون حسـابات لأحد، سوى وجه الوطن. لهذا نوصل للدولـة ومؤسسـاتها رسالة واضحة تؤكد أن الشارع لن يحترم قانوناً لا يشـارك فى صياغته حقاً، ولن يحترم قانونـاً يكسـره المتسـلطون والمتنفذون، ولن يتحالف مع الأمن ضد الخارجين عليه طالما ظل حضرة الضابط متسلطاً مترفعاً فاشياً قاسياً لا يرحم.

فمطلبنا نضال بالكلمة وبالحجة تحت مظلـة الشـرعية، وهو ما يؤدى فى النهاية إلى احترام الدولة ذاتها وسـلطاتها. لأن الواضح «فى ظل السـماح الـديمقراطى» أن جهـاز السلطة لم يعمل إطلاقاً حتـى الآن علـى ترسـيخ مفـاهيم الحريات الليبرالية فى الواقع حتى تكون الجمـاهير درعـاً لدولتها صونا للحريات. وإنما حدث العكس فزايدت مؤسسات الدولة علىالإسلام السياسى والطائفية مما أفرز فى النهايـة إرهاباً طائفياً مسلحاً يضرب مصـالح الـوطن الاقتصـادية وينتقص من هيبة الدولة أمام مواطنيها وأمام العالم.

ومع تفاقم مشكلة الإرهـاب ركـزت أجهـزة السـلطة مواجهتها على المستوى الأمنى وحده مما أدى إلـى تفـاقم متتالى يخبو مرة ويطل برأسه مرة فى مجازر مفاجئة أحياناً. بينما يستمر منهج مؤسسات السلطة فى إفراز المزيـد مـن الفاشيست المتعصبين عبر أجهزة تثقيفها العامة. هـذا رغـم تطوع كثير من المفكرين غيـر المسيسـين طـوال زمـن

المواجهات الأمنية بإسداء النصح وتأكيد أن المعركة مع الفاشية هي معركة ثقافية فى المقام الأول وليست فقط مواجهات أمنية.حيث مسئولية وزارة الداخلية هى حفظ الأمن ومنع الجريمة والحفاظ على النظام العام، أما مواجهة الفاشية فهى مسئولية الفكر المدنى الذى غيبته ساحة الإعلام والتعليم من ساحتها تماما. وسمحت للفكر الأحادي بالمساحة كاملة.

فعلى مستوى الإعلام أصدر مجلس أمناء اتحاد الإذاعة والتلفزيون قراراً يفرز الفن الكافر من الفن المؤمن فى قوله: «أن تراعى البرامج والدراما أن مفهوم الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى يجب ألا ينظر إليه فقط من منظور فلسفى واعتقادى لكن يتعين ترجمته إلى سلوك يشمل كل مجالات الحياة، وأن الإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره».

وإعمالاً لذلك فتحت ساحات الإعلام أبوابها لمجموعة من المشايخ يفتون فى كل أمر،ويتحدثون حتى فى العلوم المتخصصة بكثير من الجهل المضحك، وهو ما أدى لتلميع مشايخ التطرف وأساتذة الخرافة. وفى وقت كانت ماكينة التطرف الدموى والفتنة الطائفية تطحن قلب الوطن، كان التلفزيون يسمح للمرحوم الشيخ الشعراوى كى يجلس سنوات داخل كل بيت يكفر ويسفه عقيدة نصف الأمة، حتى انتهى الأمر بإحكام السلفية قبضتها على كل تجليات السلطة والقانون ومناهج الناس والرأى العام والقيم. وهو ما يعنى فى رأينا أن المنهج الذى مارسته وسائل الإعلام كان أحد المنتجين الكبار للإرهاب فى مصر، والعامل الأعظم فى تفشى الأمية الثقافية المعممة، وتلاشى الفكر الليبرالى وانزوائه فى صالونات المثقفين الديمقراطيين.

وبين أحاديث المشايخ المحترفين، والحوارات، والفتاوى، والتفاسير، والعلم والإيمـان، والحـيض والنفـاس وطاعـة الزوجات للأزواج لم نطالع مرة واحدة قس مسـيحى يعـظ أبناء طائفته عبر شاشة تلفازنا المبارك، كما لو لم يكن فـى مصر غير المسلمين. ولوضع حصوة فى عين المعترض أو المحتج تتم إذاعة قداس الأحد من محطة إذاعة جانبية غيـر مسموعة، مع إذاعة الاحتفاليات السنوية التـى يـتم إلغـاء إذاعتها إذا توافق موعدها مع احتفالية إسلامية. هذا رغم أن التمويل الضرائبى لهذه الأجهزة يأتى من جيوب المسـلمين والمسيحيين على السواء.

وفى المقابل نجد فى بلاد الغرب التى يحلو لبعضنا نعتها بالبلاد الكافرة مثل سويسرا التى تطبـق المبـادئ المدنيـة كمظهر للرقى الحضارى الذى يحتـرم كافـة العقائـد دون تمييز، تتم إذاعة صلاة الجمعة علـى قنـاتين مـن قنـوات التلفزيون السويسرى احتراماً لبضعة ألوف مـن المسـلمين الوافدين وأغلبهم من غيـر المـواطنين ويشـكلون عمالـة متواضعة طبقياً.

أما على مستوى التعليم فالمصيبة أعظم، نضرب منهـا فقط الأمثلة، فالطالب المسيحى يدرس فى نصـوص اللغـة العربية والمحفوظات نصوصاً قرآنية وأحاديث نبوية ويؤدى فيها امتحان نجاح أو رسوب مع أخيه المسلم، بينما التلميـذ المسلم لا يعلم شيئاً عن عقيدة أخيه المسيحى وشـريكه فـى الوطن والجوار والمعركـة والرخـاء والجـوع والسـراء والضراء.

وكى يتم تدريس التربية المسيحية لأهلها تم تخصـيص فصل فى معظم المدارس الحكومية للمسيحيين فقط ممـا أدى

إلى انفصال مخيف بين أبناء الوطن منذ نعومة أظافرهم مع نفور وكراهية متبادلة كان طبيعيا أن تفـرز إرهابـاً وفتنـاً دموية.

هذا ناهيك عن كون المواد الدراسـية نفسـها تكـرس للإرهاب والفتنة بل وتحرض ضد الدولة والقـانون، فنقـرأ مثلا ما جمعه الدكتور كمال مغيث من هذه المواد، كما فـى قول كتاب التربية الدينية للصف الأول الإعدادى: «إن الناس الذين يعيشون فى مجتمعات يتولى فيهـا البشـر التشـريع، ويعيشون بمناهج غير منهج الله، يقعون فى عبوديـة العبـاد وهذا منتهى الذل والإذلال». ولا يقف الأمر عند هذا الحـد، بل يمتد إلى تكريس العداء والفتنة الطائفية ضد إخوتنا فـى الوطن فيقول كتاب الدين للصـف الثـانى الإعـدادى: «إن أصحاب الديانات السابقة قد حرفوا رسالات الأنبياء ونسـبوا إلى الله ما لم يقله وأضاعوا خاصية التوحيد وأصبح التصور الإسلامى هو التصور الوحيد الذى بقى قائماً على التوحيـد الخالص».

وفى كتاب الصف الثالث الإعدادى للتربية الدينية نقـرأ قراره بأنه لا دين يقبله الله سوى الإسلام ومن لا يؤمنون به يعلمون الحقيقة لكنهم لا يؤمنون عناداً ومكابرة وضلالاً لذلك على التلاميذ تغيير هذا المنكر بأيديهم عنفاً كما كسر إبراهيم أصنام قومه وكما نسف موسى عجل بنى إسـرائيل (انظـر ص١٤و٢٦).

ورغم قرار وزير التربية والتعليم رقم ٣٠٦ لسـنة ٩٣ بشأن التعليم الخاص الذى نص على عدم جواز تضمن اسـم المدرسة ما يوحى بأنها لفئة أو طائفة بعينهـا، فـإن تلـك

المدارس تكسر هذا القرار عياناً بياناً بـل وتحصـل علـى تراخيص من ذات الوزارة لأسماء منها: مدرسـة آل بيـت النبى، مدرسة عمرو الفاتح، مدرسة فجر الصباح الإسلامية، مدرسة الشبان المسلمين، مدرسة الدعوة الإسـلامية.. الـخ. «وهو ما يذكرنا بقرارات سـابقة لـوزير الداخليـة برفـع الشعارات والملصقات الطائفية من على السـيارات، واليـوم نجد سيارات الحكومة بل والنقل العام هى مـا يكـتظ بهـذه الشعارات؟!!» وتقوم تلك المدارس الخاصة بتـدريب أرواح البراعم الصغيرة على كراهية أشقائهم فى الـوطن فيشـير كتاب منهاج المسلم الصغير إلى **«الضـالين» فـى سـورة الفاتحة بأنهم النصارى**، وتعلمهم كتبها الأحرف وفق الطائفة فحرف اللام (لحية) وحرف الحاء (حجاب) وهكذا..

إن ما يحدث لا يفصح أبداً عن موقف صادق من قضايا الحريات والليبرالية، ناهيك عن استثمار الدول الكبرى اليوم لمبادئ حقوق الإنسان وخاصة حريـات الـرأى والاعتقـاد والمساواة من أجل التدخل فى شئون الدول الأخرى، وعلـى مائدة الكونجرس هذه الأيام مشـروع قـد يسـمح بالتـدخل المباشر فى الدول الأخرى التى تخالف تلك المبـادئ، فهـلا حرصنا على وطننا ومواطنينا وقمنا بترتيب بيتنا من الداخل حباً فيه وليس خوفاً من آخر. من أجل وطن متماسك وقـوى وحر.

كيف تتحقق الأساطير(*)

الأصوليون اليهود يعتقدون يقيناً أن ما يحـدث للعـراق الآن هو عقاب مؤجل منذ قرون، فحصار العراق اللاإنسانى، وضربها الوحشى، هو التحقيق العملى للنبـوءات التوراتيـة القديمة بشأن حضارة بابل وآشور فى العراق القديم. بعد أن قام العاهل الآشورى (شمال العراق) بـالهجوم علـى دولـة إسرائيل (شمالى فلسطين) ونهب ثرواتها وسبى عشرة أسباط (قبائل) من بنى إسرائيل إلى بلاده، حيـث ضـاعت تلـك الأسباط العشرة هناك وذابت،واختفت من يومها من صـفحة التاريخ والجغرافيا. ولم يمض من الزمن سوى سنوات حتى حذا نبوخذ نصر العاهل البابلى (جنوب العراق) حذو رفيقـه الآشورى وهاجم دولة يهوذا التى كانت تقوم جنوبى فلسطين ونهب المعبد والبلاد، وسبى السبطين الباقيين إلى بلاد بابل.

فى تلك الأيام الغابرة السوالف كـان اليهـود يعيشـون أساطير التوراة ومعجزاتها، وينتظرون تدخل الرب التوراتى (يهوه) فى كل شأن، وكان الدين ورجال الدين هم المرجـع فى كل أمر كبر شأنه أو صغر، ودارت حياتهم بين الحـلال الدينى وحرامه، فضعف شأنهم وهان أمـرهم بـين الأمـم المحيطة بهم، التى كانت تعيش مناخاً آخـر تبـدع وتنـتج

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/١٢/٢٨ العدد ٣٦٨١.

حضارات سامقة.أما يهود فقد انغلقوا على ذواتهم خشية على هويتهم من الضياع وخوفاً من الغزو الثقافى، فعاشوا أساطير لم تغن عنهم شيئاً. ولم يملكوا إزاء قـوة الأقويـاء سـوى استمطار اللعنات السـماوية علـى بابـل وآشـور وإقامـة الصلوات، تلك اللعنات والصلوات التى لم تغير شـيئاً مـن معادلة قوة القوى وضعف الضعيف. ولم يعـد بإمكـان رب اليهود أن يفعل شيئاً لشعبه لأنه أمسى ضعيفاً ضعف شـعبه، ومن هنا تحول الدعاء غير المستجاب إلـى فعـل مؤجـل سيحدث بالتأكيد، فالرب لن يتخلى عن شعبه الذى فضله على العالمين. وتحول الدعاء إلى نبوءات ستحدث فـى مسـتقبل الأيام حيث سيرث أحفاد البابليين ذنوب الآبـاء والأسـلاف حسب القاعدة التوراتية.

وبين تلك النبوءات نبوءة ترد فـى الإصـحاح السـابع والأربعين من سفر إشعيا، حيث يقول إشـعيا لبابـل سـيدة الممالك آنذاك: «انزلى واجلسى على التراب أيتها العـذراء ابنة بابل، اجلسى على الأرض بلا كرسى يا ابنة الكلدانيين، لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفـة.. تنكشـف عورتـك وترى معاريك.. اجلسى صامتة وادخلى فى الظلام يا ابنـة الكلدانيين، لأنك لا تعودين تدعين سيدة الممالك».

كانت بابل توصف بأنها (سيدة الممالك)، لأنهـا تملـك أسباب القوة والتحضر والاقتدار،بينما كانت إسرائيل ويهوذا دولاً ضعيفة لا تملك سوى دعاء رب السماء، فانتهى الأمـر بهما إلى الشتات والضياع من جغرافية المنطقة وتاريخهـا،

لأنهم كانوا لا يطلبون معرفة شيء خارج مقدسهم، فألقتهم حركة الدنيا خارج التاريخ.

وفى الشتات وبعد قرون وتغير أحوال الدنيا، أصبحوا يعيشون فى دول ذات حضارات، فوعوا الدرس، واستخدموا كافة الأدوات الممكنة ليعودوا ويقيموا دولة حديثة مدنية، على غرار أنظمة الدول المتقدمة التى عاشوا فيها. وأخذوا بكل أسباب التقدم والتحضر والعلم والديمقراطية حتى أصبح الدخل القومى «لدويلة إسرائيل كما نحب أن نصفها» يعادل دخل الدول العربية المحيطة بحدودها مجتمعة.

ولهذه القصة التاريخية مقارنة واجبة بقصة تاريخية أخرى ذات شجون. فعندما قامت الإمبراطورية العربية، انفتحت على علوم الدنيا، وسمحت بالتعددية الفكرية، ولم تضع كل أمورها فى دائرة المقدس وحده فأخذت علوم اليونان والمصريين والعراقيين والفرس والهند والصين ولم تر ذلك غزواً ثقافياً، ولم تر فى علوم غير المسلمين كفراً وباطلاً، ولم تصنف العلوم إلى طب إسلامى وطب بوذى، وعرفت أن العلم ليس له وطن وليس له دين، ولم تصف عالما يهودياً بأنه يضع علماً يهودياً كافراً كما نصف بعض علماء الدنيا اليوم، ولا آخر بأنه يضع علماً بوذياً وثنياً، فأصبحت الإمبراطورية الإسلامية سيدة الممالك. ومن هنا تمكنت من القبض على معادلة القوة، وأمسى بإمكان خليفتها أن يهاجم عمورية بالدمار والنار لأن امرأة صرخت (وامعتصماه).

وسواء كانت قصة (وامعتصماه) صادقة أو كاذبة فإنها كانت ذلك السبب الحقيقى الهين، أو تلك الذريعة المفتعلة وراء فلسفة القوة. لقد أراد الخليفة عمورية وهو يملك أسباب تحقيق الإرادة فأخذها. أخذها لأن أوروبا فى ذلك الوقت كانت غارقة فى أساطيرها وتحيل كل أمر لرجال الدين ليفتوا فى كل شأن، ويبيعوا صكوك الغفران، وأخذها لأننا كنا نجلس فى حلقات النقاش بين آراء مختلفة فى مناخ مفتوح متعدد وثرى، لا يعرف تكفير الفكر أو الرأى أو العلم، ويزن أموره بين الصواب والخطأ وحسب مصالح البلاد والعباد. وليس فقط ودائماً بين الحرام والحلال الدينى. وعندما انتكس مناخ الحريات فى بلادنا تخلت الأمة عن أسباب نهضتها وقوتها، وغرقت فى أساطيرها تنتظر يوم ينادى الحجر على المؤمن أن وراءه يهودياً ليأتى فيقتله. وتبادلنا المواقع مع دول أوروبا ومع يهود. وأصبح شأننا مع دول العالم المتقدم ذات شأن يهود (أيام زمان) مع نبوخذ نصر وبابل سيدة الممالك. لهذا لم يعد يملك الترابى فى السودان سوى دعوة شعبه للدعاء أسبوعاً على الأمريكان، ولم يعد بإمكان ديكتاتور العراق سوى القول: إن الأمريكان يعتمدون فى ضرب العراق على ذراع تكنولوجية طويلة ولا يواجهون بشجاعة الرجال. لقد وصل الأمر بنا إلى أننا نريد إعادة الزمن إلى الوراء، نطلب من الأمريكان أن يحاربوا رجلاً لرجل بالسيف والخيل والقوس والنشاب لأننا لا نملك مقومات القوة والتقدم.

لم نعد نملك سوى الأسف والأسى والشجب ومظـاهرات شعبية صـادقة المشـاعر، إزاء عـدوان غاشـم مفتـرى، مظاهرات تنادى: الموت لأمريكا لكن من سيميت أمريكا؟

وماذا يفيد طرد السفراء؟ ومـاذا لـو تجمعنـا جميعـا واشترينا كل ألوان العتاد (لو سمحوا لنا بذلك)؟ ألم نخسـره فى خمس ساعات فى ١٩٦٧، وألم يخسر العـراق ترسـانة عسكرية قلما توفرت لنا من قبل؟ إنه خطأ المنهج يـا سـادة وليس مسألة عتاد.

مرة أخرى إنها فلسفة القوة والضعف، كلينتون، نبوخـذ نصر، المعتصم، وجميع الأسماء المنتصرة وراءهـا مـنهج فلسفة القوة. يقول كتابنا ويتفننون فى إدانة أمريكا وافترائهـا وخروجها على الشرعية الدولية وتقرير بتلر(رئيس لجـان التفتيش) المزور كذريعة لضرب العراق، وأن الضرب جاء كورقة يريد أن يكسب بها كلينتون محاكمته فى قضية مونيكا لوينسكى، ولو قتل الأبرياء ودمر البلاد.

نعم كل هذا صحيح، ويا لوعة الكبد على ما يحدث فـى العراق، لكن لمن تكتبون يا سادة؟ ولماذا تكتبون المعلوم لكل الدنيا؟ ناهيك عن الفريق الذى يستطيب لطم الخـدود وشـق الجيوب، فهل هكذا ستموت أمريكا؟

أيها السادة الدروس القاسية تنهال علـى رؤوسـنا ولـم نتساءل من يحقق الأساطير؟

إن من يحقق الأساطيرليس أصحابها الـذين اخترعوهـا وألفوها لكن من يؤمنون بالأساطير.

دروس

ما بين نصر بدر الكبرى ونصر العاشر من رمضان(*)

فى العاشر من رمضان / السادس مـن أكتـوبر ١٩٧٣ تمكنت القوات المصرية من تحطيم أكبر خط دفـاعى فـى تاريخ الحروب، وعبرت بارليف إلى سـيناء لترفـع العلـم المصرى فوق الأرض المحررة، بعد سنوات من إعادة بنـاء القوات المسلحة والتدريب والتخطيط، بـذل فيهـا الجنـدى المصرى عمره وعرقه ودمه حباً وكرامـةً. وأتيحـت لـه الفرصة لأول مرة منذ ١٩٤٨ ليحارب معركة حقيقية يثبـت فيها جدارته بشهرته أنه خير أجناد الأرض.

ووسط هذا الزخم الرائع والفخر العظـيم بأبنـاء الأمـة ورجالها خرج علينا الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهـر أوانها (رحمه الله) ليعلن أنه قد رأى الملائكة بيض الوجـوه يتقدمون جنودنا ويدمرون لهم سلفاً تحصينات العدو، وأنهـم كالعادة المأثورة كانوا يلبسون أبيض فى أبيض (؟!).

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/١/٤ العدد ٣٦٨٢/ شهر رمضان .

والمعلوم أن مثل هذا المأثورمن بقايا الفكر العنصرى القـديم الذى يميز الأبيض الذى يرمز للنهار والخير والنصر بعكس الأسود الذى يرمز إلى الليل والخـوف والشـر. وهـو ذات المأثور الذى ميز الأبرار عـن الآثمـين الأشـرار بالقلـب الأبيض والوجه الأبيض، وميز أيام الخير للصائمين بالسبعة البيض أو السته أو الخمسة البيض.. الخ.

والمرحوم الشيخ عبد الحليم محمود لم يجد أى بـأس وأى حرج فى أن يطفئ فرحتنا برجالنا وثمرة جهودنا بعد عـرق السنين ومشقة التدريبات وقسوتها، ما بـين هزيمـة ١٩٦٧ وانتصار ١٩٧٣. لم يجد أى بأس فـى أن يسـلب الجنـدى المصرى وهو فى الغالب إما أسمر أو أسود حقه فى الفخـر بثمار عرقه ودماء شهدائه وانتصاره المجيـد لينسـبه إلـى الجنود البيض لابسى الأبيض فى أبـيض سـاحقاً الفرحـة بالآتين من المجهول. مهدراً كل دماء الجنـود المصـريين المسلمين وبخاصة المسيحيين على تراب الوطن بـلا ثمـن، بعد تأكيده وورائه جوقة العمائم أن النصـر لـم يتحقـق إلا بصيحة الله أكبر التى زلزلـت العـدو وهزمتـه. رغـم أن ديكتاتور العراق قد دون على علم بلاده ذات الشعار منـذ أم المعارك الكارثة، ولم يزل من يومها يقف تحت تلك الرايـة ترفرف فوق بلاده ومعها الإذلال والحصار والقصـف، دون حضور واضح للجنود البيض بثيابهم البيض.

ومع الله أكبر والجنود البيض فى ٧٣ لا عزاء لشـهداء مصر من الأقباط، عندما لم تميز مدافع العدو وطائراته أتباع راية الله أكبر وأصدقاء الجنود البيض عن أتباع الإنجيل، كما لم تراع قنابل العدو فروق النسبة العدديـة بـين المسـلمين والمسيحيين التى يتنادى بها مفكرو التيار الإسـلامى كلمـا

تأزمت مسألة الأقباط، ووضع الرجل الإسفين بين أبناء الأمة فى لحظة تاريخية عظيمة من تاريخهم ورحـل إلـى عـالم الخلد، رحمه الله وتجاوز عن سـيئاته، لكـن المصـيبة أن (المطيباتية) من جوقة الكورال المتأسلم تردد علينا كل عـام ذات المفاهيم فى أجهزة الإعلام لتؤكد لإخواننا فى الوطن أن دماء أبنائهم قد ذهبت هدراً ودون ثمن حتى لو كـان الـثمن فقط الفخر بهم والفرحة بصورهم المحلاة بالسواد.

وهذا يعود لأن هذا الفريق من العمائم عافاه الله لا يـرى الواقع الموضوعى ولا الوطن ولا يفهم معنى المواطنة، وكل شئ لديه يجب أن يأتى من فراغ، وكى يكون مبهراً لابد أن يكون معجزاً ملغزاً قادما من العالم اللامرئى، منقطع الصـلة بالواقع الأرضى وبالإنسان وقدرات فعله البشرى، يجـب ألا يكون واقعياً ويستحسن ألا يكون مفهوما حتى يكتسى ثـوب الرهبة القدسية.لقد انتكس هؤلاء إلى مرحلة ما قبل الأديـان، إلى المرحلة السحرية، أيام كانت التمتمات غيـر المفهومـة والحركات التى لا تحمل معنى تؤدى فعلاً مطلوباً فى الواقع. وبالطبع فإن هذا المنهج يخدم وجودهم السيادى علـى قمـة الهرم الاجتماعى ويكرسه، حتى يكونوا هم المرجع فى كـل أمر ولهم الفتوى فى كل شأن،ومن هنا أحالوا نصر العاشـر من رمضان إلى عالم يوهمون الناس أنهم وحدهم العـارفون بأبوابه ومفاتيحه والحارسون عليه والفاهمون لطلاسمه دون الناس جميعاً. هذا رغم أن المقارنة الدائمة التى يسوقونها بين نصر أكتوبر وتوقيته فى العاشر من رمضان بنصـر بـدر الكبرى زمن الدعوة الإسلامية، يلقى بالظلال على مـنهجهم ويكذب أطروحاتهم ويشير إلى أنهم ينتقون بالهوى ما يتناسب مع بقائهم فى مواضعهم فى السلم الاجتمـاعى، لأن قـراءة

واضحة لأحداث بدر الكبرى فى الزمن المحمدى لا تقف أبداً إلى جانب ما يطرحون، ولا تلتقى أبداً مع رؤية المرحوم ولا مع جوقة الكورال التى لا تزال تردد ترانيم الببغاوات، حيث الحقائق تفصح عن نفسها وتقول لنا قولاً آخـر، إن النصـر البدرى زمن الدعوة لم يتم فقط بصيحة الله أكبر أو بمسـاندة الملائكة بل كان بالفعل البشرى والتخطيط المحكم الذى لـم يترك شيئاً للصدفة.

فى بدر الكبرى جاء الوعد للنبى عليه الصلاة والسـلام بالمدد السماوى بملائكة محاربين إلى جوار الصفوة الأولـى للمسلمين، فى أول وقعة كبرى بينهم وبين مشـركى مكـة، وانتهت الموقعة بانتصار المسلمين، لكن ليعمل ابن الراوندى عقله فيما حدث بعد أربعة قرون ليتسـاءل متهكمـاً: «مـن هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه؟ إنهـم كانوا مغلولى الشوكة قليلى البطش، فـإنهم علـى كثـرتهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين معهم لم يقتلوا أكثـر مـن سبعين رجلاً!! وأين كانت الملائكة يوم أحد حـين تـوارى النبى بين القتلى ولم ينصره أحد؟ / انظر د. إبراهيم البيومى، فى الفلسفة الإسلامية، ص٨٣».

هكذا أثار حديث الملائكة والمعجزات منذ القرن الرابـع الهجرى تساؤلات واستهجان رجل مثل ابن الراوندى، لأنـه أبداً لم يدرك الحكمة والدرس الذى قدمـته غزوة بدر ولـم يقرأ دقائق الموقف والغرض من الأحداث،لذلك كان هنـاك حديث آخريعقب مثل حديث أبى الحسن السبكى وهو يقـول: «سئلت عن الحكمة فى قتال الملائكة مع النبى ببدر مـع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجبت:

وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبى وأصحابه.. وكان يكفى ملك واحد فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشـة مـن جنـاح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة. / البيهقى: دلائـل النبوة، ج٣، ص٥٨». وهكذا أدرك السبكى الحكمة وعلم أن الفعل كان للنبى وأصحابه، للبشر وقدراتهم. لقد كان حامـل الوحى جبريل صاعداً هابطاً طوال الوقت ومع ذلـك كـان الدرس هو الاعتماد على معطيات الواقع والتعامل معه بالفعل البشرى، فكان النبى يرسل الجواسيس يستطلع أحوال العدو، ولم يسأل جبريل إنما أرسل أشهر جواسيسه بسبس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبى الزغباء يأتون له بأخبار العدو.

خطط المسلمون لبدر فأحسنوا التخطيط فانتصروا، أمرهم النبى أن يسيروا نحو بدر صامتين متخفين، يجتازون طرقـاً غير مطروقة،وأمرهم أن يقطعوا الأجراس من أعناق الإبـل حتى لا تحدث أصواتاً، وأجرى حساباته بحيث يصـل قبـل أعدائه لمكان المعركة بيوم كامل، وهناك قسم رجالـه إلـى ألوية لكل لواء رايته المميزة، وجعل لهم شـعارات شـفرية يتنادون بها أثناء المعركة ليعرفوا بعضهم ويميزوا أنفسـهم عن العدو حيث كان الجميع يلبس الخوذ الحديدية والدروع.

وهناك اختار النبى أحسن المواقع وأمنعها قبل وصـول عدوه، وأرسل قواته الخاصة تستبق وصول العدو ليخطفوا له من خطوطهم الخلفية رجلين تم استجوابهماعن أحوال العـدو وعدته وعدده وسلاحه (انظر ابن سيد الناس: عيون الأثـر، ج١، ص٣٠٠،٩٩).

أبداً لم يركن المسلمون رغـم الوعـد السـابق بمجيـئ المحاربين البيض، بل عملوا على حماية قائدهم بأنفسهم فبنوا للنبى عريشاً بعيداً عن المعركة فوق تل يشرف على الموقع،

وهو ما جاء فى اقتراح سعد بن معاذ: «يا نبى الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عنك ركائبك حتى نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا.. فأثنى عليه رسول الله خيراً. ودعا له بخير، ثم بنى للرسول عريشاً كان فيه/ انظر ابن كثير: ج٣، ص٢٦٦».

ومع كل هذا التخطيط البشرى وتوقع كل الممكنات من أحداث، نجد العمل العسكرى المتقن، فقاموا يعملون بإمرة المحارب اليثربى الخبير الحباب بن المنذر فردموا الآبار بعد أن ملأوا لأنفسهم حوضاً كبيراً أعلى التلال حتى يأتى أهل مكة مجهدين عطاش فلا يشربون، بينما يجد المسلمون زادهم من الماء. وقد بين القرآن الكريم موقع الفريقين عند المعركة، فقريش جاءت عطشى مجهدة بعد رحلة طويلة لتخوض معركتها فى بطن الوادى، بينما المسلمون يهبطون عليها من الأعالى ويرشقونها بحرابهم وسهامهم من مواقعهم الحصينة فوق التلال وخلف الصخور، فتقول الآيات الكريمة: «إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى **والركب أسفل منكم** ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد/ ٤٢ / الأنفال».

أما الواقدى فيذكر خبراً آخر يؤكد مدى أخذ المسلمين كل صغيرة وكبيرة فى الاعتبار قبل بدء المعركة، وذلك فى اختيارهم لوجهة القتال فيقول: «وقف رسول الله (ص) ينظر إلى الصفوف فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس، فنزل الرسول بالعدوة الشامية، ونزلوا بالعدوة اليمانية/ الواقدى: المغازى، ج١، ص٥٦».

أى اختار المسلمون حتى موقعهم بالنسبة للشـمس فحـاربوا القرشيين والشمس فى عيونهم تعميهم عن المسلمين.

هكذا وعد الله المسلمين بملائكة بالألوف،على رأسها ملك له ستمائة جناح، حمل بجناح واحد - حسبما تروى مأثوراتنا - بلاد لوط بعمارها وناسها إلى السماء وقلبها فدمرها، ومع ذلك اعتمد المسلمون الأوائل على أنفسهم فـى كـل خطـوة فانتصروا فى بدر الكبرى نصراً غير وجه التـاريخ وخـط سيره. لكن عندما ركنوا فى غزوة أحـد إلـى هـذا المـدد الملائكى كان الدرس القاسى وكانت الهزيمة النكراء،ليقـارن أهل العقول ويعوا الدرس، وأن الفعل للإنسان كما قال أبـو الحسن السبكى،ولو كان الفعل للملائكة لما قتل فى المعركـة البدرية من المشركين سبعون فقط، حتى وقف ابن الراوندى يسخر ويتهكم، وهو المعنى الذى جاء بين روايات المسلمين البدريين هادئاً يقول: «لولا أن الله حال بيننا وبين الملائكـة التى نزلت يوم بدر لمات أهـل الأرض/ الحلبـى، مـج٢، ص٤٠٧»، لمات أهل الأرض وليس فقط مجرد سبعين قتيلاً من المشركين. ومع ذلك لم تزل جوقـة السـحرة يتمتمـون ويبسملون ويحوقلون بملائكة نزلت بعد ألف وأربعمائة سـنة من بدر الكبرى، ليسلبونا حقنا فى النصر وفرحنا به. وكـى ينفث الكهنة فى العقد بين عنصرى الأمـــة فـى أشـرف أعيادها وأمجادها.

معنى المواطنة(*)

التهنئة واجبة لكل مصرى بأعياد أربعة تزاحمت بـالفرح على أفق فواتح عام جديد خلال شهر واحد، ربما كانت فـألاً طيباً وبشرى بأيام أفضـل آتيـة، عيـد العبـادة والصـوم الرمضانى، وعيد النصر على الأعادى الذى يتوافق بالتاريخ العربى مع العاشر من رمضان، وعيد الميلاد المجيـد يـوم هبط الحب من المجد فى الأعالى على النـاس فـى الأرض بالمسرة، وعيد الفرح بيوم الفطر المبارك.

نعم بعضها أعياد مسيحية وبعضها أعياد إسلامية، لكـن المحتفين فى الحالين مصريون، ليس أحدهم طليانى والآخـر صينى، مصريون يرتبطون بالأرض وتاريخهم المشترك فيها ومستقبلها الذى هو مستقبلهم جميعـاً بغـض النظـر عـن عقائدهم. لكن العيد الذى اجتمع حولـه المسـلم المصـرى والمسيحى المصرى فى كرنفال واحد شارك فيه الجميع من بين الأعياد الأربعة هو يوم النصر والعبـور، سـواء كـان الاحتفاء به حسب التقويم الميلادى أو حسب التقويم العربى. إلا أن هذا العيد الوحيد المشترك شابت النفوس فيه الشوائب، وهو ما سبق وأشرنا إلى أسبابه فى إلباس النصـر الـوطنى الجامع لأبناء الأمة لباساً طائفياً إسلامياً بصيحة الله أكبر التى

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/١/١٨ العدد ٣٦٨٤.

زلزلت الأعادى وخلعت قلوبهم، وبحديث الملائكـة البـيض بثيابهم البيض،وهو ما يعنى استبعاد مصريين آخرين قـاتلوا واستشهدوا من أتباع الإنجيل،بعد أن اختلطت دماؤهم بـدماء أشقائهم المسلمين على تراب سيناء الغالية.وهو المنهج الذى يعنى تمزيق الإجماع الوحيد والنادر للاحتفالية الباقيـة بـين الأعياد الأربعة.

أعلم أن بداية الموضوع بهذا الشكل تزعج البعض منـا، لكن من قال إن هؤلاء المنزعجين يشغلون أحداً، فما علينـا من المنزعجين، ولينزعج من أراد فقد آن أوان كل إزعـاج ممكن لهؤلاء، لأن الوطن والإجماع الوطنى المصرى أعـز وأغلى من فئة المنزعجين التى سنثبت بعد قليل أنها لا تفكر بطريقة مصرية، ولا تنتمى لهذا الوطن، وبالتالى فهى ليست مصرية بحال.ومصر اليوم بحاجة لكل مخاص ليخوض فـى أوعر المناطق حتى لو كانت شديدة الخطورة، فلم يعد هناك وقت أمامنا لنلحق بـالأمم المتقدمـة، دولـة قويـة مدنيـة متحضرة، وهى لن تكون قوية إلا بتجانسـها أولاً وقبـل أى أمر آخر، وإدراك أبنائها لمعنى المواطنة الصادق وفرزه عن معنى الطائفة. ومثل هذا التجانس المطلوب لن يحدث بمجرد إنكار أن هناك طائفية يسببها منهج سائد تتبناه أجهزة الإعلام والتثقيف الرسمية، ولا بالتغطية عليها برماد هـش يحـول الجمر الثاوى تحته إلى متفجرات، لن تنفجر إلا فى وجوهنـا وفى كبد هذا الوطن الأعز.

ومصر ليست بلداً اعتيادياً، بل هى فاتحة بوابة التـاريخ الإنسانى على الكوكب الأرضى، وبصماتها علـى عتبـات الحضارة الأولى بلا منازع ينازعها، ومقومـات شخصـيتها

ومفاتيح ثراء هذه الشخصية تكمن فى امتصاصها لكل وافـد وتمصيره بقدرة فذة لاحظها ودونها كل من قام بدراسة تاريخ هذا البلد دراسة منصفة أمينة. ورغم كل مـا دخـل علـى العنصر المصرى من تهجين الغزاة والفاتحين، فقـد كانـت الجينات المصرية - بلغة علم الأحياء - هى السائدة وغيرها هو المتنحى،لذلك ظلت فتوح مصر هى ذلك العابر الطـارئ دوماً. حتى الفتح العربى الإسلامى ذاتـه، ورغـم النـزوح العظيم لقبـائل الجزيرة العربية للاستيطان فى مصر هربـا من شظف عيشها إلى فىء مصـر وخيرهـا مـع الغـزوة الإسلامية، ومع تحول كثير من المصـريين إلـى العقيـدة الجديدة الوافدة، فقد تمكنت عبقرية مصر التاريخية من إجراء معادلاتها الدقيقة ليس فقط لتمصير العنصر العربى الغازى، بل وتمصير العقيدة الوافدة، فصاغت إسلاماً مصرياً شـعبياً من لون خاص، ضفرته مع حاصل مزيجها الفكرى والعقدى والتاريخى منذ استقر المصرى الأول فى هذا الوادى.

نعم قد يكمن هذا الناتج العبقرى مؤقتـاً وينـزوى إزاء موجات المد الطائفى الطارئة،لكنه عند حاجة الوطن يفصـح عن نفسه جهيراً فى بناء متكامل كما حدث إبـان الاحـتلال الإنجليزى لمصر وثورة ١٩١٩ وتكامل أبناء الـوطن فـى لحمة واحدة أبهرت الدنيا آنذاك بما قدمته من مفاهيم متقدمـة لمعنى الوطن والمواطنة والحريات، وأنجزت قبلها وبعـدها صيغة نهضوية رائعة فى ليبرالية ناضـجة، حتـى توقـف زخمها مع حركة ضباط الجيش فى يوليو ١٩٥٢.

لقد كان للتجربة اليولياوية أهدافها المفتوحة على المحيط العربى، من أجل تشكيل جبهة عربية قادرة علـى مواجهـة العالم الاستعمارى، وكان طموحها الأكبر هو تكامـل هـذا المحيط فى وحدة عربية تشكل إمبراطورية تسـتعيد أمجـاد إمبراطورية العرب الغابرة. ورغم نبالة كل المقاصد، فـإن تلك التوجهات انطلقت من مفاهيم خاطئـة غيـر مدروسـة بعناية، واستخدمت ممارسات قهرية كانت سبباً فى نكسـات متتالية.

كانت الفكرة الأساس هى التوحد المطلق والصهر الكامل لكل أبناء الأمة العربية، حتى يصبح لكل شئ شـكل واحـد ووجه واحد وفكر واحد ومنهج واحد، ومن ثم لم تـر تلـك المفاهيم التعددية والتمايز فى إطار التوحد المطلوب. بينمـا كانت العناصر المعلنة فى لاءات الخطاب الوحدوى كأسـاس للتوحيد المرتقب هى وحدة التاريخ ووحدة اللغة ووحدة الدين ووحدة المصير المشترك. وهنا كمنت كثير من المغالطـات الكبرى التى انتهت إلى سقوط الخطاب الوحدوى الذى أسفر عن نفسه فى تفجر وانشطار أول وحدة اندماجية بين مصـر وسوريا حينذاك، بل وإلى بدء ظهور التفتت الجانبى داخـل الأقطار ذاتها، لتفصح الجماعات غير المندرجة فـى لاءات الوحدة عن نفسها وعن وجودها حتى لا تذوب وتتلاشى بعد أن تم إهمالها كما لو كانت غيـر موجـودة فـى الخطـاب الوحدوى المعلن حينذاك.

وأبرز تلك اللاءات الوحدوية هى وحدة التـاريخ بـين أقطار العرب، وهذا تزييف كامل للحقيقة، لأن لكـل قطـر عربى تاريخه الخاص القديم الممتـد قبـل الفـتح العربـى

الإسلامى، فللعراق تاريخه الأكادى والكلـدانى والآشـورى والبابلى، وللشام تاريخـه الفينيقـى والكنعـانى والأرامـى، ولمصرتاريخها الفرعونى والقبطى.. الخ.وهذا التاريخ ظـل ممتداً أو مستبطناً داخل ضمير شعوب الأقطـار المفتوحـة، تحت ظل إمبراطورية إسلامية أقامـت مجـدها وفتوحهـا بالجيوش والاستيلاءعلى المواطن المحيطة بجزيرة العـرب، بالاحتلال القسرى.وعليه تكون وحدة التاريخ المقصودة هـى التراث الإسلامى الذى أصبح جامعاً لكثيـر مـن شـعوب الأقطار المفتوحة، وشتان ما بين التاريخ والتراث.

فالتراث الإسلامى هو فعلاً تاريخ للعرب الفاتحين لأنهـم كانوا جماعات متشظية من قبائل بلا تاريخ، فجاز لهم ابتداء التاريخ مع ابتداء تكون دولتهم الأولى فى عاصمتها يثـرب، مع تكون أول تراث جامع لهم هو الإسلام بكل تفاصيله، لكن هذا التراث بالنسبة لشعوب البلاد المفتوحة شكل عقيدة وتراثاً وليس تاريخاً بحال. لأن تاريخها يمتد أبعد من ذلك ويضرب بجذوره فى ماض بعيد، ومن ثم فالتراث الإسلامى قد أضحى جزءاً من تراث البلاد المفتوحة، وليس هو كل تراثها، أمـا تاريخها فأمر مختلف. وعليه فإن حركة التوحـد المعاصـر التى أقامت اللغة العربية والإسـلام لاءات توحـد، قطعـت الشعوب عن ماضيها القديم وتاريخها الأعرق،وأحلت محلـه تاريخ أحداث الدعوة الإسلامية ودولتها،بينما أحداث الـدعوة الإسلامية ووقائعها من بدر إلى أحد إلى خيبر إلى فتح مكـة إلى خالد بن الوليد إلى عقبة بن نافع هـى تـاريخ العـرب وقبائل جزيرة العرب. وأصبحت تراثاً إسلامياً للمسلمين فى الأقطار المفتوحة من بعد، لكن بدر أو أحد ليسـت تاريخـاً

مصرياً ولا رافدياً ولا شامياً. وهنا كان الخلط الأول للمفاهيم وبداية سقوط المشروع الوحدوى، بعد تحول التـراث إلـى تاريخ، وأصبحت بداية التاريخ مع العـرب الغـازين، مـع بطولات ابن نافع واختفاء بطولات الفاتح الأعظـم تحـتمس الثالث، ومع بطولات بن الوليد وتراجع تاريخ آشور بانيبـال ونبوخذ نصر، بل أصبح الدرس الذى تكرره كتب التـاريخ الإسلامى هو كفر هؤلاء الأقدمين ووجوب التنصـل مـنهم كعار يجب نسيانه.

أما وحدة اللغة العربية فهى حقيقة لا ريـب فيهـا بعـد التعريب الرسمى القسرى للدواوين فـى الحقبـة الأمويـة، وتحول شعوب الأقطار المفتوحة إلى اللسان العربى، الـذى أنشأ تفاهماً عظيماً بين تلك الشعوب وقـارب بينهـا وأذاب كثيراً من العوائق والموانع بين تواصلها. لكن مع ذلك ظلت هناك كثير من الطوائف العريقة فى البلاد المفتوحة تحـافظ على دياناتها القديمة ولغتها القديمة وهنا كانت الفجـوة بـين فكرة التوحد المطلق المصمت، وذوبان الكل فى واحـد،وبين واقع لا يمكن إنكاره أو إبادة أصحابه أو أسلمتهم قهراً، بعـد أن حافظ هؤلاء على لغتهم إلى جوار العربية وعلى ديـانتهم فى ظل الدولة الإسلامية كما فى طوائـف شـمالى العـراق وسوريا ولبنان ومصر والمغرب العربى مـن أكـراد إلـى كلدانيين إلى أقباط إلى أمازيغ.. الخ. لـذلك أهمـل خطـاب الوحدة تلك التمايزات بل غطى عليها وتغافل عنها وتعامـل مع هذه الفئات الكبيرة الكثيرة العريقة فى أقطارها بحسـبانها غير موجودة أصلاً، بسبب قرار التوحد الكامـل المصـمت

وليس التوحد للمتعدد والمتمايز والحفاظ على حقوق الجميـع فى مواطنة متساوية.

وهنا المنطقة الوعرة والخطرة التـى لا منـاص مـن مراجعتها إن أردنا تجاوز أخـطاء الماضى والبنـاء علـى أسس سليمة، بعد أن ورث المواطن المصرى عـن الحقبـة اليولياوية كثيراً من المفاهيم التى أفرزت تباعداً عن مفهـوم المواطنة وغموض الهوية، وهو ما تفـاقم بعـد أن تناولـت الراية الوحدوية تيارات الإسلام السياسى مع توسيع مسـاحة التوحد المطلوب إلى بلاد البلغـار والأفغـان بتوحـد كـل المسلمين من باب توسيع جبهـة المواجهـة مـع الغـرب المستكبر، وزيادة وإمعاناً فى إنكار التعـدد والتمـايز، بـل والاستبعاد المعلن لكل غير المسلمين فى الأقطار العربية.

ومع عملية السباق الذى مارسته أجهزة ومؤسسات الدولة المصرية مع التيارات الإسلامية، لإثبات أنها أكثـر إسـلاماً وتدينا، تم صبغ كل شئ بالمأثور الإسلامى وحده، مما كرس الواحدية المطلقة وأدى للمزيد مـن التباعـد عـن مفهـوم المواطنة، حتى بات التوحد الإسلامى المطلوب يعنى تفجيـر الوطن من الداخل إلى طوائف متناحرة.

وسارع فى انتشار هذا الخطاب انتشاراً هائلاً فى زمـن قياسى، آلة الإعلام الحـديث الجهنميـة مـع المسلسـلات التليفزيونية الرمضانية عن الموحدين الإسرائيليين الأوائـل زمن الفراعنة الملاعين «كررتها فى رمضان هذا العام القناة الرابعة ونقصد مسلسلات أمينة الصاوى رحمها الله وتجاوز عن سيئاتها»، وما أظهرته تلك المسلسلات أو تعمدته لتكريم

البدو الإسرائيليين الوافدين، وإبراز الفراعنـة فـى صـورة مزرية كوميدية، فهم طغاة جشعون نهمون، وبنـو إسـرائيل كرام ميامين. لقد كان هذا التوجه الإعلامى داعما بقوة لكـل أطروحات الإسلام السياسى حول التاريخ المصرى والهويـة المصرية، بحسبان هذا التاريخ كان تاريخاً لمجموعـة مـن الكفرة عبدة الأصنام يجب أن نتبرأ مـنهم ونلقـى بـأعظم أمجادنا فى مقالب النفايات.

ومع السباق المحموم لإثبات التحاء مؤسسـات الدولـة وتدينها استمر إهمال حقبة مصرية تاريخية مجيـدة امتـدت ست قرون من النضال ضد الاحتلال الرومانى، كأنها كانت لقوم من المريخ وليست جزءاً من تاريخ مصر، وهـو مـا حدث فى نظامنا التعليمى إلى جوار الإعلامى،اللذين سـاهما فى تزييف الهوية الوطنية وقطع الذاكرة المصرية بل وتدمير مفهوم المواطنة، عندما عاملا التاريخ المصرى بعقلية غيـر مصرية. وأصبح تاريخ مصر الذى يشـرف بـه الكوكـب الأرضى على كل مداراته مجرد (خمسة سياحة)،أما الحقبـة القبطية فلا يعرف أحد عنها شيئاً، بل تـم إهمـال الأقبـاط بمأثورهم العريق فى هذه الأجهزة تماماً «ويبدو أن تلفازنـا المبروك وهو يخصص الحلقات الطوال لسـيرة المرحـوم الشيخ الشعراوى وحياته لا يعلم أن هناك قديسين مسـيحيين مصريين لا يقلون شأناً وجلالاً قدموا أنفسهم ليس من أجـل طائفتهم ودينهم فقط، بل من أجل مصر بمسلميها ومسيحييها،

وكانوا يستحقون لفتة مخلصة ببرامج أو دراما تضعهم فى مكانهم اللائق بتاريخ الوطن وقلوب أبناء الوطن لتجعل الفخر مشتركاً بين أبناء الوطن».

وكان طبيعياً أن يتسم الشارع المصرى باللامبالاة وبالانفلات بعد أن فقد المواطن معنى المواطنة والحس الوطنى بعد أن اقتصرت المناهج السائدة على بداية التاريخ المصرى مع عمرو بن العاص، رغم أنها كيان عظيم يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ. ومن لا يعترف بذلك ولا يضع ذلك فى خططه الدائمة لا يفكر كمصرى، بل يفكر بعقلية العربى الغازى المستوطن، وما أبعد ذلك عن فكرة المواطنة الصادقة. والمنطق الوطنى السليم لا يرى حسنى مبارك جالساً الآن فى مقام عمرو بن العاص بقدر ما هو امتداد لتحتمس الثالث وازينة ملوك العالم رمسيس الثانى، وهو ما وعته أدبيات الزمن الناصرى (فى بداية حقبتها فقط) فتغنت بأن عبد الناصر كان أول حاكم مصرى يحكم مصر منذ أكثر من ألفى عام.

إن الخطوة الأولى لإصلاح الخلل الحادث فى الهوية هى الاعتراف بالتعدد والثراء والتمايز فىتاريخنا وبحق التمايز داخل وحدة الوطن، وأن العرب الفاتحين قد تمصروا وأصبحوا مصريين عنصرا ووطناً،وأن تاريخنا لا يقتصر على التراث العربى الإسلامى لأن معنى ذلك هو التفكير بعقلية الغازى الذى يفرض ثقافته على البلد المفتوح، وأن نسعى لإزالة كل ما من شأنه أن يقيم حواجز بين أبناء الوطن. وبهذا وحده يمكن أن نحلم بأعياد يحتفى فيها كل المصريين معاً فى كرنفالات حب تجمعهم معاً دون شعور

بانفصال طـائفى لأن التـاريخ الواحـد والهويـة الواحـدة والمواطنة الواحدة تجمعهم معاً. ليختفى الإرهاب نهائياً مـن ساحتها والتسيب من شـارعها واللامبـالاة مـن قـاموس مواطنيها، لتحل محله مصرية يمكن أن تجمع المصريين كما كانوا يجتمعون فى الأزمان السوالف حـول أعيـاد مختلفـة لعقائد مختلفة شتى، وليتوحدوا إزاء الطوارئ يداً واحدة، كما اجتمعوا قديماً وروضوا نيلهم الجبار فى رضـاه وغضـبه، ولإنجاز معارف وعلوم وحريات ما كان يمكن أن يفرزهـا تاريخ كالذى يقدمه تلفازنا عن الأسلاف، بل أفرزته لاشـك مواطنة حقة وصادقة وعبقرية لا تحتاج لإيقاظها سوى لمنهج يخلص أولاً للوطن، ثم اتركوا البقية لشعبها وهو كفيل بإيقاظ كل جميل وعظيم فـى جيناته الوراثية الباقيـة منـذ كانـت مصر درة الكوكب الأرضى وجوهرة مجموعتنا الكوكبية.

مفهوم الوطن والمواطن

فى فلسفة القوميين والمتأسلمين[*]

هل ثمة تناقضات رئيسية واضحة بين دعاة القومية العربية وبين دعاة الإسلام السياسى؟ وأين يقع الوطن ومفهوم المواطنة بين كلا الدعوتين؟

إن الباحث المدقق سيجد اتفاقاً أولياً ورئيسياً بين كلا الدعوتين، فكل منهما يتجه فى النهاية نحو غاية رفيعة ومبدأ عظيم، فالإسلام السياسى يدعو إلى توحد كل المسلمين فى كل العالم فى اتحاد طائفى عماده الرئيسى وعقدته الجامعة هو العقيدة الإسلامية، وهو ذات ما يدعو إليه دعاة القومية العربية لكن مع قصر هذا الاتحاد على العنصر أو الجنس العربى وحده دون بقية المسلمين، نظراً لأن معظم المسلمين يسكنون العالم العربى، وأن بقيتهم يتشرذمون فى بلاد شتى يشكلون فى بعضها أقليات غير فاعلة. أما الغرض النهائى لدى كلتا الدعوتين فهو الاستقواء بالتوحدعلى أعداء يقبعون خارج الطائفة وخارج العنصر، ليس لهم من شاغل بالنهار أو بالليل سوى حبك المؤامرات للعرب والمسلمين.

---

[*] تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/٢/١ العدد ٣٦٨٦.

هناك من يؤكد على وجود التناقضات التأسيسـية مرتكـزاً على الصدامات الدموية التى حدثت بين الفريقين منذ سنوات الاستقلال وقبلها وحتى اليوم. أما أوضح علامات التنـاقض فهو ما يقدمه تيار الإسلام السياسـى ضـد دعـاة القوميـة العربية، إذ يؤكد أنه يدعوا بدعوة الإسلام وهى دعوة شمولية (لا يقول إنها طائفية؟!)، بينما القومية عنصرية عرقية، وأنها مفهوم مستورد من تاريخ أوروبا لا علاقـة لـه بتاريخنـا ومفاهيمنا. وأن الدعوة القومية تمكنت من حيـازة فرصـة تطبيق مبادئها فى الواقع عندما تمكـن القوميـون بسلسـلة انقلابات من الاستيلاء على السلطة فى أكثر من بلد عربـى، ولم تحقق سوى الفشل الذريع. بل إن الظروف التى أوصلتهم إلى الحكم تشوبها الشوائب حيث كانوامدعومين من الغـرب الصليبى الكافر الذى استخدم الدعوة للقومية العربية لتفتيـت الأمة الإسلامية إلى عرب وغير عرب، وأن جامعة الـدول العربية ذاتها ليست سوى ابتكار بريطانى تم تحت إشـراف وتخطيط ودعم إنجليزى كامل. وعنـد التطبيـق لـم يجـن القوميون وهم فى السلطة سوى الخـراب والهـزائم لـديار المسلمين، وهو ما يعنى أنهم قد أخذوا فرصتهم واسـتنفذوها وعليهم أن يتركوا مواقعهم للتجربة الإسلامية التـى أثبتـت نجاحها فى الدولة الإسلامية الأولى.

الملحوظة البارزة هنا أن المتأسـلمين وهـم يبـرزون التناقض مع التيار القومى، قد ضفروه مع اتهامات بالخيانـة والعمالة، وهو ذات السلاح الذى لجأت إليـه الأنظمـة ذات التوجهات القومية إبان صراعها مع حركات الإسلام السياسى

وتمردها المسلح. عندما تم تسخير الأجهزة الإعلامية لإثبات خيانة الحركات الإسلامية للوطن وعمالتها.

وهكذا تسفر قراءة هذا الصراع أو التنـاقض الظـاهرى عن اتفاق منهجى عميق ورئيسى، وهو أن كلاً من التيـارين قام بنفى التيار المتصارع معه علـى السـلطة مـن سـاحة المواطنة، وألبس ذاته الشرعية الوطنية واتهم الآخر بالخيانة. ومن ثم أصبح هذا الاتفاق المنهجى هو المتكرر الثابت عنـد أى مخالفة. فإن أنت خالفت المتأسلمين أصبحت كافراً دينيـاً متآمراً مع المستشرقين الصليبيين الصهاينة.. الخ، وإن أنـت قدمت ولو نقداً لما آل إليه الحال بمناهج القـوميين انتهيـت كافراً وطنياً متآمراً تطبيعياً.. الخ. وأنت عند كليهما صاحب فكر منحرف مستورد.وعليه فالمبدأ الأول والاتفاق الواضـح فوق التناقضات الظاهرية بين كلا الطرفين هو إيمـان كـل منهما أنه وحده الصح المطلق والوطنية الخالصة،ولا مكـان لمعترض أو ناقد أو مخالف لأنه خائن وعميل وكافر.

ولأن تاريخ العرب فى جزيرتهم كان هـو اللاتـاريخ، قبائل متناثرة لا تقبل التوحد،لأن التوحد كان يعنى أن يسـود فرد من قبيلة على بقية القبائل، وأن تسود عشيرة على بقيـة العشائر، فلم يتوحد العرب إلا بقوة أعلى من قـوة القبائـل والعشائر، بإرادة إلهية فرضت تلك الوحدة باصـطفاء فـرد وقبيلة، بنبى موحد، وبعدها ظلت أدبيات الإسـلام السياسـى حتى اليوم تتحدث عن دولة تُقاس على ذلك النمـوذج الأول، عن ديكتاتور عادل مختار قرشى فى دولة خلافة آتية يحكـم بالشورى مدى حياته.

ولأن الدول العربية المعاصرة ظلت إمـا فـى مراحـل البداوة أو الزراعة ولـم تبلغ عصر الصناعة الـذى يفـرز طبقة برجوازية ذات مصلحة فى التوحد، لم يجد دعاة القومية سوى ذات أفكار التأسلم السياسى، فكرة البطل المنقذ الملهـم العادل الحاكم مدى الحياة الذى جاء على موعده مع القدر من سجف الغيب، بطل يوحد الأقطـار فوقيـاً، يملـك ترسـانة عسكرية تمكنه من إقامة ذلك التوحيد المرتقب، ملهـم مـن السماء ورمز للأمة، كذلك توسموا فى سيد قطب ومن قبلـه حسن البنا ومن بعده جمال عبد الناصر ثم صدام حسين.أمـا الشعب فهو طوال الوقت غير موجود غائب سـلبى ينتظـر معجزة مجىء الخليفة أو ميلاد القائد الضرورة. أو كما تنبـأ به الفيلسوف القومى ميشيل عفلق: إنه يظهـر فـى لحظـة عسيرة باصطفاء قدرى كالاصطفاء الإلهى للأنبيـاء ليقـود شعبه نحو الانتصارات الكبرى.

وبهذا النموذج انسحبت الطهارة الدينية من مساحة تيـار الإسلام السياسى إلى التيار القومى، وزعم كلاهمـا لنفسـه الطهارة المطلقـة والمعرفـة التامـة. بتوافـق فـوق كـل التناقضات، لذلك كان منهج كلا التيارين هو الوصاية علـى الناس الذى انتهى إلى ديكتاتورية كاملة. ويتضح هذا المنهج الإرغامى وتلك الوصاية على الناس عند حسن البنـا وهـو يقول: إن من واجبنا كإخوان مسلمين العمل علـى إصـلاح القلوب والعقول وإعادتها إلى طريق الله.

ذات الفكر وذات المنهج أكده عفلق وهو يبـرر قسـوة البعث العراقى لأن تلك القسوة ليست ضد الناس بـل معهـم

لأنهم يجهلون هويتهم الكامنة فيهم، لذلك أصبح هدف السلطة القومية هو تغيير الشعب ليكتشف ويعى دوره التاريخى.

كلاهما فوق الناس، مختار، موجه، صاحب واجب مقدس، اعتقادى، رسولى، مبعوث عناية قدرية، أما الشعب، الناس فهم يجهلون دورهم المرسوم فى البروتوكولات الإسلامية والقومية، وهم فى عفويتهم وطبيعتهم الاعتيادية واعتراضهم أحياناً بحاجة للإصلاح بالوصاية والهيمنة الفوقية، وللإنجاز فلابد من المعتقل والتصفية الجسدية فهى ضريبة وضرورة إنجاز المشروع الأعظم من الأفراد ورغباتهم وحقوقهم الإنسانية الطبيعية.وكان طبيعياً أن تنفى هذه الوصاية أى شكل للتمايز أو التعدد داخل المجتمعات لأن المطلوب صهر الجميع فى وحدة واحدة كتلية مصمتة، بينما جرى تعظيم الجماهير كمجموع معنوى فيما تم سحق المواطن الفرد.

إن المنظرين القوميين من فلاسفة أمثال عفلق والبيطار والأرسوزى وجدوا أمامهم نموذجين يمكن دمجهما معا من أجل الوصول إلى الهدف القومى الوحدوى: النموذج الإسلامى الأول، ثم النموذج الألمانى المبهر حينذاك عندما تحالف العسكر مع الإقطاع ووحدوا الإمارات الألمانية، ومن هنا وعند التطبيق قام التحالف فى بلادنا بين العسكر والإسلاميين، حتى يجد القوميون أسساً نظرية لدعوتهم مستمدة من الخطاب الدينى، ولضمان ولاء الشارع للشعارات الوحدوية المعلنة التى هى ذات شعارات الإسلام السياسى، فنحن أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، تقوم على أسس توحيدية واضحة أهمها وحدة الدين ووحدة اللغة ووحدة

التاريخ.فهل ثمة اختلاف واضح بين دعوة الإسلام السياسـى وبين اللاءات القومية التى رفعتها الأنظمة السياسية القوميـة التى حكمت بعد الاستقلال؟

وحتى لا يبدو القوميون تابعين تمامـاً لرؤيـة الإسـلام السياسى لجأ بعضهم إلى شطب الدين من تلـك التأسيسـات الوحدوية، وبهدف الالتقاء مع النشأة الأولى للخطاب القومى العربى فى بر الشام، وهو الخطاب الذى كان يهـدف إلـى الخلاص من ربقة الاستبداد العثمانى مع الحفاظ على حقـوق الطوائف غير الإسلامية وكان أبرز دعاتـه مـن مسـيحيى الشام. لكن مع ذلك تظل بقية الشعارات الوحدويـة المعلنـة كاملة التطابق بل وكاملة التبعية للخطاب الإسلامى السياسى.

خذ مثلا وحدة اللغة، والمقصود اللغة العربيـة، واللغـة العربية لم تكن لغة البلاد الشامية أو الشمال أفريقية قبل الفتح الإسلامى، إنما كانت بالتحديد لغة جزيرة العرب وبشكل أدق لغة قريش، وهى أيضاً لغة القرآن، وجاءت إلـى الشـعوب المفتوحة مقرونة ولصيقة بالإسلام وأهله القادمين من جزيرة العرب، فهى عنصر إسلامى أساسى وفد مع الإسلام الفـاتح ولم يكن أصيلاً فى البلاد المفتوحة. وعليه فالمقصـود هنـا بوحدة اللغة هى تلك الوحدة التى بدأ تكونهـا فـى الطـور الأموى بالفرض القسرى للغة العربية كلغة جامعة لشـعوب الإمبراطورية، ومعنى ذلك أن يبدأ تاريخ الأمة جميعه مـن تلك اللحظة، أو مع الفتح الإسلامى بمعنى أوضح، وهو مـا يعنى إلقاء كل تاريخ المنطقة القديم والأصيل خارج التـاريخ العربى. هذا علماً أن التاريخ العربى بدوره هو تاريخ العرب الفاتحين وليس تاريخ البلاد المفتوحة،وهو ما تنطق به كتـب

التاريخ والأخبار والسير الإسلامية، التى لا تكاد تجـد فيهـا ذكراً للشعوب المفتوحة أو ما تعلق بها من أحداث بقدر مـا هو سرد لسير الولاة والسادة العرب القادمين مـن جزيـرة العرب ومن ثم لا يخرج المنهج القومى فى لاءاته الوحدوية عن الأصول المعتمدة لدى تيار الإسلام السياسـى ورؤيتـه لتاريخ المنطقة جميعه كتاريخ طائفى بالكامل.

وهنا يطرح السؤال نفسه: أين الوطن ومفهوم المواطنـة فى كلا الخطابين؟ بل وربما أين المواطن؟

نحن نعلم بالطبع التقسيم التقليدى للدنيا حسـب الرؤيـة الإسلامية التقليدية، فهناك حزب الله وحزب الشيطان، هـذا تقسيم تصنيفى للبشر، فأين الأوطان؟ هم يقسمون الأوطـان بدورها قسمين لا ثالث لهما أو داريـن: دار الحـرب ودار السلام.

وهذا يعنى أنه ليس هناك شعب واحد متجانس فى وطـن بعينه، فحزب الله أفراد بعضهم داخـل الـوطن وبعضـهم خارجه فى السعودية وبلاد الأفغان وفى البوسنة وفى نيجيريا وبلاد تركب الأفيال، كذلك شأن حزب الشيطان فهو أيضـاً أفراد بعضهم داخل الوطن وبعضهم خارجه لأنه حزب غير المسلمين على الإطلاق.

وهنا لا يوجد وطن بالمعنى الدقيق للكلمة لأن الحدود بين دار الحرب ودار السلام متحركة قابلة للتمدد أو الانكماش فى الاتجاهين وحسب الظروف، كما لا توجد شعوب إنما توجـد أمة، كلمة معنوية، مجرد عبارة فوق كل الأفراد، وأهم مـن

كل الأفراد، والبديل المستخدم عادة لدى القوميين بديلاً عـن الشعب عبارة الجماهير، وهى بدورها معنى مطلق هيـولى، لا يصح تحديده،لأن التحديد سيبرز التنوع والتمايز بين مـن يدين بالإسلام ومن لا يدين بالإسلام، بينمـا مـن لا يـدين بالإسلام تحديداً أصيل فى مواطنتـه أكثـر مـن الوافـدين الفاتحين، ويمتد تاريخهم فى مواطنهم قبـل ظهـور هـؤلاء الوافدين بأزمان طويلة. لذلك يصبح الوطن هو وطنى حبيبى الوطن الأكبر الذى يمكن أن يتمدد فيضم فجـأة الصـومال وإريتريا وجزر القمر، تعيش فيه جماهير عربية هم حـزب معنوى فى وطن معنوى.

ومثل تلك الرؤية للوطن ومعنى المواطنـة تعـود إلـى جذور قديمة جاءت مع الوفود العربية من جزيرة العـرب، فالقبيلة فى جزيرتها كانت لا تعـرف معنـى المواطنـة ولا معنى الوطن، فهى دوماً وأبداً متحركة وراء الكلأ والعشب، ليس لها وطن بعينه، لذلك اخترعت شيئاً معنوياً ينتقل معهـا أينما ارتحلت أطلقت عليه (الحمى)، لا هـو أرض ولا هـو تاريخ ولا هو مواطنة، فقط هو معنى. ومن ثم انتقلـت ذات المفاهيم للطروحات القومية والمتأسلمة ليصبح الوطن معنـى وتصبح الجماهير معنى يجمعهما معاً معنى ثالث هو الأمـة التى مصلحتها فوق كل الأفراد مهما كانت التضحيات بحقوق الفرد وكرامته.

بهذا المنطق كان طبيعياً أن يقبل الوطن احتلالاً إخشيديا أو عثمانياً أو فاطمياً أو أموياً لا فرق فهم سـادة عـرب أو مسلمون وكفى بذلك سبيلا، كذلك كان طبيعياً أن يحتل صدام حسين الكويت ويجد من يصفق له من القوميين ومن يدعمـه

شرعياً من الإسلاميين،وكان طبيعياً أن تضيع هوية الـوطن بعد الإلقاء بتاريخه بين النفايات لأنه لا عربى ولا إسـلامى، وأن تظهر الطائفية والانقسامات داخل الوطن الواحد.

يبقى أن نعى أن التوحد لا يأتى من فوق بل من تحـت وأن الكرامة لا تبنى بالمعتقلات والترسانات العسكرية التـى نخسرها دوماً فى ساعات، إنما تأتى من كرامـة المـواطن، وأن كرامة مواطن واحد تعدل كرامة كل الحكومات وأن أول ما يعطى معنى الأمة وجودها المـادى علـى الأرض هـو المواطن الحر الواعى، وأن البداية تكون بالوطن ثم بالمحيط، وأن بين الوطن والمواطن علاقة قانونية دستورية واضـحة أول ما تؤسسه هو حريات المـواطن الفـرد بكـل حقـوق المواطنة أيا كان دينه أو لونه أو جنسه. وأن الوطن لا يكون وطناً بدون تاريخه الذى صنعه شعبه، ومن هنا نبدأ.

الذئب(*)

فى توصيفه لحالة العقل العربى اليوم، يقـول الـدكتور سعد الدين إبراهيم إن هذا العقل يركن إلى «الادعاء بوجـود مؤامرة كبرى تهدد الذات الوطنية والذات القوميـة، تمهيـدا لإشاعة الخوف ثم الرعب ثم الذعر من خطر خارجى ماحق يبغى تدمير الأمة.. ثم إلى جمود أو شلل حركى لا يبقى معه من قوة تعبيرية إلا الندب واللطم على الخدود أو البكائيات أو أحيانا البحث عن كبش فداء مقدور عليه وتكفيره أو تخوينه، وأحيانا أخرى الاكتفاء بالمقاطعة والشجب والرجم، وفى حالة العجز القصوى يقيم الصلوات لكى ينزل بأصحاب المـؤامرة مصيبة تعصف بهم.. وحتـى **حينمـا كـان يـتم عـرض المعلومات والحقائق فلم يكن يلتفت إليها**، فالمعلومات تعرقل التدفق السهل من الهواجس للمخاوف وللذعر وللرعب للندب للاطم لتفريغ شحنات الخوف والغضب والإحباط فـى كـبش فداء.. والمعلومات تعيق هذا التسلسل الذى أصبح إدماناً لدى المثقفين المصريين، فهو مثل كل إدمان، يعطى إحساساً زائفاً بالمتعة وإبراء الذمة وإراحة الضمير، فما داموا قـد كشـفوا المخطط وأمسكوا بالخائن أو العميل، فلا شئ يهم.. وتظـل مشكلاتنا الحقيقية تتفاقم حتى تتحول إلى أزمات ثم نكبات».

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف بتاريخ ١٩٩٩/٣/١ العدد ٣٦٩٠.

والمعلوم أن فكرة المؤامرة لا يتبناها إلا المهزوم وغير القادر على تجاوز هزائمه المتتالية، دون أن ينظر فى داخله ليرى الأسباب الداخلية لهزائمه، وأحيانا - كما فى حالتنا - نصر على عدم وجود أى أسباب داخلية تستدعى النظر، إذن لابد أن الأسباب تكمن خارجنا، إنها المؤامرة الصليبية الاستشراقية الصهيونية.. وهلم جرا.

نحن نحيل المؤامرة للمختلف عنا، سواء كان هذا الاختلاف فى العنصر أو فى الدين أو فى الرأى أو فى الدرجة، من ليس منا فهو علينا، و(منا) هنا تعنى الذوبان الكامل والتبعية التامة والطاعة المطلقة لثوابتنا التاريخية التى تراكمت على كواهلنا يوماً وراء يوم حتى صارت جبالاً رواسياً راسخات.

إن الاختلاف يعنى أن تكون نقيضاً للهوية، بل وضدها، بل متآمراً عليها، وهذا بوضوح هو عين الفاشية وصلبها وجوهرها التليد، فى أبدا لا تعترف بحق الاختلاف، لأنه يتهددها، ويتهدد قوامها الأيديولوجى الأحادى الصارم، كما يعنى أنها تعانى من خطأ ما يستحق المخالفة والاعتراض، وهى لا تقبل إلا الكمال، وترى أنها المالك الدائم لكل الحقائق الكاملة الثابتة. المخالفة تعنى أن فيها نقصاً وهى لا تقبل النقص، لذلك لا شك أن المخالف هو الناقص، هو المتآمر، لأنه يتهددها، ومن ثم يجب الضغط عليه لاستتباعه أو تسخيره، أو إن كان بالإمكان تصفيته. ومن ثم فإن الآخر المختلف لا تكون له حقوق المواطن، بل وربما لا تكون له حقوق الإنسان كإنسان.

ولأن هذا المنهج هو الكمال كله، فلا شك أنـه متصـل بالمطلق التمامى، لذلك تكون الأيديولوجية الفاشية أيديولوجية تمامية بدورها، لديها كل الإجابات وكل الحلول لكل سـؤال ولكل شأن.

والكمال المطلق في النهاية ومن البداية فكرة دينية، لذلك ترتبط الفاشية وتفرش ألويتها دوما على أرضية دينية تكتسب منها القداسة، لتمنحها للعنصر القومى الـذى تنتمـى إليـه، وهكذا كانت عبر التاريخ من هتلر إلى موسولينى إلى صدام حسين.

ومع القداسة التى تميز العنصر والقوم يتم نفى الآخـر المختلف حتى لو لم يعلن مخالفته، لأن وجوده ذاتـه يعنـى المخالفة والنقيض، فكيف تكون مواطناً فى ألمانيا الهتلريـة دون أن تكون نازياً؟ وكيف تكون فى عراق صـدام حسـين وتعلن أنك من عرق كردى، أو من مذهب شيعى، ثم كيـف تكون فى مصر العروبة وتقول إنك قبطى؟ إن هـذا يعنـى نقصاً فى السيادة التمامية الكاملة، لذلك فإنك غيـر موجـود بالمحو الدائم المقصود والمستمر للذاكرة التاريخية،كما فـى حالة الزمن القبطى فى التاريخ المصرى، وإما ينبغى إزالتك من الوجود كما حدث فى عراق صدام، رافع لـواء الأمـة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة. والأمة الواحدة تعنـى على الأقل وحدة تمامية بين عناصرها فى القطـر الواحـد، ومن ثم عقّب صدام على إبادته للأكراد فى حديثـه للباحثـة الأمريكية هيلمس بكل ثقة بالقول: «يستطيع القائد أن يصوغ شعبه كيفما أراد، وكى يفعل ذلك لا بد أن تكـون الجمـاهير

موحدة أولا». وهو يعنى بلا تأويل (موحدة فيه)، فى ذاتـه القدسية. أليس هو حامل لواء الرسالة الخالدة للأمة العربيـة الواحدة ؟

ومن هنا يستمد قداسته، وتصبح لـه الأسـماء التسـع والتسعون الحسنى، فالزعيم فى النظام الفاشى يصبح بـديلاً للنبى، كما كان خليفته طوال تاريخنا العبقرى من أموى إلى عباسى إلى عثمانلى.. وظهوره يأتى وقت الأزمـات لينقـذ البلاد والعباد، ويعيد زمن الفتوحات. انظـر معـى الكاتـب القومى اليسارى العروبى الناصرى (معا؟!) أميـر اسـكندر يشبه مولد صدام بظهور نجم فوق بلاد العرب، والجمـاهير مسلوبة تنتظر فقط مولد الزعيم المنقذ البطل الملهم المخلّص المعجزة. وهنا تأتى سمة أخرى واضحة فى المنهج الفاشـى هى الإيمان بالمعجزة.أليست الرسالة الخالدة ذاتها معجـزة، وحامل لوائها معجزة، والمقدسات عموماً تمتلئ بالمعجزات. كما أنها اصطفائية، تصطفى العرق، وتصـطفى الطائفـة، تصطفى الحزب، تصطفى الزعيم، تصـطفى خيـر الأمـم، وعلى البقية الذوبان فى الأوحد أو التلاشى، أو يكونوا خونة وذيولا للمؤامرة الدولية الكبرى.

وعندما لا يتطابق الواقع مع المشروع العرقى الطـائفى الفاشى، فهذا لا يعنى خطأ فى مشروع خير الأمم، إنما الخطأ فى الواقع، فالأمة، والقائد مبرآن من الخطأ بحتمية الاصطفاء القدسى، فالأمة هى الكمال بشهادة المقدس، والقائـد يسـتمد كماله منها ثم يمنحها ديمومة الاستمرار القدسى بقيادته.وهذا يعنى أن الواقع هو الخطأ، وبما أن واقعنا فى الداخل يجـب

أن يكون كاملاً بدوره فلا شك أنها المؤامرة القادمة من المتآمر الخارجى الدولى الصليبى الصهيونى الاستشراقى.

ألم تنتظر قيادتنا السياسية والعسكرية قدوم طائرات العدو فى ١٩٦٧ من الشرق، فجاءتنا من الغرب (؟!) كذبة لعذر أقبح من ذنب، وعلى ذات القياس اكتشف نظام صدام أن مطالب الشيعة الحقوقية فى كامل المواطنة وانتفاضتهم مجرد مؤامرة إيرانية دبرها الشاه والخمينى (؟!). أما الحركة الكردية فهى نزعة عمالة متأصلة فى عائلة برزانى خلفاً عن سلف. فالشيعة ليسوا طائفة دينية مخالفة،وإلا كيف وحد القائد الوطن بمشيئته؟ والأكراد ليسوا عرقاً يرفع ذات المطالب، فهذا بدوره ينتقص من كمال المنظومة وقائدها، فليس هناك فى الحقيقة سوى شعب واحد وعرق واحد ودين واحد ومذهب واحد. ليس هناك أى تعددية وإلا تعددت الآلهة، وبسبيل ذلك كان لابد أن تتسم الفاشية الفردانية بالقمع الدموى وإهدار كل الحريات، من أجل وحدة الأمة.

والمعلومات والحقائق التى لا يردون أبداً عليها، تفصح عن كابوس مرعب رهيب، حيث تمت التضحية بنصف مليون كردى من ١٩٧٠ حتى ١٩٩٧. وكانت إبادة الأكراد تتم على قدم وساق طوال عقدين من ١٩٧٠ وحتى ١٩٩٠ دون أن يحرك العرب ساكنا أو حتى يعلنوا استنكارهم، بل كنا لا نسمع بتلك الأخبار إلا من الإذاعات الأجنبية، حرصاً على تماسك الأمة،ثم إن الأكراد ليسوا من العنصر العربى، كما أنهم يعلنون كرديتهم ويعتزون بها وتلك ثالثة الأثافى.

هذا غير مليون عراقى وإيرانى تمت إبادتهم فى حرب الخليج الأولى، ومن ٦٨ حتى ١٩٩٨ كان صدام قد اغتال ربع مليون عراقى من أجل الوحدة الوطنية التى هى الصخرة التى ستقام عليها الوحدة العربية، تلك الوحدة التى بدأها باحتلال دولة الكويت التى انتهت بكارثة كاملة المواصفات، ناهيك عن خسائر الأموال التى زادت عن ألف مليار دولار تم إهدارها من رصيد العرب فى حربى الخليج الأولى والثانية فقط لعنترية الفاشية العربية التى لم تزل تجد من يؤيدها دون أى شعور بالإثم أو الخجل،فلماذا الخجل والأمة فوق الأفراد والزعيم فوق الأمة، والكل فى واحد؟

ولعلنا لم نزل نذكر ذلك الإيمان الأسطورى بالمعجزة عند القائد الملهم، فعبد الناصر أكد وهو يغلق مضائق تيران فى ١٩٦٧ للعالم أجمع أنه لن يتراجع عن قرار الحرب، ولو جاءت أمريكا فسيجعلها تشرب من البحر الأبيض، أو من الأحمر إذا لم يعجبها طعم الأبيض، أما صدام فأعلن فى حديثه لمحطة C.N.N الأمريكية قبل الهجوم على بلاده بأيام أنه لا يشك فى انتصاره على جيوش الثلاثين دولة التى أحاطت ببلاده ولا واحد فى المليون. وكانت النتائج معلومة فى الحالتين، ولم نزل نتجرع آثارها المرة كل يوم.

والمعجزة كامنة فى العقلية البدوية الرعوية العربية، والبدوى كان يؤمن إيماناً لا يهتز بالمعجزة، لأن بيئته طبعته بطابعها، فهو غير فاعل فى أرض مجدبة لا تقبل زرعاً ولا حصداً، غير منتج، يستند إلىظل سدرة فى قيلولة متراخية دوماً حتى تفاجئه الخراف بالمواليد بعد التلاقح، أو بالمطر بعد قحط، أو بالقحط حتى الهلاك جوعاً، فالحياة يمكن أن

تنتهى فجأة، أو تترعرع فجأة، بصدف إعجازية خارج إرادته وفعله وما عليه سوى الانتظار. والفاشية العربيـة لـم تقـم بتفعيل تراث تلك المواطن جميعاً فى ضفيرة واحدة منتجـة، بل ألقت كل ماقبل العروبة فى المهملات،من تـاريخ آشـور بانى بعل وحدائق بابل المعلقة، إلى تـاريخ بنـاة الأهـرام والكرنك ومهندسى الرى العبقرى مصر القديمة، إلى معجزة الفينيقيين البحرية والأبجدية، كل هذا يفرق ولا يجمـع، إنـه شعوبى ملعون. وأبقت فقط على الوافد الموحد المعجزة، مع نفى كل مخالف.

والقوميون والمتأسلمون يرون وفق تلك الفلسفة أنه مـن غير الجائز بل ومن الخيانة القومية أن نتحدث عـن مأسـاة شعب العراق تحت فاشية صدام وبعثه. لأن الواجب القـومى والدينى يحتم على الجميع الوقوف صفاً واحداً مـع صـدام بحجة الوقوف مع شعب العراق المحاصـر، وحـين يرفـع الحصار يكون لكل مقام مقال، فنتحدث عـن تلـك الأمـور الجانبية التافهة كالديمقراطية وحقوق الإنسان وما إليها. فمـا دامت هناك معركة وعدو لا هو عربى ولا هو مسـلم فـلا مجال للحديث عن ديمقراطية ودكتاتورية، لا مجال للحـديث عن الداخل الرهيب. ذات القصة القديمة، الذئب على الحدود دوماً، إذن لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

والمصيبة أن الذئاب كثيرة وسـتظل دومـاً موجـودة، وسيظل الوطن دوماً فى طوارئ، ومنذ بدء التاريخ وهو فى طوارئ، والذئب دائماً على الحدود. وهذا يعنى أن علينـا أن نقف مع ذئبنا، ضد الذئب الغريب، حتى يأكلنا هذا أو ذاك.

عقلية المؤامرة وتبرير الهزائم(*)

إن قدر أى مفكر وطنى مخلص اليوم هـو أن يحمـل صليبه على كتفه ويسير وسط جحـور الأفـاعى وحقـول الألغام. وبين أكاذيب وأباطيل تحولت عبر التاريخ إلى حقائق ورايات وضعت داخل مناطق حدودية فكرية حرام. وتحولت إلى تابوهات أصبح من غير المسموح الاقتـراب منهـا أو مناقشتها، لأنها أصبحت المشجب التاريخى العظيم الذى نعلق عليه أخطاءنا ونبرر به هزائمنا.. ومن يحاول النظر خلـف تلك الحجب المحرمة تنالـه لعنـة التحـريم وهتـك سـتر المصطلحات التى أصبحت شبه مقدسـة بعـد أن اكتسـبت بالتكرار والتقادم مصداقية زائفة. وتتمثـل تلـك المنـاطق المحرمة فى القول بمؤامرة عالمية يقودها الشيطان وحزبـه ضد العرب والمسلمين، فقط كراهية فيهم وحقداً عليهم لمـا حققوه من إنجازات وتفوق (تـاريخى بـدوره). وأن تلـك المؤامرة هى التى تقف دوماً وراء هزائمنا ونكساتنا ونكباتنا،

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/٣/١٣ العدد ٣٦٩٢.

وتتلخص اليوم فى عبارة واحدة متكـررة هـى «المـؤامرة الصليبية الاستشراقية العلمانية الصهيونية»(؟).

توقف المنطق، وتعطل العقل، وأصبحت الألفاظ بـديلاً مناسباً تعويضياً، تحمل تاريخاً عاطفيـاً لا عقلانيـاً. وعنـد المحاولة للنبش وراء الأسباب الحقيقية لانهيار الأمة الكارثى، تخرج الأصوات التى تعفنت لكثرة ركودها بين موتى التاريخ باتهامات التكفير الوطنى والدينى، مع نغمـات التحـريض، تحريض الحكومة، وتحريض الفاشية الدينية. وبعضها يقـوم بذلك لشعوره أن المراجعة وإعادة قراءة الذات ونقد التـاريخ والمنهج يزلزل مصالح، يجنونهـا علـى حسـاب الـوطن ومستقبل أبنائه، وبعضها يقوم بذلك عن إيمان حقيقى وصادق بالمؤامرة، إيمان وصل به إلى حد العمـى عـن الرؤيـة، فيضرب الوطن فى مقتل، من حيث هو يريد رفعته وقوتـه، أو من حيث هو يتوهم ذلك.

وفى زمن محاولة النهضة وبداية إلقاء الضوء على خطأ الداخل، ومنهج التفكير الذى أودى بنا إلى هذا الحال، تعرض أصحاب فكر النهضة والأنواراذات ما يتعرض له اليوم مـن يحاولون تجاوز الهزيمة نحو غد أفضل. وفى هذا المقام نجد عبارات كاشفة للحال الذى يصل إليه المفكر الوطنى نتيجـة التهجم والافتراء من عقول بيوت العنكبوت، فيقـول عميـد الأدب العربى طه حسين: «ولست أتمدح بأنى أحب التعرض للأذى. وربما كان مـن الحـب أن أحـب الحيـاة الهادئـة

المطمئنة، وأريد أن أتذوق لذات العيش فى دعـة ورضـا. ولكنى مع ذلك أحب أن أفكر وأحب أن أبحـث، وأحـب أن أعلن على الناس ما انتهى إليه البحث والتفكير.ولا أكـره أن آخذ نصيبى من رضا الناس عنى، أو سخطهم علـى، حـين أعلن إليهم ما يحبون وما يكرهون / الأدب الجاهلى / ط١١، ص١٦٥».

ولكن رائـد الأنوار لم يعش حتى زماننا ليـرى الهـوة بيننا وبين الآخر تتسع اتساعاً هائلاً، والفجـوة الحضـارية تصل فى تجاوزها إلى حد الاستحالة فيما يرى الدكتور مراد وهبة، وأصبح الفارق يتسع يومياً كالمتتالية العددية، نسـجل كل يوم تراجعات نحو مزيد من الفكـر الطـائفى الفاشـى العنصرى، ويسجل الآخرون كل يوم مزيداً مـن المكاسـب لرصيد الحريات. نغوص كل يوم أكثر فى متاهـات الفكـر الأسطورى الاتكالى المغلق على ذاته وينذر بخروجنـا مـن ساحة التاريخ،أو أنه بالأحرى قد أخرجنا بالفعل من التـاريخ فيما يرى الدكتور فوزى منصور، بينما الآخر يتعمق إيمانـه بالمنهج العلمى فى التفكير، فينجز ويكتشف ويخترع وينفـتح على كل علوم الدنيا، حتى أن أسـاطيره أصـبحت (خيـالاً علمياً)، خيالاً مقنناً مدروساً يقف على أرض العلمية. أصبح الخيال بدوره خاضعاً لشرط المنهج العلمى.

لم يعش العميد حتى يرى إسرائيل بنت الخمسين عامـاً تمارس جبروتها (بعلمها وانفتاحها) على كـل العـرب بـل وربما كل المسلمين (من وجهة نظر المسلمين)،بينما ينتظـر

العرب النتائج التـى سيحسـمها لهـم الإسـرائيليون فـى الانتخابات(؟!).

إن الفارق الهائل حسم الموقف مع المفكر الوطنى، فلـم تعد المسألة فقط أن (أحب أن أفكر وأحب أن أبحـث)، بـل أصبحت قضية نضالية فى المقام الأول. مـن أجـل وقـف الهبوط إلى مزيد من التردى. إن الأمر قد أصبح مصير أمة، ويستحق شرف النضال الفكرى لتجاوز كل الشعارات المعلنة بل وتجاوز كل شروط المنهج السائد في التفكير، وهـو مـا يعنى مخالفة السائد والسير عكس التيار. وهنا تكون الضريبة التى يدفعها المفكر بحجم ما يحمل من هم، وبقدر ما يمعـن فى المخالفة.

منذ الفتنة الكبرى فى التاريخ العربى ولما يمض علـى رحيل الرسول المؤسس لدولة العربماينوف على عقد مـن الزمان، لم يجد العربى تفسيراً لما حـدث سـوى المـؤامرة الشيطانية التى تمثلت حينذاك فـى الشخصـية الأسـطورية المزعومة (عبد الله بن سبأ). وهى الفكرة التى لو أخذنا بهـا دون النظر للأسباب الحقيقية داخل دولة المسلمين أنفسهم لنال ذلك من الجميع، من الصحابة، ومن دولة المسلمين.

وساعتها لم يسألوا أنفسهم وهم يبررون الفتنة بمـؤامرة ابن سبأ اليهودى: كيف تمكن شخص منفرد من فعل كل مـا حل بدولة الإسلام وهى فى أوج قوتها؟ وهـى تلـزم كافـة الفروض والسنن مما يعنى أنها كانت تحت رعاية الله مباشرة

وحمايته(؟!). إن فكرة المؤامرة حينذاك تصور الأمة هزيلة ضعيفة مترنحة يستمع كبارها للوشايات، كلهم آذان، يسارعون إلى الفتنة مع أول همسة. بينما ابن سبأ يستمر فى المؤامرة وينشر كل ما يخالف الإسلام حتى بات مشهور الكفر، ومع ذلك يستجيب له صحابة رسول الله من فورهم، فينقسمون شيعاً ويقتلون بعضهم بعضاً. هو المنهج العربى التليد الذى يأنف من الاعتراف بالخطأ فتتراكم أخطاؤه وتتكاثر كبواته. منهج يأبى أن يبحث عن أسباب المصائب فى الداخل لأنها الأمة المختارة وخير الأمم،فهى مبرأة عن الخطأ والنقص. وليست النكبات لأسباب تكمن فينا إنما هى خارجنا، وعلينا دوما أن نبحث عن تلك الأسباب فى المؤامرة الخارجية. الصليبية الاستشراقية الصهيونية العلمانية(؟!!).

هل بالإمكان إذن مناقشة تلك المؤامرة المشهورة؟ مناقشة الفكرة ذاتها، على محك الفكر المجرد من المصلحة والعاطفة؟ إن هذه المناقشة هى بمثابة السير فى وادى الأفاعى، الذى يحميه حراس المصطلحات المقدسة، لكن إذا لم يكن هناك مفر من إعادة مناقشة كل مفردات منهجنا، فلابد من القول والمناقشة، بغض النظر عن الحرس الدينى والحرس الثورى والحرس القومى، لاعتقادنا بانتهاء صلاحية هؤلاء جميعاً، ولا بأس من بعض (حلاوة الروح) المسموح بتجلياتها فى ضربات عشوائية تضر بأصحابها وبمناهجهم وتكشفهم أمام الناس، أكثر مما تضر بالمحاولات المخلصة للخلاص والتجاوز.

بفكرة المؤامرة نستدعى مـن التـاريخ زمـن الغـزو الأوروبى المعروف بالصليبى، ونسقط سياق التاريخ جميعـه وظروفه، ونتحدث عن مؤامرة صليبية نقصد بهـا مـؤامرة الغرب الأوروبى الأمريكى. ولم نتساءل: هل حقـا تحتـاج أمريكا لمؤامرة لتحقيق مصالحها فى بلادنا؟ والعجيب أننـا نقول فى الوقت ذاته أن هذا الغرب علمانى كافر يريد نشـر الفكر العلمانى فى بلادنا للقضاء على الإسلام بمؤامرة خبيثة. وهنا تقف محاولا الفهم فلا تجد إجابة: هل الغرب مسـيحى مؤمن صليبى، أم علمانى بكل ما يصفون به العلمانيـة مـن كفر وتحلل وانهيار قيمى.. الخ؟ أم أن عقلية المـؤامرة قـد أصابتها الشيزوفرينيا؟

المصيبة أن تسمع تلك النغمة عـن المؤامرة الصـليبية فى إعلامنا ومقررات مدارسنا، وهى النغمـة التـى تقصـد بوضوح مؤامرة مسيحية ضـد الإسـلام والمسـلمين، لأن المسيحيين هم أتباع الصليب، ويتم الحديث هكذا فى الهـواء الطلق بلاأى حسابات تراعى ماذا يفعل نشر فكرة المـؤامرة الصليبية، فى صلب الوحدة الوطنية، وكيف ينظر البسـطاء والصغار إلى إخوانهم فى الوطن، أو حتى الكبار: ألم يـدع السيد مشهور زعيم عصابة الإخوان المحظورة (محظـورة كده وكده؟!) إلى تسريح المسـيحيين مـن الجـيش تحسـباً لخيانتهم للوطن؟

على المستوى التاريخى نعلم أن العرب خرجوا من جزيرتهم يحملون ديناً جديداً هو الإسلام، احتلوا تحت رايته وباسمه بلدان حوض المتوسط الشرقى، وضمنه بيت المقدس، فى زمن كانت فيه الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت إلى شرقية بيزنطية وغربية حافظت على اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وهؤلاء وأولئك كانوا مسيحيين، ويرون أن من حق المسيحيين أن تبقى مقدساتهم مثل كنيسة المهد وكنيسة القيامة تحت حكمهم. ومن هنا شنت دول بقايا الإمبراطورية الرومانية المقدسة حروبها لاسترجاع المقدسات المسيحية للحكم المسيحى.

ونحن نعلم أن الجوهر والقلب من الديانة المسيحية هو المحبة، لكن مع التعصب الدينى انقلبت المحبة حينذاك مدفوعة بأطماع الملوك والأمراء إلى فعل عدوانى جوهره الكراهية. ولم تتولد الكراهية إلا عن كراهية مماثلة على الطرف الآخر. فلم تقم تلك الحروب إلا بعد احتلال السلاجقة لبيت المقدس وانتزاعه من الفاطميين. واتباع السلاجقة سياسة خرقاء وعنيفة فى وجه الحجاج المسيحيين سواء المواطنين أو الآتين من أوروبا. وهنا جاء مسيحيو أوروبا ليخلصوا وطن المسيح من الحكم الإسلامى. وبالطبع ما إن تدور آلة الكراهية العنصرية والطائفية حتى تطحن الأبرياء بتعصب أعمى، وتم قتل مسلمين أبرياء بأعداد هائلة إبان ذلك الغزو، ولم ينج اليهود بدورهم، بل تم اختصاصهم دون

المسلمين بالإلقاء فى اللهيب الذى اوقدوه فى المذبح اليهودى ذاته لهذا الغرض «انظـر محمـد علـى كـرد: الإسـلام والحضارة العربية ج٢، ص٢٩٦».

إن مشروعية تحرير الأرض بالحديد والنار مبدأ عـالمى يؤمن به العرب بدورهم، وهذا بالتالى من وجهة نظر مجردة يتمثل فى إعلان الصليبيين عن مشروعية هـدفهم كحركـة تحرير لأرض مقدسة من احتلال مخالف فى الديانة، وأنهـا مجرد استعادة للأرض التى سبق واستولى عليهـا العـرب الفاتحون، بل واستوطنوها، بل وعربوها، بل وأسلموها. هذه حجتهم فماذا لو تصورنا أن ما حدث كان العكس؟ ماذا لـو تصورنا أن الكعبة هى التى تم احتلالها من قبل عنصر غير عربى وغير مسلم الديانة؟ وما الذى كان سيفعله المسـلمون فى مشارق الأرض ومغاربها؟ ولماذا نتصور؟ فقط، نسـتمع إلى المعلن الآن عن الدعوة إلى تحرير القدس من الاحـتلال الإسرائيلى أول القبلتين وثانى الحرمين ومـوطن المعـراج وقبة الصخرة، بتجييش الجيوش وتوحيد العرب. أليس ذلـك مشروعاً؟ فلماذا نلبس الصليبية القديمة لبوساً شيطانياً مستمراً إلى الآن نستدعى فيه فقط الكراهية للمسيحيين المـواطنين، لأنه بالفعل ليس هناك الآن أية صـليبية بمعناهـا الحرفـى القديم؟ هل يمكن لهذه الفكرة التآمرية أن تصد عدواناً أو تقيم وطناً قوياً؟ أم أنها تؤدى إلى العكس تماماً؟ وهل كانت الحملة الصليبية ذاتها مؤامرة؟إن المؤامرة تحاك فى الخفاء والسـر وتفاجئ العدو بحيث تشل قدرته على المواجهة، فهل كانـت

الحملات الصليبية كذلك حقا؟ ثم هل يمكن أن نسمى دعوات التبشير حملات صليبية جديدة كما يصفها البعض؟ ألا نسعى نحن بدورنا للدعوة والتبشير بالإسلام؟ أم أنه حق مشروع لنا فقط؟ ثم ألا نحلم بعودة عصر الفتوحـات واحـتلال بـلاد العالمين؟ وهل من الصدق مع الذات اتهام الآخرين بالكيـل بمكيالين إضافة إلى التآمر وهذا منهجنا واضح معلن؟!

وماذا عن المؤامرة الاستشراقية؟

ستجد كتاباً كباراً لا يخرجون على ذات المنهج، بل هم من أسسوه إزاء الاستشراق، منهم مثلاً محب الدين الخطيب فى كتابه: الغارة على العالم الإسلامى. وفروخ والخالدى فى كتاب التبشير والاستعمار، تم فيهما قرن الاستشراق بالتبشير بالاستعمار. وأن المستشرق لا يمكن أن يكون مفكراً مستقلاً ومشغولاً بالعلم، بل هو لابد تابع لجهات رسمية معادية، وهو رأس الحربة فى منظمات سرية متآمرة على دين الإسـلام، وهو خلاصة ما تنتهى إليه من قراءة محمد الغزالى وأنـور الجندى لأنهما يريان الصراع بين الثقافة الشرقية الإسـلامية والثقافة الغربية المسيحية صراع وجود مصيرى. الاستشراق باختصار هو الوجه الأكاديمى الذى يلبس لبوس العلم للسياسة الاستعمارية الغربية المسيحية العلمانية(؟!). ويشـرح ذلـك الكاتب الإسلامى رضوان السيد بالقول: أن النظرة العربيـة الإسلامية ترى فى الاستشراق «فصلا من مـؤامرة كبـرى على الإسلام والمسلمين أسسها الغرب أياً كانت هويته، فهـو

عندما كان مسيحياً أراد ضرب الإسلام لنشر المسيحية بالقوة والتبشير، وهو عندما صار علمانيـاً أراد تخريـب عقائـد المسلمين لإضعاف مقاومتهم وحتى يسهل استغلالهم».

إننا حتى لو سلمنا بوجهة النظـر تلـك جـدلاً، فـإن الاستشراق بهذا المعنى سيكون أسلوباً غربياً لفهـم الشـرق والسيطرة عليه. هو دراسة للشرق وأديانه وعاداته ونظمـه دراسة علمية من أجل التحكم فيه بشكل علمـى سـليم. لأن منهجه العلمى غير مناهجنا التليدة،فمنهجه يقوم على معرفـة الطرف الآخر من خلال الدراسة العلمية وليس من المقدمات المقدسة وشبه المقدسة.بينما نحن ننطلق من كراهية الغـرب بالتمايز والانغلاق عنه، والتهرب من معرفته رفضاً نفسـياً فقط للاعتراف به، مع إنتاج معرفة مشوهة عنه نحاربه بهـا فتصيبنا النكسات والهزائم والنكبات.

لقد حقق المستشرقون وترجموا ونشروا أكثرالنصـوص الإسلامية والعربية التى هى عمد الإسلام الفكريـة، إضـافة لدراسة الشرق جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً وسلطوياً. مـاذا أراد ج. فنكل مثلاً من ترجمة كتاب الجـاحظ (الـرد علـى النصارى) ونشره فى بلاد النصارى؟ وماذا كان غرض هـ. س. نيبرج من نشر كتاب (الانتصـار والـرد علـى ابـن الراوندى الملحد وما قصد به من الكـذب علـى المسـلمين والطعن عليهم)؟ ولماذا نشر الأب ريتشار يوسف اليسـوعى كتاب الأشعرى (كتاب اللمع فى الـرد علـى أهـل الزيـغ والبدع)؟! أو لماذا نشر صورنسن كتاب الإيجى (المواقف فى

علم التوحيد)؟ولماذا نشر هو نفسه كتب مثل كتاب البـاقلانى «التمهيد فى الـرد علـى الملحـدة والمعطلـة والرافضـة والخوارج والمعتزلة»؟ ولماذا نشر ج. د. لوسـيانى كتـاب الجوينى «الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقـاد»؟ ولماذا نشر هنرى لاووست كتاب الكعبرى (الشرح والإبانـة عن أصول السنة والديانة)؟ولماذا نشر مرجليوث كتاب ابـن الجوزى (تلبيس إبليس)؟

وغير ذلك كثير لو أردنا سرده لاحتجنا مجلـدات فهـل كانوا ينشرون دعوة الإسلام فى بلادهم؟ نعـم كـان هنـاك المستشرق السياسى الذى يخدم غرضاً سياسياً بحتـاً، لكنـا بمنهجنا نخلط الحابل بالنابل وفق الرؤية العنصرية، ولا نعى أن مواجهة الآخر هى بمعرفته جيداً. لكن هذه المعرفة تواجه فى بلادنا بتهمتين كبيرتين: مساعدة الغزو الثقافي الذي يتهدد الهوية، والتطبيع مع العدو. تذكرت وأنا أكتب هذه الفقـرات كيف احتاربعض المسؤولين في بلادنا لوهلة إبـان اسـتقبال أول وفد رسمي إسرائيلى بعد كامب ديفيد. وكانت حيـرتهم حول ما هو شكل العلم الإسرائيلي ولونه ليرفع مع الزيـارة والمباحثات؟ أليس ذلك بكاف لتفسير الهزيمة؟ إننا أبـداً لـم نحاول أن نعرف عدونا قط، وفقط بدافع الكراهيـة النفسـية التي ترفض الاعتراف بوجوده. أليست تلك بعقليـة طفوليـة غاية في البدائية والسذاجة؟

وإذا كانت سياسة الدولة قد اتجهت نحو التصالح والسلام من أجل تنمية الداخل، ولو مؤقتاً، فلماذا نسـمح لإسـرائيل بإنشاء مركز أكاديمي في بلادنا يدرسنا عن قرب وتمـاس، ولا ننشئ مركزاً أكاديمياً مصرياً هناك؟ هـل هـو خـوف التطبيع؟ الدولة لا تخشي التطبيع،والحجة المعلنة أن المركز الإسرائيلي ليس أكثر من وكر للتجسس. والرد البسيط هنـا: إذن لماذا لا ننشئ بدورنا وكراً مصرياً للتجسس هناك؟ إنها ببساطة ذات العقلية وذات المنهج الذي يكتفي بذاته وبمعرفته الكاملة المقدسة وشبه المقدسة وكفي بذلك سبيلاً، لكـن إلـي مزيد من التراجع والنكوص والهزائم.

والآن ماذا عن المؤامرة الصهيونية؟ وهل كانت مؤامرة حقاً؟ لقد كانت حركة معلنة من البدايـة ومـع أول اجتمـاع للنخبة اليهودية لتأسيس وطن قومي لليهود، لكنا نحن من كان (ولم يزل) يعيش في زمن المعجزات، الزمن السحري، وأن كل ما يحدث لا يشغلنا، لأننا بفضل الله نحن الأقوي، وكـل قوي السماء والأرض معنا، فليأتوا، وليستوطنوا، ولـم يـتم اتخاذ أى خطوة تفيد بعلمنا بمايحدث إلا بعد البداية الرسـمية بأكثر من عشر سنوات، وعند قيام دولة إسـرائيل لـم تـتم المعالجة بمنهج علمي واضح، لكن أيضاً بمنهج العنتريـات الطائفي، فلاشك أننا نحن الغالبون لأننا جند الله. لكـن مـا حدث كان انتصاراً ساحقاً علي كل المستويات لتلك الأشتات وتلك الدولة الناشئة، ولاتزال تحقق كل يوم وجودها بين دول العالم.

... ...

فإذا كانت هناك مؤامرة في كل هذا، فمن هو المتـآمر فعلاً وحقاً وصدقاً ؟

أما المؤامرة العلمانية، فهى ما يحتاج إلى قول آخر، فى حديث آخر.

جذور الوعى الطائفى(*)

تثبت حقائق التاريخ أن الغازي المستوطن تقـوم فلسـفته الدعائية لتسويغ احتلال الأرض واستيطانها، علـي الإنكـار التام لوجود شعوب أصلية هي صاحبة الوطن المحتل عبـر تاريخه،والإصرار علي هذا التبريروترديده بشكل دائم،حتـى يختفي المواطنون الأصلاء وراء اكتساب الكذبـة مصـداقية الترديد المستمر.وهو ما أدته بجودة وكفاءة مؤسسة الدعايـة الصهيونية ونجحت فيه لفترة قصيرة ،لتثبيت دعائم الدولـة الناشئة تحت شعار (أرض بـلا شعب،لشـعب بـلا أرض) .وإبانها تم تغييب الفلسطينيين تماماً خلال تلك الحملة الدعائية العالمية الواسعة،لترويض الضمير الإنساني علـي ابـتلاع الكذبة التاريخية الشريرة وقبول الوضع الجديد .

وهي ذات الفلسفة التـي وقفـت وراء اختفـاء الشـعب المصري من كتب التاريخ الإسلامي،حتى بدت مصر فيهـا موطنا للقبائل العربية المهاجرة فقط، وكما لو كانـت إبـان فتحها فراغاً بلقعاً .بل إنك تجد روايات إخبارية عجيبة الشأن ،تزعم أن سكان مصر الذين اصطلحت تلـك الكتـب علـى تسميتهم بالأقباط من اللاتينية Egypt ، قد غرقوا جميعاً مع الفرعون في لجج البحر المفلوق بعصا موسى الثعبانية. ولم يبق بها سوي شراذم معدودة حتى جاء الروم واسـتوطنوها ثم. جاء العرب وطردوا منها الروم واستوطنوها بدلاً عنهم .

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/٣/٢٠ العدد ٣٦٩٣.

أما من قال بوجود شعب مصري أصيل في تلـك الأرض ،فقد قالها في عجالة سرد أحداث الفـتح، وبحيـث لا يعـود القارئ يتذكرها بعد ذلك في خضم السرد الطويل والمتـأني لتاريخ القبائل العربية في مصر أفراداً وشـيوخاً ومسـاكناً ،والحكاء التفصيلي لحكام مصر وسادتها وولاتها وأشـرافها وقضاتها العرب.حتى لا تكاد وسط هذا الزخم العربي تجـد ذكراً لمصري مواطن بين الأبواب الطوال ،إلا عند الإشارة إلي أحداث طارئة تتعلق بجمع الجزية ،أو عند التلميح إلـي أحد كتاب القصر العربي الحاكم من القـبط، أو إلـي أحـد المترجمين. وما كان يتم ذلك إلا عند الحديث عـن مصـر كمصدر للتمويل والتموين والخراج الذي كان يتم نزحه آنذاك إلي عاصمة الخلافة.

وهي أيضا ذات الفلسفة التـي اسـتمرت باسـتمرار ذات المنهج وذات العقلية ولم تزل فاعلة حتى اليوم ،فهـي التـي دعت الحكم السوداني لنفي أقلياته العرقيـة والطائفيـة مـن حسابات دولته الإسلامية المزعومة ،حتى مزقـت الحـرب الأهلية البلاد والعباد .وهي ذات الفلسفة التي دعـت النظـام العراقي إلي نفي عراقيين غير عرب كالأكراد ومواطنين من غير المذهب الحاكم كالشيعة ،من معادلاته السياسية ،فحـدث ما حدث وما يزال يحدث في العـراق العريـق وهـي ذات العقلية التي دفعت النظام الجزائري للـرد علـي انتفاضـة الأمازيغ احتجاجاً علي اغتيال معطوب الوناس ،بفرض اللغة العربية عليهم رسمياً ودون استثناء فحولت الانتفاضـة إلـي ثورة أحدثت شرخاً إضافياً لمجموعة الشروخ القاتلـة التـي يعاني منها المجتمع الجزائري.وأيضا هي ذات الفلسفة التـي

جعلت من المرأة العربية مجرد أقلية مضطهدة في المجتمـع أو ربما مجرد كائن.

والإحصاءات المعلنة تشير إلي النتائج التـي حصـدناها نتيجة سيادة الرؤية الطائفية علي مناهجنا ،بعد أن أدت إلـي صدامات وصراعات انجلت في السودان ولبنـان والعـراق ومواطن أخري عن مصرع ما لا يقل عن مليونى مواطن ، وضعف هذا العدد من الجرحى ،وضعف هذا الضعف مـن المشردين والنازحين واللاجئين . بينما لم يفقد كل العرب في حروبهم مع إسرائيل أكثر من مائتي ألف مواطن ،أي بنسبة عشرة بالمائة إلي صراعاتنا الداخلية ،بدفع من وعي طـائفي عنصري غير وطني ولا إنساني .

هذا، رغم أن مواجهة الآخر المتفوق تبـدأ أولا بمواجهـة أسباب الضعف والتخلف في الداخل،من أجل تماسك وطنـي قوي متين يمكنه النهوض بعـبء هـذه المواجهـة .وهـي المواجهة الحضارية في المقام الأول ،والتـي بـدأت تنـذر باختفاء شعوب من مسرح التاريخ لأنها لم تتدارك أخطاءها ، ولم تتعلم لغة العصر ومعادلاته ،فخسرت معركة الحضـارة وأدت بنا إلي مجوعة هزائم وتراجعات جعلتنا نقبل بـالأدنى قياساً علي مطالبنا العنترية الكبرى .

ولا أظن عاقلا يختلف علـي أن أول أسـباب التماسـك الداخلي القوي والمتين يبدأ بترسيخ قيم المواطنة والانتمـاء للأرض وتاريخها،والاعتزاز بكل مواطن فيها بغض النظـر عن لونه أو جنسه أو دينه .بإرساء دعائم ليبرالية واضـحة تضمن مناخاً كاملاً للحريات، التي هي منبع الفرز الإبداعي اللازم للنهضة والخروج من مفترق طرق الأزمة ،ومن ثـم امتلاك الإدارة الوطنية.

لكنا في مصرنا العزيزة لم نزل نعامل تاريخهـا العريـق العظيم بعقلية سياحية ،لا بترسيخ مفاهيم الأصالة وعشق هذا التاريخ واحترامه والاعتزاز به،لإعطاء المواطن الثقة بالذات المصرية الدافعة للقدرة علي المواجهة والتحدي الحضـاري الذي سنخوضه شئنا أم أبينا. فعلي مستوي الإعلام نجد قنـاة النيل الدولية كريمة فيما يتعلق بآثار مصر القديمة،لأنها فقط موجهة للسياح،لغيرالمصريين أما بقية القنوات التي تخاطـب المواطن فتكاد تخلو إلا من البرنـامج الترفيهـي اللطيـف المعروف بخمسة سياحة .ومع ذلك لا تجد مواطناً واحـداً لا يقبل عليه برغبة ملحة في التعرف علي مجد بلاده ،ورغـم أنه يتعامل مع تاريخ مصر بمنطق السياحة وحده. فلا حديث ولو أسبوعي ولا ندوة للمناقشة ،ولا عرضاً علمياً،ولا حتـى فيلماً صنعه غيرنا، إلا بالصدفة التي تريد ملء فراغ مساحة التسلية الفيلمية ،بينما لا تجد في بلـد مثـل فرنسـا طالبـاً بالمرحلة الثانوية ،لا يعرف تفاصيل التفاصيل ودقائق الدقائق عن هذا التاريخ ،فهل ثمة نكتة مبكية تشبه تلك ؟

أما الحقبة القبطية التي تصل إلي ما يقرب الألـف عـام، فهي ذلك التاريخ الساقط من التاريخ ،هي تلك المنطقة الحرام ،رغم ثرائها بالأحداث وبالثورات الجسـام ضـد الاحـتلال الروماني وحتى ثورة البشمور إبان حكم المعتصم العباسـي ،وغناها بالفنون الرفيعة والتحولات الاجتماعية الكبرى .أمـا علم التاريخ نفسه كعلم ،سواء كان تاريخ مصر أم غيرها من عرب أو عجم ،فقد أصبح لمزيد من النكاية مادة اختيارية في مدارسنا (؟!) بينما المطلب الثقافي العام فـي أي دار علـم يعني خريجا على علم بتاريخ العالم ،وإلا فقد ركنا عظيما من أركان المعرفة ،أما المطلب الثقافي والوطني الخـاص فهـو

التـدريس الإجبـاري للتـاريخ المصـري عبـر مراحلـه الثلاث:الفرعونية والقبطية والعربية في كل فـروع وألـوان ومراحل التعليم .بل إني لا أبالغ فـأدعو لمشـروع طمـوح لتكوين كوادر تربوية تقوم علي منـاهج لتـدريس اللغـات المصرية القديمة في مدارسنا ،ليس بغرض إحيائهـا كلغـة محادثة يومية ،إنما بغرض حضور التاريخ فينا،وهو الأمـر الذي لا يمكن احتسابه ترفاً علمياً بقدر ما هو حـث ودفـع للعقل المصري والروح المصرية للتفكير بعقليـة مصـرية وبحب مصري، وحتى يمكن إعادة استزراع الانتماء الوطني أولاً ،الانتماء له كقيمة عظمي تأتي بعدها أي قيمة أخـري. وحتى يشعر المواطن باستقلال وعزة وكرامة خصوصـيته الوطنية والتاريخية والثقافية .ولا يظل مجرد تابع يساق فـي منظومة سائدة هي فقط جزء من تاريخه الثقافي وليست هي كل ثقافته .وحتى يكون المصري دليلا حيا علـي اسـتمرار حضارة مصر وعدم انقطاعها ناهيك عـن الـزعم السـائد بموتها، ،ليس فقط أمام السائحين ،بـل أمـام نفسـه وأمـام مسئوليته في الصراع الحضاري الذي تفرضـه متغيـرات العالم اليوم .وأمام دولة كإسرائيل استقبلت شظايا بشر مـن مختلف ثقافات العالم ،وعلمتهم الاعتـزاز والقبـول باللغـة العبرية الحفرية،حتى أصبحت مصدر فخر وعزة لبنيها .هذه هي الخطوة الأولى الضرورية إذن: ألا تغيب مصر الـوطن والتاريخ والثقافات الثلاث عن أي خطة إعلامية أوتعليميـة. وحتى يمكنا أن نحلم بوطن قوي قادر متماسك يدخل القـرن الحادي والعشرين بمفاهيم وأدوات الصراع الحضاري ،ولابد أن تقترن تلك الخطوة بخطوة أكثر منهـا ضـرورة ،لأنهـا المدخل الطبيعي للتخطيط الوطني السليم ،وهـي الاعتـراف

الأولي بأننا حتى الآن نفكر بعقلية طائفية عنصـرية ولـيس بعقلية وطنية.خضوعاً لأوامر وتحريمات ثقافة تم تسييدها لا تقبل مناقشة ،وتضع منهجاً واحدياً يرفض مناقشـة مشـاكل الوطن بصراحة ،وأخص تلك المشـاكل بالبحـث مشـكلة شركائنا في الوطن .بل أدي هذا المنهج إلي رفـض مجـرد الإقرار بوجود مشاكل أصلا .وهـو الموقـف الـذي يـتهم أصحابه ويطعن في صدق وطنيتهم وولائهم لمصر،وفي مدي إخلاصهم لدستورها،الذي نص علي احترام حقوق المواطنـة للجميع دون فرق بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة .ويشـير إلي أن أصحابه يفكرون بعقلية غير مصرية ،بعقلية الغـازي الفاتح المستوطن الذي يريد أن يلغي من تاريخ مصركل مـا هو مصري لصالح الثقافة السائدة .

وإن إنكار وجود مشاكل يعاني منها أشقاؤنا في الوطن لن يساعد إلا علي مزيد من التفـاقم والتراجـع عـن الـدور الحضاري المأمول لمصر .ولعل أبرز هذه المشـاكل هـو الموقف الرسمي الذي تبني ما يعـرف بـالخط الهمـايوني الصادر في عاصمة السلطنة العثمانية بتاريخ ١٨٥٦/٢/١٨، بعد أن أضاف إليه العزبى باشا وكيل وزارة الداخلية قـراره في فبراير ١٩٣٤ علي هيئة شروط عشرة تقيد حرية بنـاء الكنائس .في الوقت الذي يتم فيه استغلال الحريـة المطلقـة لبناء المساجد من أجل منافع شخصية انتهازية دنيوية بحتـة .يتم عبرها كسر كل القوانين، بإنشـاء العمـارات السـكنية العشوائية في مناطق يمنع فيها البناء بحكـم القـانون . بـل والاستمتاع بكافة الخدمات والمرافق، مضـافاً إليهـا منحـه الإعفاءات الضريبية علي العقار، لمجرد أن صـاحبه كـان فهلوياً يتاجر بالدين لحسابه الشخصي، وقام بتـرك مسـاحة

تحت عمارته تخصص كمسجد، ليضيف لأوكار الإرهـاب وكراً جديداً، يثقل كاهل الأمن بأكثر مما ينوء به أصلاً .

والمعلوم أن هذا الأمر قد أدي إلي وضع تـرميم وإنشـاء الكنائس بيد رئيس الجمهورية وحـده ،واسـتمر قائمـا دون تعديل، ودون وضع قوانين تضع الأصول المرعية لتفعيـل مواد الدستور في حقوق مواطنة متساوية.حتى صدر القـرار الجمهوري رقم ٢٣في يناير١٩٩٨ بتفويض المحافظين كـل في نطاق محافظته لمباشرة اختصاصات رئيس الجمهوريـة بهذا الشأن .

وهو الأمر الذي يدفع دفعا إلي التساؤل عن السـبب وراء هذا التقييد في جانب ،مع الحرية المطلقة علي الجانب الآخر؟ والإجابة البسيطة تكمن في سيادة منهج التفكير الطائفي وليس الوطني علي مستوي الشارع،بل وعلي كل المستويات، مما

أدي إلي اعتبارات تراعي رأيا عاما غير رشيد علي حساب مستقبل الوطن. وهو الرأي الـذي تمثلـه الفتـوى العلنيـة المنشورة في مجلة الدعوة لسان حال جماعة الإخـوان فـي حكم بناء الكنائس ، وذلك في ديسمبر ١٩٨٠،وتقول نصـا :

« إن حكم بناء الكنائس في ديار الإسلام علي ثلاثة أقسـام : الأول بلاد أحدثها المسلمون وأقاموها كالمعادي و العاشر من رمضان وحلوان. وهذه البلاد وأمثالها لا يجوز فيها إحـداث كنيسة ولا بيعة. والثاني ما فتحه المسلمون من البلاد بـالقوة كالإسكندرية بمصر والقسطنطينية بتركيا .. فهـذه أيضـا **لا يجوز بناء هذه الأشياء فيها** وبعض العلماء قـال بوجـوب الهدم لأنها بلاد مملوكة للمسلمين .. والقسم الثالث مـا فـتح صلحا بين المسلمين وبين سكانها، والمختار هو إبقاء ما وجد

بها من كنائس وبيع علي ما هي عليه في وقت الفتح، **ومنـع بناء وإعادة ما هدم منها»** .

فهل تجاوزت فتوى الإخوان الأصول ؟ وهل أحدثت فـي الإسلام جديداً قياسا علي ما نسمع من تسامح جميـل زمـن الفتح ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فمن أين اسـتمدت الفتـوى مشروعيتها وإلي أي أصول استندت ؟

الواضح من البداية أن الفتوى فتوى طائفية تماما، تعامـل الوطن بعقلية غير مصرية علي الإطلاق وتشهد علي نفسـها بذلك . فهي تتحدث عن بلاد موطوءة بالفتح، وعن ملكية آلت لأصحابها بالغزو، بالأرض ومن عليها من بشر، لها سـادة وفيها أتباع آلوا إلي التبعية بالهزيمـة وعلـيهم الخضـوع لشروط السيد المنتصر.

لكن لو ناقشنا الأمر علي هذا المستوي ، فلان نجـد فـي القرآن الكريم أي تفاصيل بهذا الصدد،كما لا نجده أيضا فـي السنة النبوية المشرفة. فكل ما فعله النبي صـلي الله عليـه وسلم في حياته، ويتعلق بأصحاب العقيـدة المسـيحية. فـي غزواته علي بلادهم على تخوم بلاد الشام مع جزيرة العرب. هو أنه أقر أصحاب تلك البلاد علي أرضهم وعلـي ديـنهم لأنهم الأعلم بشئون رعايتها وفلاحتها والأقدر علي زرعهـا ومنافعها، فقط أصبح عليهم بعد هزيمتهم في الغـزوة دفـع جعول لخزانة الدولة الإسلامية الطالعة. وهو ما حدث فـي غزوة تبوك وأيلة ، حيث صالحه يوحنا بن رؤبة علي دفـع الجزية ، كذلك أهل جرباء وأذرح، كذلك صالح أكيدر الكندي حاكم دومة خالد بن الوليد زمن الدعوة علي الجزية . ولـم توضع أي بنود تشير إلي التدخل في حرية العبادة ولا بنـاء دور العبادة من عدمه .

والمعلوم أنه لم يبدأ النظر في أمـر دور العبـادة لغيـر المسلمين إلا مع الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام والعراق ومصر. بعد أن جدت أمور جديدة لم تكن موجـودة زمـن الدعوة . حيث أصبحت تلك البلاد تحت السـيادة المباشـرة للعرب، إضافة إلي وفود القبائل العربية من جزيرتهم القاحلة لاستيطان بلاد الخصب المفتوحة .

وكان بالإمكان وفق أصول زمن الدعوة أن تعـيش تلـك البلاد حريتها الدينية الكاملة، حيث يختلف أمرها تماماً عـن أمر جزيرة العرب التي أوصي النبي بألا يجتمع بها دينـان. ولم ترد دون ذلك أية إشارة واضحة حول أصحاب ديانـات البلاد الموطوءة بالغزو.

لكن مع ذلك الجديد الذي تمثل في النزوح الكبير لعـرب الجزيرة إلي تلك البلاد ومجاورة أصحابها بـدينهم الجديـد، أمسى الشأن مختلفا وبحاجة إلي تأسيس قواعد جديدة . وكان طبيعيا أن تراعي هذه القواعد سيادة المنتصر . حيث لم يعد الأمر كما كان زمن النبوة مجرد غزوات علي بـلاد تـدين بغير الإسلام لا يستتبعها احتلال واسـتيطان أو إقامـة والٍ عربي فيها. كان الأمر فقط مجرد عهود مكتوبة تنص علـي دفع مقدارسنوي من المال يدرأ عن أصحابه تجريد غـزوات جديدة عليهم«انظر في ذلك ابن هشام والسهيلى في الروض الأنف ج ٢ ص ١٧٨ . وابن سيد الناس في عيون الأثـر,ج ٢، ص ١٧٧ ».

المهم أن الهجرة العربية احتاجت إعادة تنظيم للعلاقة بـين مجتمع الفاتحين الوافد ومجتمع البلاد الموطوءة بالفتح . حيث احتاج الفاتحون المستوطنون الجدد إلي إقامة معابدهم بدورهم مع طرائقهم ونظمهم و طقوسهم . وهو مـا كـان سينشـئ

صراعاً حتمياً بين عقيدة تدعو إلي أسلمة العـالمين، وبـين عقائد قديمة ثابتة في بلادها، تستند إلي عهود إسلامية تضمن حرية العبادة .

هكذا ظهر التناقض الأعظم الذي كان لابد أن ينتهي إلـي استبعاد أحد طرفي المعادلة ، وكان طبيعيا أن يكون المستبعد هو المهزوم. ومن ثم تراجع مبدأ حريـة الاعتقـاد لصـالح الظرف الجديد. وهو ما توضحه شروط عقد الذمة التي كتبها المسيحيون في بلاد فلسطين علي أنفسهم للخليفة عمـر بـن الخطاب.وسنري الآن أنها كانت الأساس الواضح والمطـابق بكامل مواصفاته للقسم الثالث مـن فتـوى الإخـوان التـي تقول:«ما فتح صلحا بين المسلمين وسكانها، إبقاء ما وجـد بها من كنائس وبيع علي ما هي عليه وقت الفتح . ومنع بناء وإعـادة مـا هـدم منهـا». فيـورد(الأبشـيهى) فـي مستطرفه«ص١٢٢» بنود ذلك العهد ،أو التعهد بـالأحرى ، في نصوص يقول فيها مسيحيو بلاد الشام :

«إننا لن نحدث في مدائنناولا فيما حولها كنيسة ولا ديـرا ولا قلية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها. وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام. ولا نظهر شـرعنا ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا من دخول الإسلام إن أراده،وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسـنا إذا أرادوا الجلوس. وألا نتشبه بالمسلمين فـي شـيء مـن ملابس أو قلنسوة أو عمامة أو نعلين، ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف. وأن تكون علامة لنا جز مقادمنا وشد زنـار علي أوساطنا. وألا نظهر صلباننا ولا نضرب بالنواقيس إلا

خفيفا. ولا نرفع أصواتنا علي موتانا، ولا نجـاور بموتانـا موتي المسلمين ، فإن خالفنا في شيء من ذلك فلا ذمة لنا.»

هنا ينسرب السؤال المندهش: هل كان يمكن كتابـة عقـد الذمة هذا اختيارياً؟ ومعه ينسرب الخيال يحاول تصور شكل الأحداث التي حدثت أثناء الفتح المتسامح ودفعت أصـحاب البلاد إلي كتابة عهد كهذا (؟!!) .

إذن لم تخرج فتوى الإخوان عن عهد الذمة هذا كما هـو واضح في قسمها الثالث، فماذا عن القسمين الأول والثـاني منها ؟

يقول القسم الثاني من الفتوى : «ما فتحه المسلمون مـن البلاد بالقوة كالإسكندرية بمصر والقسطنطينية بتركيا، فهـذه لا يجوز بناء هذه الأشياء فيها». سنجد مرة أخري أن هـذا البند لا يعود إلي قرآن ولا إلي سنة ، إنما يستند بدوره إلـي الزمن العمرى، فنقرأ في ذات المصدر ص (١٢٣) :

«وكان عمر بن الخطاب قد أمر بهدم أي كنيسة تبني بعد الفتح مع عدم تجديد أي كنيسة بعده،وإذا ظهر صليب كسـر علي رأس صاحبه. وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعـين، وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر ألا يترك فـي دار الإسلام بيعة أو كنيسة قديمة أو حديثة، والله أعلم بـالثواب، وإليه المرجع والمآب» .

وقد أورد ابن عبد الحكم في كتابه فتـوح مصـر كتـاب الخليفة عمر يحمل هذه الأوامر إلى الأمصـار، انظـره ص ١٥١ .

ويبقي القسم الأول من الفتوى الطائفية المرعبـة، الـذي يحتسب المدن التي أنشأها العرب فـي الـبلاد المفتوحـة

خالصة لهم كالفسطاط والقطائع، لا يجاورهم فيها ذمي بحكم عقد الذمة المذكور. وقياساً علي الفسطاط والقطائع نقيس

وضع المعادي والعاشر من رمضان وحلوان من مدن حديثة، يجب أن تخلو من الكنائس، ولا نعلـم إن كـان يستحسـن إخلاؤها من المسيحيين من عدمه. هذا رغم أن المعادي بناها الإنجليز إبان الاحتلال، والعاشر مـن رمضـان وحلـوان وأكتوبر وغيرها بناها المصريون مسلمون ومسيحيون يداً بيد وكتفاً بكتف .

بهذه العقلية يتم التعامل مع الأشقاء فـي الـوطن، ومـع الوطن، ومع دستور الوطن، فـي فـواتح القـرن الحـادي والعشرين. والأمر معقود إما بعزة الوطن ومسـتقبله علـي صفحة زمن تجاوز تلك العنصريات بأزمان، وإما بـالعودة إلي استنبات جذور الوعي الطائفي لينشر في البلاد الـزمن الرديء الذي كتبت في ظله عهود الذمة، وإلي مناهج أودت بنا إلي تمزيق البلاد والعباد وانهزام الإرادة وانتشـار لغـة الطائفية والإرهاب الفكري والدموي، والبقاء في ذيل الأمـم إن كان ثمة بقاء، بعد أن كانت مصـر درة بـلاد العـالمين قاطبة .

فهل من لغة جديدة؟ وطنية، مصرية، مخلصة، تجسد وعياً وطنياً لا طائفياً من أجل تجاوز المحنة نحو وطـن عزيـز يعيش فيه مواطن كريم ؟

أيها السادة : هل من مدكر ؟

جنود الله
والإفراط فى التقديس(*)

لم تزل دولتنا الرشيدة تضع الأزهر فى مقام أعلى هيئـة رقابية ، ليس فقط على الرأى أو الفن أو الفكرة ،لكن أيضـاً على العقيدة باعتباره حارساً لها ، والعقيـدة محلهـا القلـب والضمير، لذلك أصبح من مهام رجال الأزهر التفتيش علـى مكنون الضمائر . ومع الضعف والرخاوة فى الأداء المـدنى لمؤسسات الدولة ، أمكن للأزهـر أن يصـبح سـلطة،احتل بموجبها رجال الأزهر موقع الصدارة والوجاهة الاجتماعية ، حتى قاموا يملـون علـى الدولـة ودسـتورها شـروطهم الأيديولوجية ،ويصادرون الكتب والفنـون والعلـوم حسـب تفسيرهم الخاص لنصوص الدين ، حتى غطى المقدس كافـة التفاصيل الدقيقة لحياتنا . وهكذا لم تعد الأصولية اصـطلاحاً قاصراً على أصحاب منهج الإرهاب المسلح ، كما هو شائع. لأن أصحاب شئون التقديس الرسمى حليف السلطة ، يكشفون كل يوم عن أصولية أشد تمسكاً بحرفية النص ، بل والسعى إلى تطبيقها على الواقع بشمولية جامدة لا تراعى المستجدات ومتغيرات الزمن . وبغرض إخضاع حاضـرنا لمرجعيـة نصية إطلاقية حرفية واستخدامها كمعيار للسلوك وللتشـريع وللحكم . مع رفض كل ما يخالف تلـك الرؤيـة ، لتحويـل مؤسسة الدين إلى جهاز سلطة سياسي ، يحمل أهل التقـديس

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/٤/٣ العدد ٣٦٩٥.

فوق رقاب العباد ، ليصبحوا هم ومصالحهم فى صيانة من عليين ، والإيعاز المستمر بأنهم تحت سلطان الله مباشرة فهم الوكلاء عنه والقائمون على حراسة دينه وتنفيذ شريعته، ومن ثم تصبح قراراتهم مبنية على أسس مقدسة ، تصاغ فى أقوال مقدسة ، وتصدر عن شخوص مقدسة .

هكذا تم فـى بلادنـا مـنح رجـال التقـديس وحـدهم دون بقية الأمة حق الكلام فى العقيدة وباسمها ، كما لو كان بقية الناس فى هذا الوطن معتوهين ومعوقين بالكامل . بـل وأصبح هؤلاء الأزاهرة ـ دون مبرر واضح ـ هم ضـمير الأمة . وإبان إحكام تلك الحلقة السيادية المقدسة تـم مـزج مفهوم الدين بمفهوم الوطن ، بحيث أصبح الحديث بما يخالف قواعدهم خروجاً على الأمة وخيانة للوطن. بل ومع مـرور بعض الوقت غاب الوطن وأصبح الدين هو الوطن . حتـى رفع المواطنون السلاح فى وجه وطنهم باسم الدين .

ومع الوهم ، وإشاعة الوهم ، بـامتلاك هـؤلاء للحقيقـة الكاملة المطلقة المقدسة ، وأن ما دونهم ودونها باطل كامـل مطلق ، ومع السيادة التي حققتها لهـم تراجعـات الموقـف الرسمى للدولة وضعفه،أصبحوا أسماء لوامع ، وهو الوضع الذى جعلهم يشعرون بشعور أصحاب المناصب السـيادية ، وبالاستعلاء على الناس ، لأن الناس أقل منهم درجـة فـى الإيمان ، فأين الناس من حراس الشريعة الكبار ؟ ومن هنـا صاغ لهم تصور أنفسهم وصاة علـى العبـاد ، وأن علـيهم واجب رد الناس للمنهج القويم الذى هو منهجهم وحدهم .

ومن جانبها قدمت لهم الدولة كـل المسـاحات الممكنـة، وتخلت عن دورها التثقيفى المدنى فى إعلامها وتعليمهـا . وقررت أن تقوم بـدور المهـرج علـى مسـرح تسـلية

المواطنين، وتركت العقل الجمعى فراغاً بلقعاً من أى فكـر أو ثقافة أو علم أو حتى انتماء وطنى. وتركت مهمة التثقيف كاملة لأهل التقديس بعد أن حولتهم إلى أعلام مشاهير وباتت البرامج الدينية تبث تحت عنوان وضمن جـداول البـرامج الثقافية . وتحولت أفلام الغرب العلميـة المصـنعة أصـلاً لتكوين عقل علمى فى التفكير ، إلى الدعاية للمنظومة الدينية وتفريغها من هدفها العلمي لصالح الغيب . وبعدها أصـبحت أي معرفة ممكنة فى بلادنا لاتخرج عن المقدس الـذى لـم يفرط فى شيء.

لكن أهل التقديس أفادونا علماً نافعاً فى واحدة من مشاهير أقوالهم ، وهي أن السحر غالباً ما ينقلب على الساحر ، بعـد أن نبتت لهم أنياب صاحبتها شهوة الدم فقاموا بعـد تكفيـر المفكرين والمبدعين بتكفير بعضهم بعضاً ، من تكفير الشيخ يوسف البدرى للشيخ عبد الصبور شاهين ، إلى تكفير شـيخ مشايخ الطرق التكفيرية وزعـيم الجبهـة المنحلـة الشـيخ إسماعيل حبلوش ، لزميلته الأزهرية الدكتورة آمنة نصـير عميدة كلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر ، بمصـاحبة عزف تكفيري مساند من الدكتور عبد العظيم المطعنى .

وقد شبت هذه الهجمة التكفيرية الجديدة لان الدكتورة آمنـة طعنت فى صدق حديث البخارى «المرأة ناقصة عقل ودين» لتعارضه برأيها مع القرآن الكريم ، ولأنة لا يتفق عقلاً مـع زمن أصبحت فيه المرآة وزيرة ورئيسه وزراء وأستاذة فـى الجامعة .

وكعادتها الدؤوب ، أفردت صـحيفة الشـعب المتأسـلمة صفحاتها للعازفين فوق حرائق الوطن ، حيث نعى حبلـوش على زميلته العميدة عدم علميتها بل وزعـم الكشـف عـن

ضـميرها وطويتـه ضـد الإسـلام وذلـك فـى قولـة بتاريخ٩٩/٣/٢٣بالصحيفة المذكورة:«من المسلمات الفقهيـة التى قام عليها البنيان الأزهري (العلمى) واسـتقامت عليـه سيرته (المباركة) أنه ما على الأرض كتاب بعـد كتـاب الله تعالى أصح من صحيح البخارى . وقد اقتضت الأمانة على جميع مستوياتها ممن ولى ويلى فى الأزهر الشريف منصباً ، أن يرعى حق هذه القاعدة التى تمثل ركناً من أركانـه . أو يريح المنصب من آفات نفسه ولسانه، ولهذا كان من أوائـل ما يلقن أبناء الأزهر من المعارف ، قول زهيـر بـن أبـى سلمى:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تُعلم».

هكذا قام الشيخ حبلوش بالكشف عن خليقة الدكتورة آمنـة ليعلنها على الناس ليعلموها ، والتى خالتها تخفى عليهم .. ، فأي عبقرية ،وأى كراهية يحملها هذا الرجل لمـن يخالفـه الرأى ؟ وأى علمية يزعمها وهـو يتحـدث عـن البنيـان الأزهري العلمي المبروك معاً (؟!) إن قوله يكشف عن فهـم هؤلاء السادة (العلماء) لمعنى العلمية ؟ خاصـة و أن العلـم يصر على قواعد لا يتنازل عنهـا للوصـول إلـى نتـائج صحيحة،فحسب الدقة العلمية المشروطة فى المنهج العلمـى، لن نتمكن من قياس حجم هذه البركة ، ومـدى زيادتهـا أو نقصها وما دخلها من تغيرات نتيجة مرور أكثر من ألف سنة على إنشاء الأزهر ، وكمية هذه البركة وهل توزن بـالكيلو جرام مثلا أم يجب أن تقاس بالكيلو متر .

إن البركة أمر والعلم شأن آخر، فتاك لغة لا يعرفها العلم ، لكن حبلوش الذى جمع نواصي العلم يلقى كلامه إلقـاء مـن

منطق الشعور الوهمى بالإحاطة الكاملة بالعلم وقواعده ، فقط للاشيء ، إلا أنه يعلم المقدس (؟!!)، بـل ويصـاحب هـذا الشعور بالعلم الكامل التعالى على علوم البشر الدنيا ، ومـن ثم الإحساس بالتفوق والاستعلاء، حتى لو ازداد العلم بركـة باجتهاداته ،أو لو ازداد أصحاب البركة علماً بفعل البركـة ، وليس بفعل المتابعة والمعرفة . فالعلم عندهم علـم مبـروك يخرج من لدنهم فقط ،ودون ذلك ليس علماً لأنـه البشـرى الأدنى .

وهكذا رأى الدكتور حبلوش أن حديث العميـدة «يفـيض عدواناً على المسلّمات الأزهرية ، من حديث ، وفقـه ، بـل واعتداء على أئمته وعلمائه . فقد سولت لها نفسها أن تـرى حديثاً من أحاديث الرسول (ص) الصحيحة ، بل ومن أعلـى درجات الصحة ، بأنه موضوع ».

لنقف مع هذا الكلام الكبير نحاول أن نفهم. الرجل يرى أن الطعن فى صحة حديث «المرآة ناقصة عقل ودين» اعتـداء على المسلمات الأزهرية. لكنة لم يشرح مدى قدسـية هـذه المسلمات الأزهرية ؟ وهل تم الوصول إلـى وضـع هـذه المسلمات بمنطق البركـة ، ولأن رجـال الأزهـر رجـال مبروكون ؟ أم أنها وضعت بوحى إلهي يسـتوجب القدسـية وعدم المناقشة؟ ولماذا هى مسـلمات أصـلاً ؟ هـل لأنهـا أزهرية (؟!!)، ثم ما هى بالضبط حدود عصمة أهل شـئون التقديس الأزاهرة ؟ وما هو مصدر قدسيتهم لتكون مسلماتهم معصومة؟

الرجل لم يسأل نفسه هذه الأسئلة قط، وإلا ما قال ما قـال، فقد بات موقناً من قدسية ما يقول، مع آخرين رأوا أنفسـهم أعلى شأناً أو توهموا أنهم قد أصبحوا أوصياء علـى أرواح الآخرين وعقولهم. وأن لهم وحدهم كل مفاتيح العلم وخزائنه. إن مجرد رفع السيدة الدكتورة لصوتها الحرام بالتشكيك فـى حديث ذكره البخارى يكون قد نال من أئمة الأزهر وعلمائه إنطلاقاً من اعتقادهم أنهم حراس الدين، أو كما لو كانوا هـم أصحاب الحديث وقائليه . إنها سمة الفاشيست على أنواعهم ، التوحيد والمزج بين المقدس وأصحابه ، ولا زلت أذكر لقاء لى على شبكة تلفزيون (أوربت) بينى وبين الشـيخ يوسـف البدرى ، سألته عن دوافعه الشديدة وراء تكفيـر المفكـرين والفنانين وهوايته فى رفع قضايا الحسبة ، فكان رده :«أنـا جندى من جنود الله ». هكذا أصبحوا يتصورون أنفسـهم ، رغم أن الشيخ يوسف لم يقدم أية أدلة على تعيين الله له بهذه الوظيفة، فلا توكيل لديه ولا توظيـف بأيـة أراق رسـمية ثبوتية واضحة. ولأن الشيخ حباوش جندى مـن جنـود الله بدوره فقد طلب محاكمة عاجلة للدكتورة آمنة لقولها :«هـل يعقل أن يقال مثل هذا الكلام فى وقت أصبحت فيه المـرأة رئيسة للوزراء ووزيرة وأستاذة جامعة ». وجاء طلبه هـذا فى قوله : «إن هذا المعيار منها يستوجب من القائمين على الأزهر المساءلة العاجلة.، إذ جعلت المرأة من الزمان ومـا يجرى به مقياساً للقبول والرد للأدلة الشرعية .. ومقتضـى هذا الاختيار أن على الشرع أن يتغير إذا تغير الزمان» .

وهكذا رأى السيد الدكتور أن الشرع لا يتغير بتغير الزمان ومن قال بوجوب تغيره بتغيـر الزمـان يسـتحق التكفيـر

والمحاكمة العاجلة خاصة وأن هذا الزمن الـذى نعيشـه لا يصلح معياراً (!!) لماذا (؟؟)، لأنه كمـا يقـول :«زمـان كلينتون و مونيكا ، وديانا ودودى أيضاً».

أبداً لم ينتبه الرجل إلى أن متغيرات الواقع (زمن) الدعوة وحده، وهو لا يزيد عن ٢٣ عاماً فقط ، قد أدت إلىتغيـر واضح فى التشريعات والتوجهـات والأوامـر والنـواهي ، فأحكام الميراث تغيرت ثلاث مرات ، وأحكام حـد الزنـى تبدلت بدورها ثلاث مرات ، وتغيرت وجهة القبلة من بيـت المقدس إلى الكعبة المكية ، وألغى صيام وفرض صـيام .. وازدحم تاريخ الدعوة بمتغيرات سريعة فى الواقـع واكبهـا نسخ وتبديل ورفع وإنساء فى أبواب طوال من أبواب النسخ فى علوم القرآن .

أبداً لم يرى الرجل فقيهاً كالشافعى ينتقل فقط عبر المكـان وليس الزمان ، من العراق إلى مصر ، فيرى مجتمعاً مبايناً، والمصالح فيه تختلف عن المصالح فى العراق ، فيغير فـى فهمه وفى فتاواه .وإذا كان الشـيخ حبلـوش وحـده علـى صواب،فهل يجب وفق هذا المنطق محاكمة الخليفـة عمـر لإيقافه تطبيق حد السرقة لتغير أحـوال الـزمن فـى عـام الرمادة، ولإلغائه فريضة فرضها الله فى قرآن يتلى وجعلهـا حقاً على المسلمين هى فريضة المؤلفة قلوبهم ، بعـد تغيـر أحوال الواقع بتغير الزمان، حيث لم تعد هناك حاجة لشـراء إيمان الجاحدين بالإسلام.

أبداً لم ير الشيخ الدكتور سوى الثبات المطلق حتـى لـو تغير الزمان بالكلية عبر أكثر من أربعة عشر قرنا، كـلا ، ولا يبدو أن هذا العالم الأزهري يعترف بالقاعدة الفقهية التى تقول إن العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ، وهو الوجود

والعدم الذى تفرضه متغيرات الزمان والمكان . فقـط كـل حجة الرجل لإسقاط معيار الزمان والتغير، أن زمننا معيـار ردئ غير صالح للقياس ، لأنه زمن كلينتـون و مونيكـا ، وهنا الجريمة ، فهل يصح قياس حديث نبوى مـن الـزمن الجليل بزمننا الردئ ؟ إن زماننا هذا نفسه بكامـه، بنظمـه بحضارته مرفوض ، منكور بكل إنجازاته العظيمة وكشوفه واختراعاته الكبرى من أجل كرامة الإنسان ، فقط لأنه فيـه رجل أقام علاقة غير شرعية بامرأة . ولعلنا لم نزل نـذكر تكفير الإرهابى شكرى مصطفى والمدارس الدمويـة التـى تبعته للمجتمع كله وللزمان ، ووصـفه بـزمن الجاهليـة ، تأسيسا على المعايير الأخلاقية وحدها .

ترى هل يدرك الشيخ أن القيم الأخلاقية قيم معياريـة، أى متغيرة ، تتغير بتغير المجتمعات ، بتغير المكـان ، بتغيـر الزمان ، وحسب الظروف البيئية والأوضـاع الاقتصـادية والأشكال السياسية وأن قياس إنجازات زمن علىزمن آخر لا تكون على مستوى القيم الأخلاقية إنما بقدر ما حقـق مـن تحضر وقوة وعدالة وحريات وعلوم وكشوف وتقدم للبشرية ولاشك أن الإنسان قد حقق فى زماننا قفزة نوعيـة كبـرى فى مجال الترقى والتسامى ، وهو بكل المقـاييس المعيـار الأمثل لأى قياس، ولا يعيبه ولا يدنسه ولا تبخسـه العلاقـة الشخصية الحرة فى بلاد الغرب . لقد كان مـن أخلاقيـات الكرم أن يذبح البدوى فرسه العزيز لضيف أعـز ، وكانـت بولونزيا اشد مبالغة ، فكان المضيف يقدم لضـيفه أجمـل زوجاته وأقربهن إلى نفسه ، ويعتبر من رضاها عن قـدرة الضيف على العشق ،دليلاً على تقدير الضيف للكرم ولـذوق مضيفه . وعندما دخلت المسيحية تلك الجزر وانتشرت فيها

قضت على هذه الضيافة المتطرفة والجانحة نحـو المبالغـة الأخلاقية فى الكرم . هكذا القيم ، معيارية، تختلف بمختلف المجتمعات والأزمنة . ولا علاقة لها بتقدم أو تأخر ، فـالقيم محايدة فى الغالب، بل هى ذلك المحايد غير الفاعـل غيـر الإيجابى ، بل والسلبى الذى يتأثر دومـاً بكـل المتغيـرات حوله،لذلك تتغير بسرعة فى بلاد الغرب وتثبت فى بلادنـا ، لأننا لا نخترع لا نبدع لا نكتشف ، ثابتين فى مواقعنا وعلى مبادئنا ، لذلك تظل المعايير الأخلاقية في بلادنا ثابتة غيـر قابلة للتغير ، أما فى بلادهم فالمتغير قد أصبح هو المعتـاد، نظراً للتسارع الهائل فى الكشوف والإبداعات والذى يتـراكم يومياً ، وكان لابد أن يؤثر فى بنية المجتمـع وفـى قيمـه لضمان حريات فردانية كاملـة .وفـق القـانون الليبرالـى الاقتصادي (دعه يعمل ، دعه يمر).

وهكذا أيضاً لا تنتقل القيم الأخلاقية على نطاق واسع مـن مجتمع لآخر إلا إذا كان المجتمع الأخرمهيأ لقبول تلك القـيم فى بنيته التحتية ، ونحن - والحمد لله - مبرأون من هـذا النقص ، ولا نخشى قبول مجتمعنا لأخلاق الغرب ، لأننا لم نقبل بعد البنية التحتية التى أفرزت تلك الأخلاق .

ثم هل يدرك جنود الله هؤلاء أن المـنهج الـذي يعتمـده الغرب فى التفكير هو سر تفوق هذا الغـرب ، وأن العمـد الأساس لهذا المنهج هو مبادئ الحريات المدنية . وأنه لـولا تلك المبادئ لما عرف أحد عن كلينتون شيئاً ، ولا كنا عرفنا نحن فى شرقنا الذى يعيش كل التشوهات النفسية والأنانيـة وكل اللاأخلاقيات المستورة وراء الأبواب المغلقة والشعارات الزائفة ،لولا مبادئهم تلك ما عرفنا شيئاً عن الحياة الخاصـة لرئيس أكبر دولة فى العالم . إنها الليبرالية يا شيخ حبلـوش

بإيجابياتها وسلبياتها . إنها المبادئ التى جعلت الشيخ حبلوش يدرى ويعلم بما يحدث عندهم وهو ليس منهم ،وليس مشاركاً لهم فى صنع مجتمعهم وليبراليتهم، ويقوم بإصدار الإدانـات ضدهم وضد الزمن . إن شعب أمريكا قد حاسـب رئيسـه للكذب عليه ، أما الشيخ حبلوش فلا يرى فى الموضوع كلـه سوى الفعل الجنسى، لذلك يتطوع بإدانته وإدانة الزمن كلـه رغم أنه لا يملك حق تلك الإدانة ، فأصـحاب الحـق هـم الأمريكيون وحدهم الذين بيدهم يصنعون مصيرهم . ونحـن نعيش هنا فى غابات النفاق وأحراش الزيف والكـذب علـى الناس وعلى الذات ، نعيش زمناً تجاوزته الدنيا باختراعاتها، بينما اختراعنا نحن لأنفسنا قروناً وسطى جديـدة غادرتهـا الدنيا إلى دنيا أخرى . دنيا الشفافية والوضـوح والمحاسـبة وسيادة القانون .

ومن الواجب هنا أن نتساءل : هل تكفير الدكتور حبلـوش للدكتورة آمنة ووصفه لها بـ ـ (المـرأة العميـدة) ، وأن كلامها لا يصلح لغير المطابخ لأنها مغرمة بـ ـ (السيسـتم الغربي) أى بمناهج الغرب . هل يتسم هذا التكفيـر وتلـك اللغة بوضوح ذلك (السيستم الغربى) الـذى أنّـب السـيدة الدكتورة عليه أشد التأنيب ؟ وهل يتسـم بتلـك الشـفافية . الواضح لدينا أنه فقط قد هاجمهـا مـن منطـق المصـالح الذكورية وحدها . والحـرص علـى الجمـود ، والتحـذير والإنذار بعدم الاقتراب من مناطقهم السيادية ، فلا صواب إلا صوابهم فى مناطق حددوها لأنفسهم حراماً علـى غيـرهم. واتخاذ الدين مجرد تكئـة باحتسـابه المرجعيـة الواضـحة لكفرانها ، رغم أن الدين كما سـنرى الآن وفـى الحلقـة القادمة . لا يدعمه فى موقفه هذا بالمرة .

وأيهما يضرب القيم فى مقتل: ذلك الذى جعـل الحريـات نبراساً ، أم هذا الذى يستثمر الدين لضرب كل الحريـات ، مع تزييف مراد الدين ذاته للوصول إلى هدفـه التكفيـرى ؟ حتى يكون له وفريقه وحدهم السلطان على عقـول النـاس وأرواحهم.

هنا نستأنس برأى الدكتور عبد العظـيم المطعنـى فـى الشعب (٩٩/٣/٢٦) الذى عز عليه أن يترك مسرح التكفيـر لحباوش يعزف عليه منفرداً ، فقام يكرر تقريباً توزيـع ذات المعزوفة قائلاً: «إن جوابها اشتمل علي أمرين: الطعن فـي الحديث الصحيح بأنه موضوع ، والثانى الاستشـهاد علـى وضع الحديث نفسه بأحوال النسـاء فـى هـذا العصـر .. والحديث الصحيح الذى حكمت عليه بالوضـع لـم يخـالف القرآن قط . فقد وصف القرآن النساء بوصفين فـى سـورة الزخرف ففى الآية ١٨ من السورة المشار إليها جـاء قولـه تعالى : أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين .. أى يتربى فى الزينة والنعمة .. ليس عنده بيـان ولا يـأتى ببرهان وذلك لضعف عقولهن عـن فطـرة الرجـال .. إن المراد يا سيادة العميدة من الحديث هروب عقـول النسـاء لحظات الانفعال الحاد وحلول مشاعرهن الرقيقـة الناعمـة محل عقولهن».

لكن العبارة الأخيرة للدكتور المطعنى تبرز خلافاً واضـحاً بينه وبين الدكتور حباوش ، والخلاف لـيس حـول تكفيـر العميدة من عدمه فهنا اتفاق أيديولوجي بالضـرورة ، لكـن الاختلاف جاء حول المعيار المقدس للتكفير والـذى يعتمـده

كلاهما : فتفسير الحديث بالمشاعر الأنثوية المؤدية لـذهاب العقل عند النساء لايجد صدى عند الدكتور حباوش ، لـذلك أورد الحديث الذى أخرجه الشيخان مالك والترمذى والـذى يؤكد أن المرأة ناقصة عقل ودين بقرار دينى يجعل شهادتها نصف شهادة الرجل ولأسباب فسيولوجية كالحيض ، وهو ما جاء عن أبى سعيد الخدرى عن الرسول (ص) يقول :«مـا رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم مـن إحداكن.قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قـال: أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ؟ قلن :بلى ، قـال: فذلك من عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن : بلى ، قال: فذلك من نقصان دينها».

هنا يوضح الدكتور المطعنى أدلته ضد السـيدة العميـدة بقوله: «أن الحديث الذى اجترأت العميدة الفاضلة على الحكم عليه بالوضع، ليس من أحاديث الآحاد التى عـرض لهـا العلماء من أمثال الدارقطنى والدمشقى والغسانى . وأين نحن من هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين لم يجد الزمان بمـثلهم فـى الموهبة والإخلاص وسعة العلم ؟».

وهكذا تمت إضافة شخوص مقدسة جديـدة إلـى سـاحة المقدس ، فمع مشايخ الأزهر وأئمته المقدسين ، أصبح لدينا الدارقطنى مقدساً ، والدمشقى مقدساً ، والغسانى مقدساً ، وقد تربعوا على كرسى القداسة فقط لأن الزمن لم يجد ولن يجود بمثلهم أبداً (؟!!).

لقد دعمت السيدة رأيها فى وضع الحديث من الوضاعين ، بتذكيرنا بمدى حجية السنة القولية / الحديث ، بـأن الإمـام البخارى كان يحفظ ٦٠٠,٠٠٠ حديث لم يصح عنده منها إلا

٤٠٠٠ ،مما يشكك فى مدى قدسية الحديث كلـه كمرجعيـة إسلامية . ومن هنا عقب الدكتور المطعنى بقوله:«يريـدون بهذا أن يقولوا إن السنة جمعت جمعاً عشوائياً ، وقد جهلـوا جميعاً أن قلة ما أثبته الإمام البخارى فى صحيحه بالنسبة لما كان حفظه ليس معناه عدم صحة ما كان يحفظه . بـل هـو يرجع إلى منهج الإمام البخارى ومثله الإمام مسلم فى تدوين الحديث . فالبخارى كان يدون كل يوم حـديثين فقـط ، ولا يدونهما إلا بعد أن يصلى ركعتين ثم يستخير الله فى تدوينهما فإن شرح الله صدره دونهما وإلا فلا .. وكيف ساغ لعميـدة الدراسات الإسلامية أن يرد فى وهمها أن الصحاح والمجامع و المسانيد من كتب السنة تحتوى على باطل مكـذوب عـن رسول الله، وهى نبراس حياة الأمة مع القـرآن طـوال ١٤ قرناً. أكانت الأمة حقاً ضالة هذا الضلال المبين إلـى هـذه الساعة ؟».

لقد وضع الدكتور المطعنى السؤال وأجاب عليـه إجابـة مبينة توضح لنا كيف يفكر أهل شئون التقديس فى بلادنـا ، فهو يدعى أن كل الأحاديث التى دونها البخاري والتـى لـم يدونها صحيحة جميعاً . وذلك لتكريس قدسية السنة القوليـة جميعاً ، ومن ثم قدسية قائلها وكل ما قال أو فعـل، قدسـية تربط البشري فيه بالإلهى ، بحيث كان النبى (ص) وفق هذا الفهم مجرد أداة سلبية ساكنة تماماً بيد الله ، وكل ما صـدر عنه إن هو إلا وحى يوحى.

فإذا كان ذلك مبدأ فكيف جاز للمطعنى وحبلوش التسـاهل مع الإمام البخارى وهو يلقى بـ ـ ٥٩٦٠٠٠ حـديث فـى المجهول، بينما يكفرون السيدة العميدة إزاء إنكارها لحديث واحد فقط لا غير ؟!

مناط احتجاج المطعنى أن من يتشـككون نتيجـة فـارق النسبة الهائل بين المدون والمجموع من أحاديث ، هو أنهـم يريدون القول أن السنة قد جمعت جمعاً عشوائياً ، بينما هى لا تحوى باطلاً ولا كذباً لأنها كانت نبـراس حيـاة الأمـة طوال١٤ قرناً فالدكتور يرفض أي مراجعة خوف اكتشاف خطأ الأمة طوال. تلك القرون ، وليس بمراجعـة الأخطـاء أينما وجدت حتى يمكن تجاوز الخطأ إلى الصواب. ويجعـل إجماع الأمة طوال تلك القرون دلالة صدق مطلق . لذلك لا يمكن أن يكون جمع الحديث قد تم عشوائياً ، لماذا ؟ لأننا من جهلنا (؟!!) لم نكن نعلم أن البخارى كان يصلى ركعتين أولاً لله، ثم يستخير الله ، وحسب ظروفه النفسية والمزاجيـة (إن شرح الله صدره) يقوم بتدوين ما انشرح له ويستبعد الباقى . فهل يمكن أن يشرح لنا الدكتور المطعنى معنـى العشـوائية لديه ؟ إنهاعقلية البركة والتقـديس المفـرط مـرة أخـرى، فالبخارى كان رجلاً مبروكاً يمكنه أن ينوب عن الأمة جميعاً وببعض الطقوس المباركة يستبعد أحاديث ويبقـى أخـرى ، وذلك بالاستخارة (؟!!) وهنا نكرر سؤال المطعنى :«أكانت الأمة حقاً ضالة هذا الضلال المبين إلى هذه الساعة؟».

ولو كان ما قال النبى أو صدر عنه من أفعال وحيـاً مـن السماء فماذا عن حادثة تأبير النخل ونهى النبى عن التـأبير مما أدى إلى فساد المحصول ، وتعقيبه (ص) بالقول :«أنـتم أدرى بشئون دنياكم». وكيف تصرف النبى مع الأعمى الذى جاءه لعله يزكى أو يذّكر ، فنبهه الله ووجه له اللـوم علـى تصرفه ، فهل كان النبى هنا يتصرف من نفسه كإنسـان أم بوحى من الله ؟ وإذا كان بوحى من الله، فهل كان الله يناقض

نفسه فى الموقفين ؟ لقد كان قول النبى :«أنتم أعلم بشـئون دنياكم» اعتذاراً مهذباً بأدب نبوى عن خطأ بشرى ارتكبـه بنهيه عن تأبير النحل وفساد المحصول على أصحابه . بكلام بشرى لا عصمة فيه عن الخطأ والسـهو والنسـيان ، لأن محمداً كان إنساناً لا إلهاً .

والمعلوم أن علم الحديث نفسه (بمـا فيـه مـن الجـرح والتعديل) قد تأسس حول اختلاف علماء الإسلام وتنـازعهم حول مدى صحة الحديث . والمعلوم أن علماء الحديث هـم من أعطوا مقام النبوة درجة الشفاعة ، إمعاناً وإفراطـاً فـى تقديس النبى بتقديس كل ما صدر عنـه ، ليمكـنهم إلبـاس الحديث قدسية صاحبه والعكس صحيح . أي تقـديس النبـى بتقديس الحديث القادم وحياً من السماء . حسب مناهجنا فـى توحيد الأشخاص بالمبادئ . رغم تعارض حديث البخـارى حول شفاعة النبى (ص) مع عدد غفير مـن آيـات قرآنيـة صريحة واضحة تنفى تلك الشفاعة وهذه القدسية ، وتثبـت بشريه النبى وإنسانيته .

مساحة القدسية فى السنة القولية(*)

إن قدر الشيخ الدكتور محمد السيد طنطاوى الإمام الأكبـر للأزهر أن يحمل على كتفيه بعض أعباء هذا الوطن، والناس فى هذا الوطن، من خلال إصراره علـى مصـلحة الـدين، وإبراز الوجه المضيئ والسمح للإسلام، إزاء دعـاة التشـدد والتفكير وأصحاب المصالح والجهات التى تعـادى الـزمن والمجتمع والوطن. وإذا كان صاحب المقام الشريف يتعرض نتيجة موقفه التنويرى التاريخى للحملات الضـارية، فهـى الضريبة التى دفعها عبرالتاريخ كل عظماء الفكر والـروح. وهو الشرف العظيم الذى سبقه إليه رفاعة رافع الطهطاوى، والشيخ الجليل الإمام محمد عبده، الذى لخص رحلة كفاحـه الطويلة ضد التعصب والجمود والتقليد والإفراط فى التقديس والتشدد فى بيت شعرى شديد الدلالة، يقول:

لكنـه دين أردت صلاحــه أحـاذر أن تقضـى عليـه العمائم

ورغم رداءة الحملة الظلامية، فلها فوائد ونفع عظيم، لأنها تكشف كل يوم للناس عن وجوه الفاشية الكامنـة وراء أقنعة التدين، وأن الأمر فى النهاية ليس ديناً ولا يبغى وجـه الله، بل دنيا ومصالح يتكالبون عليها، وهو ما سنحاول إثباته هنا، من خلال الحملة الأخيرة ضد عميدة كليـة الدراسـات الإسلامية بالأزهر، لطعنها فى صحة حديث«المرأة ناقصـة

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٠/٤/١٩٩٩العدد ٣٦٩٦.

عقل ودين». وهى الحملة التى تذكرنا بحملة سابقة أشد وطأة وأكثر ظلماً وعدواناً، تعرض خلالها الدكتور أحمد صـبحى منصور لأشد أنواع الاضطهاد والتنكيـل، لإنكـاره حـديث شفاعة النبى، وقدسية النبى حتى اضطروه اضطراراً دفعـاً للامتهان اليومى الدائب إلى الاستقالة. ولم يكتفوا بـذلك لأن الرجل أصر على رأيه ولم يخضع للتهديد والترهيب إيمانـاً بسلامة موقفه، فشكلوا لوبى ضاغط فى المؤتمر الإسـلامى بإسلام آباد حتى استصدروا قراراً بردة الرجل عن الإسلام. لكنه لم يتراجع عن أفكاره كما هو المطلب المعلن من قـبلهم للصفح عنه، فحرضوا عليه الأمن الذى قبض عليه بتهمة لم ترد لا فى قانون دينى ولا قانون مدنى، تهمة (إنكار السنة). وبالطبع انتهت القضية إلى لاشىء، ومازالوا يحاربون الرجل فى رزق عياله حتى اليوم بمنعه من الالتحاق بأى دار علـم أخرى،ومطاردته أينما ذهب بأوراقه ودرجاته العلمية.

فهل ثمة تسمية أخرى تليق بهم سـوى أنهـم فاشيسـت؟ والمسألة التى تحتاج إلى بحث وفهم هى إصـرارهم علـى تكفير أى محاولة للبحث فى السنة القولية لتحديد مدى حجيتها على المسلمين.وهو الأمر الذى يدعو إلـى إعـادة ترتيـب الأوراق بمنهج يحترم الأصول العلمية والعقلية والشـرعية، للكشف عن سر التقديس المفرط للسنة القولية، وهل يتفق هذا التقديس مع مصالح البلاد والعباد، التى حيثما وجـدت فـثم وجه الله؟ أو هل يتفق مع منهج الإسلام ومبادئه؟

سيجد القارئ للهجمة ضد السـيدة العميـدة اتفاقـاً بـين المهاجمين على تحويل المختلفات إلى أصول وثوابت أهمها:

* أن الأحاديث النبوية تكتسب قدسية لَدنّية،لأنها كانت وحيـاً إلهياً كالقرآن تماماً، وأى مساس بها يدخل فى إطار الحرمـة بل والكفران.
* أن الأحاديث كى تكتسب هذه القدسية الكاملـة فلابـد أن يكون النبى محمد(ص) معصوماً عن كل ما يشوب البشـرية من نقائص، لذلك فهو حسب هذا المنهج أقرب إلـى الإلهـى منه إلى الإنسانى.

- تقديس الزمن النبوى لوجود النبى فيه، بمـا فـى ذلـك تقديس صحابة النبى وإنزالهم منازل فوق بشرية، لأنهـم عايشوا الزمن الذهبى المقدس دون بقية الأزمنة السـابقة واللاحقة، التى هى جاهلية وانحطاط أخلاقى كامل.

* إعمالاً للسنة القولية يتم تحديد الموقف من المرأة ناقصـة العقل والدين، التى لا تصلح لغير المطبخ كما قال الـدكتور حبلوش لزميلته العميدة، وهو نفسه من قـال مـن قبـل إن الإسلام كرم المرأة دون كل الأديان والمناهج حتى اليوم(!؟).

* أن قدسية الإسلام تنتقل بالضرورة إلى العـاملين بشـئون التقديس الأزاهرة،وإلى الأزهر كمفـرزة للعـاملين بشـئون التقديس ليصبح مقدساً يعمل فيه بشر مقدسون،رغم أنه مـن إنشاء الاستعمار الفاطمى لمصر لمساندة السـلطة الشـيعية آنذاك، ورغم أنه ليس فى القرآن ولا فى الحديث كله شـيء اسمه الأزهر أو رجال الأزهر.

وقد تجمعت هذه المفاهيم فى حديث الـدكتورين حبلـوش والمطعنى. وتابع الدكتور المطعنى هجومه مرة أخرى فـى صحيفة الشعب المتأسلمة بتاريخ ٩٩/٤/٢ ليقول:«فمطلـب الدكتور بمثابة فقه جديد وتفسير جديد أوشرح الأحاديث مـن

جديد.يا سبحان الله، أليست الخطـة التـى تتبناهـا عميـدة الدراسات الإسلامية بالأزهر هى غربلة صـحيح البخـارى ومسلم، بل محو كامل لمعالم الإسلام ؟» قال هذا الدكتور

حبلوش معقباً محذراً منذراً:« إن من غربل الناس نخلـوه.. أليس معنى هذا أننا نعيش فى ضلال مركب منذ قرون.ومـا الذى تركته سيادة العميدة لخصوم الإسـلام فـى الـداخل و الخارج ولم تقله؟.. إن هذه التصريحات انطوت على إساءات بالغة للأزهر وللإسلام، وتركت علامات اسـتفهام ضـخمه خلاصتها: ما الذى يراد بأزهر الإسلام وبإسـلام الأزهـر. والجواب متروك لمن يستطيع الإجابة عنه».

إن كلام السيد الدكتور المطعنى هنا يحمـل دلالات عـدة تشير إلى موقفه وموقف رديفه وفريقه، فهـو أولاً يـرى أن المطالبة بفقه جديد وتفسير جديد للأحاديث هى دعوة يـدعو بها خصوم الإسلام.«ومع ذلك يقولون بكل تـبجح إن بـاب الاجتهاد لم يغلق؟! وفى الوقت نفسه يعترضون على أى فهم جديد».

أليست تلك بثنائية نقائض تشير إلى انتهازية مركبة،وكيل بأكثر من مكيال حسبما يتطلب الظرف من مواقف ؟ بـل إن التجديد عنده لا يعنى أن متغير الزمن يحتاج إلي متغير فـي الفهم والتفسير بل إن هذا التجديد دعوة من خصوم الإسـلام فى الداخل والخارج.

خصوم الإسلام فى الخارج هم ذلك المشجب الدائم لخيباتنا وتخلفنا وهو أمر معلن دوماً من قبلهم يمكن تفهمه،لكن مـن هم خصوم الإسلام فى الداخل؟الرجل لم يفصح لكن سـهامه الموجهة تشير إلى ما يريد، فهذا الداخل يتمثل فـى العميـدة الأزهرية كنموذج،وفيمن وراءها داخل الأزهر أيضاً بـدليل قوله: ما الذى يراد بأزهر الإسلام وبإسلام الأزهر؟ إنه يلمح إلى جهات تريد شراً بالأزهر وبالإسلام سلطت عليـه مـن داخله. وبما أن الأزهر مؤسسة تتبع الدولة، وبما أن العمادة ومشيخة إمامته مناصب تتم بالتعين، فلا شك أن الدولة هـى من يقف وراء ما يحدث فى تلميح غير حميد إلـى معركـة مشايخ التطرف مع إمامهم الأكبر، وأن الإسلام كله فى كفـة مشايخ التطرف وحدهم.

هذا ما يريد الشيخ المطعنى إلقاءه فى ذهن قارئه بـدهاء يحسد عليه، مع التأكيد على أنه لا تجديد فكل جديد كارثـة، محدثة، بدعة، ضلالة، والمقدس فقط هو القـديم، لأن حـق التفكير عندهم غير جائز للأحياء. حق التفكير فقـط لمـوتى التاريخ. وهم ورثتهم القادرون وحدهم على فهم لغة الموتى.

ولا يغيب على لبيب مزج السيد الدكتور بين الأزهر و بين الإسلام مما يؤكد سمة الفاشية المعلومة التى توحـد الـنص بحماته ورعاته، بالدمج بين المقدس وذوات الأزاهرة ليكونوا ناطقين باسم الله، وباطشين باسم الله، وجبـارين باسـم الله، وأوصياء على عقول الناس وأرواحهم باسم الله، لهم الأمـر والتفسير والفهم والحكم ، هم مؤسسـة التشـريع ومؤسسـة القضاء، وأيضاً مؤسسة التنفيذ عبر أتباعهم المنتشرين فـى البلاد.

ولنبدأ بالأصل الأول المتفق بينهم وهـو «أن الأحاديـث النبوية تكتسب قدسية لَدنّية لأنها كانت وحياً إلهياً كـالقرآن، وأى مساس بها يدخل فى إطار الحرمـة بـل والكفـران». لنحاول التأكد من صدق هذه المقدمة التـى نعتهـا الـدكتور حباوش والمطعنى بالمسلمات.

إن الجميع يتفقون على أن كتب الإسناد قد اعتمدت علـى الثقة ببشر مثلنا، هم رجال الإسناد والرواة الذين انتقلت إليهم الرواية عبر بشر آخرين فى سلسلة العنعنات عبـر الـزمن لعشرات السنين التى انقضت بـين زمـن الروايـة وزمـن تدوينها، فهل تصح الثقة المطلقة ببشـر غيـر معصـومين، لإقامة تشريعات مقدسة ودستورلأمة؟ بنوازع البشـر،وأهواء البشر،وأطماع البشر، وبموقعهم فى سلم التراتب الاجتماعى، وبقناعاتهم المرتبطة بالضرورة ببشريتهم، بكل ما للإنسـان وما عليه.

إن هذا السبب الواضح كان وراء عدم تدوين البخـارى سوى ٤٠٠٠ حديث من بين ٦٠٠,٠٠٠ حديث جمعها.وهى السبب الذى كان وراء موقف أبى حنيفة الذى لم يصح عنده سوى سبعة عشر حديثاً فقط بين مئات الألوف.لكـن علمـاء الحديث وبخاصة الأزاهرة المحدثون يقولون بصحة الحديث جميعه المدون منه وغير المدون،ويبسطون عليه جميعه رداء القدسية،بل وجعلوا السنة تنسخ القرآن (هكذا؟(.

والمعلوم لأى مبتدئ أن أحاديـث المعـاملات جميعهـا أحاديث آحاد،وتعنى أن قائلها صحابى مفرد سمعها وحده من النبى، ومن النادر أن تجد بينها أكثر مـن قائـل سـمعها . والمعلوم أيضاً أن أحاديث الآحاد أدنى درجـة مـن حيـث

الصحة عن الحديث المتواتر، والحديث المتواتر هو الصحيح صحة كاملة مطلقة، لكن المشكلة أن علمـاء الحـديث قـد اختلفوا حول هذا المتواتر بدوره، المكثرون مـنهم قـالوا إن عددها لا يزيد عن سبعة أحاديث، والمقلون لم يعترفوا سوى بحديث واحد متواتر هو «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». وهذا يعنى أن ما عداه من مئات ألوف الأحاديث هى أحاديث آحاد.

وهنا يطرح السؤال نفسه: هل من العدل أو من الـدين أو من الحكمة أو من أصول فقه القانون،أن تشـكل حـوارات جانبية وأحاديث انفراديـة قواعـد للتشـريع العـام علـى المجتمع؟«هذا بالطبع إذا سلمنا بالطهرانية والصدق المطلـق للرواة ورجال الإسناد».أليس الأصل الأول فى التشريع هـو إشهاره ليصبح معلناً واضحاً بـين النـاس ليقبلـوا العمـل بأحكامه؟ أم أن شريعتنا ذات نشأة سرية وعلينا لها الطاعـة الجماعية بالفرض القسرى؟

وقد نبه الدكتور أحمد صبحى منصور فـى إشـارة لهـا مغزاها الساخر إلى أن مفهوم الإسناد نفسه يشير إلى بناء آيل للسقوط يحتاج إلى الإسناد. ولأن هناك باطلاً وكذباً قد تم من قبل الرواة، وتواطؤاً من رجال الإسناد، فقد تـم تصـنيف أحاديث الآحاد إلى حسن وضعيف وغريب، فهذا حقق نسبة نجاح ٧٠%، وذلك ٥٠%،وآخر لم يحصل سوى على تقـدير ضعيف. ويبقى التساؤل الذى يكشف التواطؤ والهدف : كيف يمكن مراعاة هذه النسب المختلفة عند التطبيق؟

هنا لن نجد سوى رجال الحديث الأزاهرة الـذين ألبسـوا أنفسهم القداسة، وهنا الأمر الوحيد الـذي يسـمح لهـم دون الناس بفهم هذا التصنيف النسبى وعلينا أن نسلم لهم لتطبيـق تلك النسب فى حياتنا، لتحكيم تشريعات السنة لأنهـم الأدرى بها والأقدر على فرزها،وهى ميزة لا يستطيع أحد ادعاءهـا لكنهم يدعونها . فعندما تستشهد بحديث لا يلتقى مـع هـوى مصالحهم و رؤاهم، يقولون لك هذا حديث ضعيف أو هـذا من الإسرائيليات،لكن ليس عندهم أى مـانع فـى مناسـبات آخرى أن يستشهدوا بذات الحديث عندما يكون فـى خدمـة الهوى، إنهم يفعلون ذلك بإدعاء الدراية التخصصـية لـديهم وجهل الآخرين بها، يفعلونه دون أن يطرف لهم رمش. مـع إصرارهم على ترديد وتأكيد وترسيخ صحة الحديث المطلقة، مع الإصرار على إعماله فى التشريع، وهنا سـيكون لهـم بدورهم وحدهم حق التطبيق كما لهم حـق الفهـم والفـرز النسبى. إذن المسألة أبداً ليست مسألة علم ودين وآخرة،لأنـه باطل يراد به باطل،فهم مخادعون لأنهم يعلمون علم اليقـين أن هذا التدوين الذى يعتمدون عليه قد أسقط أهم الأحاديـث، أسقط ما يزيد عن خمسمائة خطبة للنبى فى المسـلمين. بـل ويعلمون يقيناً أن ذلك لم يكن إهمالاًغير مقصود أو ضـياعاً بالصدفة. أو استبعاداً بالاستخارة كما فعل البخارى. بل كان لأغراض سياسية بحتة، حيث كانت هـذه الخطـب النبويـة المشرفة تتناقض وتتعارض بالكلية مع أنظمـة الحكـم فـى الدولة الإسلامية زمن التدوين. والدنيا مصـالح ومناصـب يحسن الحرص عليها بعدم إغضاب ولاة الأمر منا. كمـا أن الله قال:«أطيعوا الله و أطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»، وحجتهم فى صحة الحديث تتأسس على هذه الآيـة الآمـرة

بطاعة الرسول وهو ما يعنى أنه كان لا ينطق عن الهـوى بل كان وحياً يوحى. لكنهم فى الوقـت ذاتـه، وبانتهازيـة فاضحة فضلوا طاعة أولى الأمر منهم، فأسقطوا أهم مـأثور بين كل ما دون من أحاديث، خطب النبى فى المسلمين.

وهم أيضاً يعلمون علم اليقين أن راوى معظم الأحاديـث (أبو هريرة) كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب(؟!) ويعلمـون علـم اليقين أن أجلة الصحابة قد اتهموه بالكـذب علـى النبـى بوضوح. بل إن الخليفة عمر بن الخطاب هدد أبـا هريـرة وأنذره بالكف عن التحدث بأحاديث النبى.ولما مات عمر عاد أبو هريرة إلى سيرته الأولى يحدث وينسب للنبى، لكن هـذه المرة من داخل قصر معاوية بالشام، فماذا كـان يمكـن أن يقول فى حضرة معاوية ومن قصر السلطان؟؟ وقد اعتـرف نفسه صراحة قائلاً:«إنى أحدثكم بأحاديث لو حـدثتكم بهـا زمن عمر بن الخطاب لضربنى بالدرة/ انظر الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٧».

أما الراوى الثانى والأهم والملقب بحبر الأمة عبد الله بن عباس،والذى روى ١٦٦٠ حديثاً معظمها آحاد. فلا شـك أن السادة الأفاضل يعلمون تمام العلم أن النبى قد مات وعبد الله بن عباس لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره.

وهم يعلمون علم اليقين أن رواة الحديث أنفسهم قد أجمعوا على أن النبى (ص) قد نهى عن تدوين أحاديثه،ولم يصـرح بتدوين غير القرآن.وجاء هذا النهى فى أكثر من حديث لأبى هريرة وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبى سعيد الخدرى وعبد الله بن مسعود وغيرهم.

انظر معى مدى الوضوح والقطعية التى لا تقبل لبساً فـى حديث أبىهريرة:«خرج علينا الرسول ونحن نكتب أحاديثـه فقال: ما هذا الذى تكتبون؟ قلنا: أحاديث نسـمعها منـك يـا رسول الله، قال: أكتاب غير كتاب الله؟.. يقول أبو هريـرة: فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار».

واستمع معى إلى أبى هريرة مرة أخرى يقـول: «بلـغ رسول الله أن أناساً قد كتبوا أحاديثه فصعد المنبر وقال: مـا هذه الكتب التى بالغنى أنكم قد كتبتم، إنما أنا بشر. فمن كان عنده شيء منها فليأت بها.يقول أبو هريرة.فجمعنا ما كتبنـاه وأحرقناه بالنار/ انظر الخطيـب البغـدادى: تقييـد العلـم، ص٣٢،٣٣».

واقرأ له فى صحيح مسلم الحديث المتفق علـى تـواتره وصحته الكاملة«لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنـى غير القرآن فليمحه../ج١٨،ص٢٢٩».

وفى رواية لأبى سعيد الخدرى قال:«استأذنت رسول الله أن أكتب حديثه فأبى أن يأذن لـى»، كـذلك روى زيـد بـن ثابت«إن النبى نهانا أن نكتب حديثه/ انظر البغدادى: تقييـد العلم». أما عبد الله بن عمر فقال:«خرج علينا رسـول الله يوماً كالمودع وقال: إذا ذهب بى فعليكم بكتـاب الله أحلـوا حلاله وحرموا حرامه» ولم يذكر السنة(انظـر مسـند ابـن حنبل).

فإذا كان هؤلاء السادة يعلمون ذلـك بالضـرورة، فهـل يخدعون أمة المسلمين عن قصد مبيـت؟ فـى اعتقـادى أن الإجابة بنعم لسببين: الأول تغاضيهم الكامل عن الشـهادات القرآنية التى تنفى حجية الحديث النبوى وعصمته المقدسـة، ومن الأمثلة على ذلك ضرباً للمثل وليس حصراً:

فبأى حديث بعده يؤمنون/ الأعراف ١٨٥.

اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء/ الأعراف٣:٢.

أما السبب الثانى والجوهرى، فهو أنه لا يمكـن لأحـد أن يدعى تمثيل القرآن الكريم وفهمه فهماً واحداً مطلقاً للمقصـد الإلهى من الآيات، ومن ثم لا يمكن اكتساب قدسية القـرآن بزعم فهمه فهماً شاملاً مانعاً. أما الحديث فهو مساحة مناسبة للقرصنة والكذب على النبى، وهو أيضاً مساحة من الدرجات والأنواع يمكن فيها لهم أن يصولوا ويجولوا ليكتسـبوا بـه وحدهم قدرة الفرز بين نسب الصحة فيه. ومن ثم تكون لهم السيادة المقدسة بحيث لا يتخلفون درجة عن النبى،فكما كان النبى مفسراً للوحى، فهم بدورهم من يفسر الحـديث، لـذلك يصرون على أن الحديث جميعه كان وحياً.

وهم بسبيل ذلك لا يعدمون الحجة، فالتاريخ فيه شبيه لهم أسس للانتهازية النفعية، حيث زعم نفعيو القصور الأمويـة والعباسية أن النبى بعد أن نهىعن تدوين السنة عاد فصـرح بها، وذلك فى أحاديث جاءت متأخرة، فقد روى راجح بـن خديج:«قلت: يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: اكتبوا ولا حرج/ انظر السيوطى:التدريب».كذلك روى أبـو

هريرة أن رجلاً كان يجلس إلى رسـول الله فيسـمع منـه الحديث فيعجبه ولا يقدر على حفظه، فشكا ذلك إلى رسـول الله فقال له:«استعن على حفظك بيمينك»/ انظر الترمـذى، وانظر أيضاً البخارى الذى وصفه بأنه من منكر الحديث.

وهكذا رجع صاحب الكمالات فى كلامه، وقرر الله اتخاذ قرار ناقض لقراره السابق فى شأن مصيرى يمـس أعمـق وأخطر شئون أمته المؤمنة ومعاشها وشـرعيتها، فبحسـبان الحديث جمعيه وحياً إلهياً، يكون الله قد قرر بالأمس قـراراً رجع عنه غداً. فهل كان ذو الجلال يتلاعـب بأمتـه التـى أخلصت له الدين؟ أم كان متردداً فى مثل هذا الأمر الخطير؟ وهل يليق ذلك بجلال ذى الجلال؟

إن مثل هذه التساؤلات العقلانية لا تشغلهم، كما لا يشغلهم أن يسلبوا النبى عقله وإرادته، وتحويله إلى مجـرد شـيء كالمذياع، لأنهم يريدون الحديث مقدساً لتكون لهـم مسـاحة السيادة فى رحابه. إذن لنبتعد عن العقل والمعقول والحجـة المنطقية فهى ليست ضمن الأدوات المعتـرف بهـا لـديهم للفصل فى النزاعات، ولنعتمد الوثائق، ونعـود إلـى زمـن الخلفاء الراشدين نستطلعهم الخبر، هل عملوا بنهى النبى عن التدوين، أم بتصريحه بالتدوين؟

أبو بكر أول الراشدين، روت عنه ابنته عائشة:«جمع أبى الحديث عن رسول الله وكان خمسمائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيراً فلما أصبح قال: أى بنية، هلمى الأحاديث التى عندك. فجئته بها فدعاً بنار وأحرقتها/ انظرالذهبى: تذكرة الحفـاظ، ج١،ص٥».

فماذا عن ثانى الراشدين؟

لقد صعد عمر بن الخطاب المنبر وقال:«أيها الناس بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب، فأحبها إلى أحسنها وأقومهـا، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتانى به فأرى رأيى فيه. فظـن الناس الذين كتبوا عن رسول الله أنه يريد أن ينظر بها، فأتوه بكتبهم فجمعها وأحرقها وقال: أمنية عنـدى كأمنيـة أهـل الكتاب. ثم كتب إلى الأمصار:من كان عنده من السنة شـيء فليتلفه/ انظر ابن حزم/الإحكام، ج٢،ص١٣٩».

وهذا الموقف العمرى يكشف عن موقف أزاهـرة اليـوم المتشنجين من ذوى المصالح، فأمنية أهل الكتاب أنهم دونوا كلام أنبيائهم فتحول بمرور الوقت مقدساً، ومن ثـم تقـدس الأنبياء أنفسهم بقدسية مقالاتهم، وأصبح لهـم نصـيب مـن قدسية الله بحسبان كلامهم المرسل فى المناسبات وحيا لدنياً.

ومن هنا نشأت وظيفة الكاهن الذى أصبحت مهمتـه تفسير ذلك الكلام وتطبيقه تشريعاً. ومن ثـم يريـد السـادة الأفاضل اليوم اكتساب تلك الكهانة،إن لم يكونوا قد اكتسبوها بالفعل، رغم أن الإسـلام لا يعـرف الكهنـة ولا الكهانـة، ويرفض بصراحة اختلاط اللاهوت بالناسوت«كما فى الديانة المسيحية التى تؤكد على لاهوت المسيح وناسـوته» وذلـك لتكريس القدسية لبارئ السماء وحده. لكن مشـايخنا ينعـون على المسيحية ربطها للإنسانى بالإلهى فى المسيح ويفعلـون ذات الفعل مع نبى الإسلام بزعم اتصال الإلهى بالإنسان فيه، لينالوا بدورهم حظاً من هذا الامتداد بوصفهم العلماء القادرين علي فرز الحديث وتطبيقه تشريعا.

ولم يقتصر الأمر في عدم تدوين السنة على الراشدين، بل كان أجله الصحابة يعملون بالأمر ويصدعون به مما يشـير إلى الكذب والتـدليس فـي الـزعم بتراجـع النبـي أو الله والتصريح بالتدوين فقد روي أبو نضرة قال:«قلـت لأبـى سعيد الخدرى: إنك تحدثنا عن رسول الله بأحاديث حسنة، فلو كتبناها. قال: لن أكتبكموها ولن أجعلها قرآناً/ انظـر جـامع البيان».

وروى عن حبيب رسول الله ، ومن أوصى النبى بحبـه عبد الله بن مسعود:«جاء علقمة بكتاب فيـه أحاديـث عـن رسول الله فدخلنا على عبد الله بـن مسـعود ودفعنـا إليـه الصحيفة.. فأمر بها فأحرقت ثم قال: اذكر الله رجلاً يعلمهـا عند أحد إلا أعلمنى بها. بهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم حتـى نبذوا كتاب الله وراء ظهرهم/ انظر سـنن الـدارمى، ج١، ص١٢٤».

ولا يغيب عن فطن أن الحديث لم يـدون إلا مـن بعـد الراشدين، تحت رعاية سلاطين القصور،وبالطبع مصالحهم، وتبقى محاولة فهم: إذا كان النهى عن التدوين هو الصـحيح فلماذا أصر أصحاب المسانيد والصحاح على جمع الحـديث وتدوينه؟

ذلك موضوع آخر، يحتاج إلى حديث آخر، فللحديث بقية.

***

تعقيب

قام الدكتور مصطفى محمود بتبني أفكار هذا الموضـوع بل ونقل منه بالنص، وذلك في عدد ١٢ يونيو ١٩٩٩ مـن الأهرام القاهرية، وأثار زوبعة كبرى لم تزل قائمـة حتـى طباعة هذا الكتاب. وعندما استنسخ سيادته مـا كتبنـا لـم يراجعه في مصادره، حتى أن ما وقـع أثنـاء نشـر هـذا الموضوع بروزاليوسف من أخطاء طباعية قام سيادته بنقلـه حرفياً بذات الأخطاء، ونموذجاً لذلك ما جاء في حديث أبـي هريرة (في تقيد العلم ص ٣٢): « فجمعنا ما كتبناه وأتلفنـاه أو قال فأحرقناه» وقد سقط منه« وأتلفناه، أو قال »، فنقلهـا الدكتور مصطفي كما تم نشرها.

وللقارئ هنا أن يراجع الموضوع، وأن يقرأ معنـا قسـماً مما نشره السيد الدكتور في العدد المشار إليه بالأهرام، نعيد نشره للمقارنة،داعين الله للسيد الدكتور بالسلامة في معركـة لا نعلم مدى ذخيرته العلمية فيها .

وهذا ما قاله د. مصطفى محمود:

ليس إنكاراً للسنة

القرآن هو خزينة العلم الإلهي القديم الذى لا يأتيه الباطـل من بين يديه ولا من خلفه وهو العمدة في كل حقائق الـدين والمرجع الوحيد فـي أمـور الغيـب والحسـاب والقيامـة والآخرة.. أنزله الله الذى ليس كمثله شيء فكان على مثالـه كتاباً ليس كمثله كتاب...لا يرتفع إلى ذروة مصداقيته كتـاب

ولا يبلغ مدى حجيته مقال فهو منفرد في صـدقه وإحاطتـه وإعجازه.

أما السنة القولية التى جمعها رواة الأحاديث عن الرسول الكريم فقد جمعها ودونها بشر مثلنا غير معصومين نقلوهـا عن بشر آخرين غير معصومين في سلسلة من العنعنات عبر عشرات السنين (لم تدون الأحاديث إلا من بعد زمن الخلفـاء الراشدين على أيام سلاطين القصور) .

وقد أجمع رواة الأحاديث على أن النبي عليـه الصـلاة والسلام قد نهى عن تدوين الأحاديث وجاء هذا النهـى فـي أكثر من حديث لأبي هريرة وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبى سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وغيـرهم.. وفـي كلمات أبي هريرة.. يقول في قطعية لا تقبل اللبس.. خـرج علينا الرسول ونحن نكتب أحاديثه فقال ما هذا الذى تكتبون.. قلنا أحاديث.. قلنا أحاديث نسمعها منك يا رسول الله.. قال.. أكتاب غير كتاب الله.. يقول أبو هريرة فجمعنا مـا كتبنـاه وأحرقناه بالنار.

وأبو هريرة نفسه هو الذى قال في حديث آخر« بلغ رسول الله أن أناساً قد كتبوا أحاديثه فصعد المنبر وقال.. ما هذه الكتب التى قد بلغني أنكم قد كتبتم.. إنما أنا بشـر فمـن كان عنده شيء منها فليأت بها.. يقول أبو هريرة... فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار» .

وهو نفسه صاحب الحديث المتفق على تواتره« لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه» وفـي رواية لأبي سعيد الخدري قال.. استأذنت رسـول الله عليـه الصلاة والسلام أن أكتب حديثه فأبى أن يأذن لي..

أما عبد الله بن عمر فقال.. خرج علينـا رسـول الله عليـه الصلاة والسلام يوماً كالمودع وقال.. إذا ذهب بـي فعلـيكم بعدي بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه(انظر مسند بن حنبل) .

وأبو بكر أول الراشدين روت عنه ابنته عائشة« جمع أبي الحديث عن رسول الله وكان خمسمائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيراً فلما أصبح قال. أي بنيه هلمي بالأحاديث التى عنـدك فجئته بها فدعا بنار وأحرقها (انظر الذهبي تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٥) .

أما ثاني الراشدين عمر بن الخطاب.. فقد صـعد المنبـر وقال..« أيها الناس بلغني أنه قد ظهرت في أيـديكم كتـب فأحبها إلى أحسنها وأقومها فلا يبقىأحد عنده كتاب إلا أتاني به فأرى رأيي فيه« فظن الناس الذين كتبوا عن رسـول الله عليه الصلاة والسلام أنه يريد أن ينظر فيها فـأتوه بكتـبهم فجمعها وأحرقها.. وقال..« أهي أمنية كأمنية أهل الكتاب».. ثم كتب إلى الأمصار» من كان عنده من السنة شيء فليتلفه» (انظر بن حزم ـ الأحكام ج ٢ ص ١٣٩).

وكان خوف عمر أن يحدث ما حدث لأهل الكتـاب مـن تأليه الأنبياء وتقديس كلامهم فيتحول مع الوقت إلى وحي له شأن الوحي الإلهي وكهنوت كما حدث في الأديان الأخرى.. ثم كان الخوف الأكبر من الأحاديث الموضوعة والمدسوسـة والإسرائيليات..وليس أدل على هذا الخوف من أن البخـاري لم يدون من ربعمائة ألف حـديث جمعهـا إلا أربعـة آلاف حديث فقط وهو نفس الخوف الذى كان في قلب أبي حنيفـة الذى لم يصح عنده سوى سبعة عشـر حـديثاً مـن مئـات الألوف.

وإذا كان هذا الشك والخوف عند الأكابر.. فمن الطبيعـي أن يكون عندنا أضعاف هذا الخوف وألا نقبل من الأحاديـث ما ناقض القرآن الكريم ليس إنكاراً للسنة ولكن غيرة علـى السنة وخوفاً عليها من الوضاعين والمتقولين الـذين قولـوا الرسول عليه الصلاة والسلام ما لم يقل.. إنما نحرص علـى تنقية السنة من كل دخيل عليها.

وفي سورة الأعراف الآية ١٨٥ يقول رب العزة والجلال عن قرآنه« فبأى حديث بعده يؤمنون».

وحرص النبي عليه الصلاة والسلام على إحراق كل مـا كان يكتب من أحاديثه باعتراف أبي هريرة نفسه واعتـراف الأكابر من رواة الأحاديث.. وما فعل أبو بكر وعمر بإحراق ماوصل إلى أيديهما من أحاديث الرسول هو أكبر دليل على استنكارالنبي وخشيته وخوفه من أن تتحول هذه الكتابات إلى متاهة من التقولات والاختلافات وما نكتبه الآن هـو السـنة بعينها وليس إنكار السنة.. إنما نخاف ما كان يخافه رسـول الله ونخشى ما كان يخشاه.

وفي سورة الأعراف أيضاً الآيات ٢،٣

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أوليـاء قليلاً ما تذكرون»

***

أما الدكتور عبد العظيم المطعنى فقد رأى في هذا التطابق بين ما قلنا وبين ما قال الدكتور مصطفى محمود مؤامرة من جانبنا نستغل فيها الدكتور مصطفى ونوعز له بها خفية، وهو ما جاء في صحيفة منكورة تدعى الحقيقة بتاريخ السـبت ٣/ ٧/ ٩٩ صفحة ٩ تحت عنوان: (الإسلام هو القرآن والسـنة وإنكار أيهما كفر..!!)، وهذا بعض ما قاله الدكتور المطعنى

النابه في حق زميله على ذات الأرض والملعب، انظره يقول بعبقرية يحسد عليها:« لقد علمـت أن الـدكتور مصـطفى محمود يتردد عليه منكرو السنة ويزودونه بهـذه الخرافـات التيلا يدري عنها الدكتور شيئاً بدليل أنه يصدر رأيـاً فـي مسألة ثم ينفيه في الأسبوع الذى يليه ثـم يعـود إليـه لأن منكري السنة يذهبون إليه ويمدونه بالشبهات الباطلة فيقولهـا بحسن نية؛ كما قال في المقال الأخير أن السنة كتبـت فـي قصور الأمراء وهذا ما ردده صـبحي منصـور ود. سـيد القمنى، واعتمده الدكتور. فهؤلاء زناديق يجب ألا يسمع لهم الدكتور لأنهم يستغلون مصداقيته وثقله سلاحاً لضرب السنة وتشكيكا في المصدر الثاني من مصادرالتشريع في الإسلام. وهذه الفئة الضالة تستغل الدكتورالذى يفعل ذلك بحسن نيـة، ولذا فنرجوا لنا وله الهداية، وأن يبحث في أي قضية يريـد إثارتها مع المتخصصين ويتعمق فيها قبل أن يخرج بها إلى الناس».

فهل رأيتم مثل هذا اللبيب لبيباً ؟!

عقوبة الرجم ومعيارية القيم[*]

كان مفترضاً أن نناقش اليوم إجابة سؤال طرحناه العدد الماضي،ألا وهو إذا: كان النبي قد نهى عن تدوين السنة القولية،فلماذا أصر أصحاب المسانيد والصحاح على جمع الحديث وتدوينه؟.. لكن جد في الأمور جديد ، فقد أرسلت الدكتورة آمنة نصير برد إلى صحيفة الشعب المتأسلمة في ٦/ ٤/ ٩٩ تؤكد أن عبثاً قد حدث بإجاباتها في الحوار الصحفي الذي أجرى معها ، لكنها لم تتطرق إلى تراجعها عن التشكيك في حديث «المرأة ناقصة عقل ودين» من عدمه، ولا موقفها من رفض عقوبة رجم الزاني المحصن/ المتزوج لعدم وجود آيات في القرآن الكريم تحمل هذا الحكم القاسي. ولأن مسألة الحديث والسنة هي مناط نقاشنا ، فإن ردها هذا يجعل المناقشة مفتوحة ، لمناقشة (حد الرجم) ، خاصة بعد دخول طرف جديد في النقاش هو الدكتور جابر قميحة . وغني عن البيان هنا أن ما نكتبه ليس دفاعا عن شخص العميدة الأزهرية فهي في النهاية زميلة لمهاجميها ، وعميدة بين الأزاهرة، وهى قادرة على الدفاع عن نفسها بطريقتها، فهي علي المستوى الشخصي أعلم بمواطن النفع والمصالح والمضرة.لكن القضية لم تعد تتعلق بشخصها بعد أن انفتحت علي المستوى العام فى أمور تمس معاش الناس وشرائعهم ، وما نزعم الدفاع عنه هو حق الناس في القول

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/٥/١ العدد ٣٦٩٩.

وفى إبداء الرأي المختلف أياً كان، والـدفاع عـن مبـادئ حريات وحقوق الإنسان الفرد ، ورفض الوصاية علي عقول الناس وأرواحهم، بتفنيد أسس المنهج الفاشي فـي التفكيـر، للكشف عن سمات تفكير التكفير، هذا بـالطبع مـع أهميـة القضايا التي طرحهـا هـذا الاصـطراع بـين الأزاهـرة، وحساسيتها الشديدة في المناخ العام السـائد الآن المتصـف بالإفراط في التقديس .

ومن هنا ألحت قضية (حد الرجم) لتدفع إلي مناقشـتها وتأجيل موضوع تدوين السنة القولية إلـي عـدد قـادم ، لمناقشة هذا المستجد لاتصاله الوثيق بالمناهج الفاشـية فـي التفكير .

ولهذا الغرض نعود إلي الدكتور المطعني نقرأ لـه فـي الشعب المتأسلمة بتاريخ ٩٩/٤/٢عبارة تصلح مدخلاً لحديث اليوم ، شخص فيها رأيه في حديث زميلته الأزهرية بقوله : «إن الشأن في كل من يدلى بتصـريحات عشـوائية غيـر مدروسة، لابد أن يقع في الاضطراب والتناقض». وهو مـا يعنى أن الدكتور المطعنى وفريقه لم يدلوا بكلام عشوائي، بل كتبوا ودونوا ولم ينشروا إلا بعد دراسة وتفكيـر وتـدبر لا يسمح بتضارب ما كتبوا واضطرابه . وبما أن سـيادته قـد وضع هذه القاعدة فلا أظنه هو وفريقـه سيعارضـون فـي تطبيقها على ما كتبـوا مـن كـلام غيـر مضـطرب ولا عشوائـي.

ونعود إلي تصريح العميدة الأزهرية في إجابتها عن سؤال حول أحاديث رجم الزاني المحصن . قالت العميدة حسبما تم

نشره :«أما بالنسبة لرجم الزاني فإني أرى هـذه العقوبـة تخالف النص القرآني الذي لم يتحدث عن رجم الزاني» .

وقد رد عليها الدكتور المطعنى قائلاً : «كيـف فهمـت الدكتورة أن رجم الزناة المحصنين يخالف القرآن ؟ هذا وهم كبير يقع فيه كثير من دعاة تحجيم السنة الذين ملأوا السـهل والوعر .. إن المخالفة يا سيدتي هنا معدومة ، لأن القرآن لم يقل لا ترجموا الزناة المحصنين» (؟) .. (!!) . فهل حقاً أن هؤلاء وأسلافهم من أهل شئون التقديس قد تمكنوا من تسليط حد الرجم على رؤوس العباد طوال هذه العقود ، فقط لأن القرآن لم يقل : لا ترجموا الزناة ، فقرروا هـم تقريـر الرجم حداً ؟

إن هذا التبرير فيما يبدو لم يقنع الدكتور قميحـة، فقـام يدعم زميله المطعنى ببيان أكثر إقناعا يبرر الإصرار على حد الرجم مع عدم وجوده بالقرآن الكريم. وقـد استنـد في بيانه إلي أحداث زمن الدعوة ، حيث تم رجم (مـاعز) و (الغامدية) زمن النبي، كما رجمت (سراحة) فـي خلافـة على بن أبى طالب . ولشرح الأمر قام يقـول : «إن عـدم إشارة القرآن إلى عقوبة الرجم لا يعنى أنها لم تفرض ، وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كانت هنـاك آية نصها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالاً من الله والله عزيز حكيم . ثم نسخ رسمها وبقى حكمها» .

فهل حقا كان ثمة آية قرآنية كتلك المستخرجة من كتـب التاريخ الإسلامي وكتب السنة ؟إن السؤال الذي سيسـأله أي مسلم عاقل يرفض الوصاية عليه : فلمـاذا إذن هـي غيـر موجودة بين أيدينا في القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه ؟

وهل يكفى قولهم بذلك ليصبح مرجعـاً عـن كفـة القـرآن المدون؟ ثم لا شك أن التساؤلات ستستمر فيمـا هـو أبعـد وأجدى : لماذا أذن الإصرار على حد الرجم مع عدم وجـود نصه في كتاب الله المتلو بين المسلمين الذي لا يدخله باطل ؟ وما الذي دعي أسلاف العاملين بشئون التقديس لفتح أبواب في علم الفقه أو على الأصح اختراعها اختراعاً ، وإحـداثها في شئون دين يؤكدون أنه ضد المحـدثات ، بوضـع بـاب ضمن أبواب النسخ في علوم القرآن ، أطلقوا عليه: باب مـا نسخت تلاوته (رسمه ،كتابته، تدوينه) وبقى حكمه ، لإبقاء حكم شديد القسوة على العباد، دون النص القرآني الواضـح بشأنه. فهل تم إرسال القول بوجود آية قرآنية غير مدونـة، فقط بغرض الإصرار على هذا الحد الرهيـب ، وتغطيتـه بالقداسة بالقول بوجود آية اختفت من التدوين ؟

وحتى نستطلع تفاصيل حل هذا اللغز نبحث وراء الدكتور قميحة بين كتب الأصول ، فنستمع إلي رواية يحيى بن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قد خطب من علـى منبـر الرسول إبان خلافته فقال : «أما بعد أيها الناس، فإني قائـل مقالة لعلها بين يدي أجلى فمن وعاها وعقلها فليحدث بهـا حيث انتهت راحلته ، ومن لم يعها فلا أُحل له أن يكذب على الله عز وجل . بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بـالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها وعقلناها ، ورجم رسول الله ورجمنا مـن بعـده . فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجـد آيـة الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قـد أنزلهـا الله. فالرجم في كتاب الله حق على من زنـى إذا أحصـن مـن الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتـراف . /

أنظر فتح البـاري ١٩١/١١ ، ١٩٢ أخرجـه الصـحيحان مسلم٨٥/١٥ وأحمد٨٢/٨١/١٦

«وعن يحي بن المسيب قال : قال عمر بن الخطـاب : وآية الرجم لا تضلوا عنها.. وأنها نزلت وقرأناها: الشيـ ـخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ولولا أن يقال زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي».

وفي رواية (زر) أن الآية كانـت «إذا زنـى الشـيخ والشيخة فارجموهما البتة ، نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم / انظر ابن الجوزي : نواسخ القرآن ، ص ١٤/١٣»، وفي رواية إمامة ابن سهل أن خالته قالت له :«لقد أقرأنا رسـول الله آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بمـا قضيا من اللذة / انظر السيوطي: الإتقان في علوم القـرآن ، ج ٢ ،ص ٢٥».

فما مدى السلامة في هذه الروايات عن الآية المختفية التي تحمل أشد الحدود وأخطرها طراً ، خاصة وأنها جاءت فـي أحاديث تناقلها بشر عن بشر غير معصومين وكان يمكن ألا تدون إطلاقاً ، لا هي ، ولا السنة القولية جميعاً، لولا قـرار الخليفة عمربن عبد العزيز بجمع السنة وتدوينها ناهيك عـن تعلقها بأمر يمس صميم القرآن الكريم وجوهر قدسيته .

وهنا ملاحظات واجبة : أولا، الاهتمام الكبير والاحتفـاء الواضح بخطب كخطب عمر بن الخطاب ، وعدم الاحتفـاء إطلاقا بتسجيل ما يزيد على خمسمائة خطبـة للنبـي فـي المسلمين . ألا يشير ذلك إلي العمد والقصـد فـي الانتقـاء والاستبعاد والاستبقاء و(الغربلة) التـي يرفضونها اليـوم؟

وأي ظروف كانت تقف وراء اختفاء خطب النبي وظهـور خطب عمر بن الخطاب ؟

والملحوظة الثانية: إشارة الخليفة عمر إلـي صـحابة لا يعرفون بأمر مقالته حول حد الرجم في قوله:«ومن لم يعهـا فلا أحل له أن يكذب على الله عز وجل»، وهو ما يعنـى أن الحد المذكور لم يكن مشهراً معروفاً بين جميع المسـلمين ، ونحن نعلم أن حجية التشريع تكون بإعلانـه علـى النـاس جميعاً.

أما الثالثة: فهي تضارب نص الآية المختفية بين الروايات فقد جاءت على تنويعات ، فهي في خطبة عمـر : «الشـيخ والشيخ إذا زنيا فارجموهما البتة » وهي في روايـة زر«إذا زنى الشيخ و الشيخة فارجموهما البتة نكـالاً مـن الله والله عزيز حكيم». وهي في رواية خالة إمامة ابن سهل «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة» ، فهل يمكن هنا الاستناد إلى ذلك والاعتراف بآية تضـاربت فيهـا الأقوال لفظاً ومعني، فقط عدا (الشيخ والشـيخ، والـرجم) المتفق عليها ؟ وهنا قد يخطر على بال مؤمن بسيط السؤال : فما هي إذن حجتنا على أهل الكتـاب واتهـامهم بتحريـف مقدساتهم ؟ ثم ماذا تعني الآية بالشيخ والشيخة ؟ نحن نعلـم جميعاً أن أهل الشرع ورعاة المقدس قد انتهوا بشأن جريمة الزنا إلـى قاعدة رجـم الزناة المحصنين وجلد الزناة غيـر المحصنين/ غيـر المتـزوجين. ولفـظ الشـيخ والشـيخة سيتضارب مع تلك القاعدة، فمعنى الآية رجم الشيخ الزانـي حتى لو لم يحصن ، وجلد الشاب حتى لو أحصن، وهو مـا عبرت عنه رواية يقول فيها عمر بن الخطاب :«لما نزلـت

آية الرجم أتيت النبي فقلت أأكتبها ؟ فكأنه كره ذلـك (؟!) فقال عمر : ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن يجلـد ، وأن الشاب إذا زني وقد أحصن رجم ؟ / انظر الإتقان ج ٢/ ص ٢٦ للسيوطى». وهي ذات الحجـة المعترضـة عقـلاً وشرعاً التي ساقها زيد بن ثابت الـذي قـام علـى تـدوين المصحف المجموع بأمر الخليفة عثمان بن عفـان ، عنـدما سأله مروان بن الحكم :«ألا تكتبها في المصحف ؟ قال: ألا ترى أن الشابين الثيبين (أى المحصنين) لا يرجمان» انظـر ذات الصفحة بالسيوطى.

يبدو أن مثل هذا هو ما استند إليه الـدكتور قميحـه فـي الإصرار على حد الرجم رغم عدم وجوده في القرآن، لكـن للعقل شروط لا يتنازل عنها للقبول والرفض مع الاحتـرام الكامل لنصوص الدين ، بل إن هذا الاحترام ذاته هو ما يقف وراء هذه المناقشة كلها ، وهو ما يـدفع إلـي مزيـد مـن التساؤل: كيف حدث الأمر ؟ أي كيف تم نسخ هـذه الآيـة رسماً كما قال ولماذا بقي حكمها ؟ والأمر الأهم: هل جـاء بالقرآن الكريم أي إشارة إلى آيات تـم نسخهامع وجوب بقاء حكمها حتى يكون لادعائهم السمع والطاعة؟ أم أن ذلك مـن تصنيفات فقهاء تقديس السنة وهم بشر مثلنا لا عصمة لهـم ولا قداسة ؟

بشأن النسخ أحاط الله عباده علماً في كتابه العزيز بقاعدة إلهية لا يصح لبشر تجاوزها أياً كان وضـعهم أو رتبـتهم ومقامهم ، من مقام الأزاهرة إلي مقـام النبـوة . والقاعـدة يوجهها الله تعالي للناس متحدثاً بلسان ذاته العلية قائلاً:«مـا ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منهـا أو مثلهـا / ١٠٦ /

البقرة »، وهو ما يعني بالضرورة وجود آية جديـدة بديلـة تحمل حكماً جديداً ناسخاً لحكم آية الرجم المنسوخة ، لـذلك كانت دهشة (ابن الحصار) مبررة ومفهومة وهـو يتسـاءل منزعجاً: «كيف يقع النسخ إلى غير بـدل ، وقـد قـال الله تعالى: ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منهـا أو مثلهـا ؟!/ انظر السيوطى فى الإتقان ج ٢ ص ٢٦».

لكنك للوهلة الأولى تجد بكتاب الله بدل البديل الواحد اثنين:

الأول قول الآيات الكريمة : «واللاتي يأتين الفاحشـة مـن نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهـن سـبيلاً. واللذان يأتينها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصـلحا فأعرضـوا عنهما / ١٥ ، ١٦ / النساء» . وهو ما يعنى الحكم بحـبس الزانية المحصنة فـي بيتها، وإيذاء الزاني المحصن ،وقـد أتفق علي أن هذا الإيذاء يكون بالسب والتعيير . أما البـديل الثاني فهو ما جاء في قوله تعالي:«الزاني والزانية فاجلـدوا كل واحد منهما مائة جلدة /٢/ النور».

لكن الفقهاء يقولون لنا إن الآية الثانية قد نسخت الأولى . لكن لأن الآية الثانية تحكم بالجلد دون تمييز بين المحصـن والأعزب ، فقد قاموا يؤكدون أن نسخاً ثانياً قد حـدث بآيـة الرجم المختفية ، نسخ فيه حكم الجلد عن الزناة المحصـنين بحد الرجم ، لكن دون بديل لهذا الحكم المنسوخ في القـرآن المدون .

وهكذا يقول رجال شئون التقديس أن حكم السنة ينسخ حكم القرآن (؟!) .

نحن نستخدم هنا تعبير (الآية المختفيـة) لأننـا لا نملـك اجترائهم علي كتاب الله وقرارات الله ، ولا نسلم بوصفهم لها بأنها قد نسخت لأن النسخ مرتبط بالضرورة بالبديل حسـب القرار الإلهي بالقرآن الكريم . لذلك من المفيد هنا أن نستأنس ببقية الروايات المتعلقة بآية الرجم المختفية للتيقن من مـدى صحة القول بنسخها . والنسخ في الوحي كما نعلم ، هو أمر غير جائز لبشر،إنما هو أمر إلهي لا مكان فيه لبشر . وبين تلك الروايات نجد عمر بن الخطاب الذي يصـرالرواة أنـه صاحب التشديد علي العمل بحد الرجم يقول: «لما نزلت آية الرجم أتيت النبي ص فقلت أأكتبها ؟ فكأنه كره ذلـك» (؟!) وعمر بن الخطاب نفسه هو من وقف له أبى بن كعب يذكره بما حدث زمن النبي بشأن آية الرجم يقول له :«أليس أتيتني وأنـا أسـتقرئها رسـول الله ص فـدفعت فـي صـدري وقلت:تستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحمر/ انظـر السيوطى في الإتقان ج ٢ ص ٢٦ ، ٢٧»: إذن فالروايـات تقول بآية نزلت تحمل حد الرجم ، لكن هذه الآية لم تدون في القرآن الكريم ليس بأمر إلهي ، إنما بعمد مقصود ، بكراهـة النبي ص تدوينها،وللحجة العقلية الشرعية التي قدمها عمـر وزيد بن ثابت حول عدم اتساق رجم الشيخ محصناً أو غيـر محصن ، وجلد الشاب محصناً أو غير محصن . وثالثـاً لأن الناس كانوا يتسافدون (يتناكحون) تسافد الحمر (الحمير)، وهو ما يعني في حال تدوين الآية وتطبيق الحـد ، وقـوع الرجم علي أعداد غفيرة من المسلمين زمن الدعوة ، ثم رابعاً اختلاف نص الآية المختفية بين الرواة ، ثم الاختلاف بينهـا وبين عقوبتين وردتا بآيتين مدونتين بالقرآن ، ثـم تضـارب

نصها مع قواعد عقوبة زنى الأعزب والمحصن المقـررة ، وهو ما لاحظه (ابن حجر) وهو يقول إن «السبب في رفع تلاوتها هو الاختلاف / المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٧» . هذا ناهيك عن غلاظ الحد وقسوته ، تلك القسوة التي لم تجد صدي في نفس الدكتور قميحه وروحـه فكتب يسخر مـن العميدة الأزهرية لاستبشاعها تلك العقوبة : «يفهم القارئ من كـلام العميدة بصورة ضمنية استبشاعها واستفظاعها لعقوبة الرجم .. فالرجم بالحجارة حتى الموت قسوة لا تتفق مع الإنسـانية أو مع السيستم الحضاري القائم حالياً..بل هناك من دعا إلـي إنكار الجلد لأنه إنكار لآدمية الإنسان» . هذا بينما قدم الإمام جلال الدين السيوطي تفسيره لما حدث مع آية الـرجم فـي قوله: «إن سبب التخفيف علي الأمة بعدم اشـتهار تلاوتهـا وكتابتها في المصحف ، وإن كان حكمها باقياً. لأنـه أثقـل الأحكام وأشدها وأغلظ الحدود / المصدر السـابق ج٢، ص ٢٦».

أليس من حق مؤمن يريد الاطمئنان لطوية فؤاده مع كـل هذه المعوقات أمام القبول العقلي والشرعي والنفسـي لآيـة الرجم المختفية أن يتساءل : إذا كان النبي والصـحابة قـد كرهوا تدوينها ، وإذا كانت تتضارب مع تقعيدهم جلد غيـر المحصن ورجم المحصن شاباً أو شيخاً ، وإذا كانت العبـرة في ذلك كما قال الإمام السيوطي لغلظ الحد وقسـوته أفـلا يكون نسخ الحكم مع الآية هو الأكثر منطقية وانضباطـاً؟ ناهيك عن كون ذلك يبعدنا عن شـبهة الافتئـات علـي الله والتزيد علي كتابه الذي كان وراء عدم تدوين عمر لها بيـده فيما تقول الراوية.

أيها السادة من أهل شئون التقديس : هناك سؤال منطقـي من حق الناس لا يجب أن يستفز أحداً:هل حقاً تملكون يقينـاً كاملا بتلك الروايات حول الآية المختفية؟ وإذا كان ذلك حقاً فلماذا لا تدونونها بكتاب الله ؟ وإذا كان المانع من التـدوين عدم اليقين ، فلماذا الإصرار العظيم علي عقوبة الرجم ؟

ليس ثمة تفسير آخر سوي تلك السمة الواضحة التي تطبع العقول الفاشية منذ فجر زمانهم الأول ، والتي تميـل نحـو التشدد والغلو والتطرف نحو القسوة والغلاظة مع عبـاد الله ، رغم سماحة الإسلام العظيم الذي كان دوماًمع التخفيف عـن العباد .إنها لازمة فاشية متواترة تبحث دوماً عن الـدلالات المتشددة وتنقب عنها أو تخترعها اختراعاً إذا لزم الأمـر . وهو أمر واضح في كثير من المواقف، كالموقف من نصـح الآيات باجتناب الخمر الذي تحول إلي ابتعاد كامل بالكليـة ، وكالموقف من قطع يد السارق الذي يجب أن يتم فعلاً، رغم أنه بالإمكان تأويل القطع بحبس هذه اليد مع صاحبها بعيـداً عن المجتمع إبعاداً لشرها بدلاًعن قطع يحوله إلى عالة،غير قادر على الكسب ، ثم الإصرار على الرجم رغـم وجـود بدائل في كتاب الله أكثر رفقاً بعبـاد الله ، وذلـك اسـتناداً للتقديس الكامل للسـنة التـي رأينـا نموذجهـا المتخـبط والمتضارب في الروايات .. والنماذج كثيرة وغفيرة .

هذا مع ملاحظة تأسيسية ، هي انطواء هذا الإصرار على عقوبة الرجم علـى إسـاءة بالغة للإسلام ومقدسـه القرآني

الجليل، فالقول بكراهة النبي تدوين الآية إنما يعني أن النبـي (ص) قد أهمل عامداً تبليغ كامل رسالته المكلـف بتبليغهـا للناس . وهي ذات الإساءة الكامنة في الإصرار على تقديس السنة بحسبانها وحياً مقدساً إلهياً بالكامل . فإذا كان النبي قد نهي عن تدوين السنة فهو ما يعنـى ـ حسـب مـنطقهم ـ تفريطه في تبليغ كامل رسالته . وهو مـا يعنـي أيضـاً أن الصحابة قد تدخلوا في التدوين واسـتبعدوا مـا لـم يـرق لظروفهم حين كان الناس يتسافدون تسافد الحمر ، وهي كلها مما لا يطمئن إليه قلب المؤمن . وهي المعاني التـي لابـد تعيدنا بالضرورة إلى موقف الدكتوريحيي إسماعيل حبلـوش الرافض لتغير الأحكام بتغير الأزمان تأسيسـاً علـي القـيم الأخلاقية ، حيث زماننا من وجهة نظره لا يصـح مقياسـاً سليماً لأنه «زمان كلينتـون و مونيكـا ، و ديانـا ودودى أيضا». لنسأله بكل براءة : فماذا عن تسافد النـاس تسـافد الحمر زمن الدعوة (مثلاً) ؟

لقد سبق وأشرنا إلى أن القـيم معياريـة تتغيـر بتغيـر الظروف والأحوال، باختلاف الأماكن وبتغير الأزمان ، وهو أمر من بسائط علم الاجتماع البشري ، لا يصح معه القول بإطلاقية سلوك قيمي بعينه لفرضه علي كل البشر فى كـل مكان وزمان. لارتباط القيم بظروفها التي أفرزتها ارتباطـاً وثيقاً، فعلاقة كلينتون بمونيكا حسب منظومة القيم الجديدة في الغرب المتقدم هي فعل حرتم باختيار واعٍ من قبل الطـرفين دون إكراه أو إرغام. ونحن نعلم أن النكاح في الإسلام يقوم علي الاختيار الحر للطرفين ناهيك عن زواج المتعة الـذي كان معمولاً به زمن الدعوة ولم يزل معمولاً به عند الشـيعة الإثنى عشرية وفي دولة إيران الإسلامية . هي عند الغـرب

فعل حر والمحاسبة عليه ليست حقاً للقـانون الأمريكـي ولا للشعب الأمريكي ، فقط ربما هي حق الزوج أو الزوجـة ، حق المتضرر . و السيدة هيلارى زوجة كلينتون كما نعلم لم تضج ولم تشكو .

وكما يعلم الجميع فـإن إجـراءات محاسـبة الـرئيس الأمريكي كانت بسبب كذبه علي شعبه وهنا كبري الكبـائر عند هؤلاء الأباعد . ثم بسبب محاولته التأثير بمنصبه علـى شهادة الشهود، وهذا مساس بقدس أقداسهم الوثني : القـانون (؟!).

وماذا لو رد علينا أصحاب تلك القيم الحرة يتساءلون عـن القيم لدينا ، وعن القيمة الأخلاقية في شـراء امـرأة حـرة أوقعها سوء حظها في يد النخاسين من تجار الرقيق أو فـي الأسر . وتشريع مواقعة هذه المرأة وهي لا تملـك اختيـاراً بالقبول أو بالرفض ، بتصريح شرعي بوطء ملك اليمين .

المسألة ليست إذن زمناً ذهبياً لاتسامه بقيم رفيعة ولا زمناً دنساً لاتسامه بقيم دنيا ، فالقيم ليست وصـما ولا قـدحاً ولا مدحاً للزمن بـل،هي فرز ظروفـه وطرائـق الناس حسب أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . لذلك تتغير دوما ، ومن هنا يصبح الحكم القيمى بالضرورة مبنيا علـي مـا تعارف عليه الناس في زمنه .

لذلك أمر الإسلام بالمعروف ونهي عن المنكر، ولا أحـد يمكنه الاختلاف علي أن المعروف هو ما تعارف عليه الناس وأن المنكر هو ما استنكره الناس ، في مجتمعهم وزمـانهم . لذلك تعارفت معظم دول العالم المتقدم في زماننا على تجريم العقوبات البدنية كالجلد والقطع والـرجم ، وأيضـاً تجـريم استعباد الإنسان لأخيه الإنسان وتجريم الاغتصاب واعتباره

الزنى الحقيقي لأنه لا يقوم على الاختيـار الحـر ، ومـن الطبيعي أن يردوا علينا أن وطء الجواري هـو الاغتصـاب العلني ، وأنه قيمة قد تجاوزتها الإنسانية مع تحولات الزمن ومتغيراته إلي غير رجعة .

فقهاء السلطان والتشريعات السلطانية(*)

قبل قيام الدولة الإسلامية لم يكن للعرب فـي جزيـرتهم معرفة بأساليب الإدارة الحكومية، ولا دواوينها المعقـدة، ولا مجالسها التشريعية، ولا نظام الأمن والشـرطة المتطـور. وكان اعتماد الفرد فى أمنه وسلامة ماله وروحه على نسـبه القبلى وحمايته العشائرية. ومن كان يتم خلعـه مـن قبيلتـه يصبح نهباً مباحاً مهدور الدم، ومن هنا نشأ نظـام الإجـارة لدى قبائل بدو الجزيرة، حيث كان بإمكان المخلوع أن يلجـأ إلى الاستجارة بقبيلة أخرى يعيش في ذمتهـا آمنـاً فـى جوارها وحماها .

ومع قيام حكومة أول دولة عربية فى يثرب،أمكن لقبائـل العرب المتشرذمة فى جزيرتها أن تتوحد فى دولة مركزيـة واحدة، ومع تهاوى إمبراطوريتى الفرس والروم بعد حربهما السبعينية، خرج العرب من جزيرتهم يملأون الفراغ الناشـئ فى المنطقة، ليقيموا إمبراطورية شاسعة، بـدأها الأمويـون الذين نقلوا عاصمة الدولة من مدينة الرسول المنـورة إلـى دمشق الشام.لكن ليجدوا أنفسهم فـى ظرف جديد أكثر تعقيداً مما ألفوه فى بداوتهم البسيطة الأولى. بين شـعوب عريقـة بحضاراتها ولغاتها وأنظمتها الإداريـة والاجتماعيـة، لهـا

(*) تم نشره فى مجلة روزاليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/٥/٨ العدد ٣٧٠٠.

تاريخها الممتد فى دول مركزية منذ فجر التاريخ. وهنا واجه الأمويون أول المشاكل الكبرى، فهم لا يحملون معهـم مـن فيافى جزيرتهم مـن ثقافة سوى القـرآن الكـريم وبعـض الأشعار وعلوم الأنساب وما من قبيلها، وهو زاد كان غيـر كاف إزاء متغيرات شتى تختلف عن بيئة البداوة فى الـبلاد المفتوحة بكل جديدها المتعدد، خاصة أن القرآن الكريم كـان يحمل مجموعة تنظيمات وأحكام عامة دون تفاصيل .

وهكذا لم يجد الفاتحون من حل سريع سـوى نقـل نظـم الإدارة الرومانية فى شئون الإدارة والدواوين والحكم، ممـا أدى إلى ظهور مشكلة أخرى تتعلق بمدى شـرعية الحكـم الأموى، الذى ادعى أنه امتداد لدولة يثرب النبوية. بينما كان الواضح أمام الصحابة والتابعين والأتقياء، أن تلك الأسـاليب الرومانية فى إدارة شئون الـبلاد تخـالف القـرآن الكـريم مخالفات جمة وصريحة.

والمعلوم أن الأمويين قد حولوا دولة الخلافة إلـى ملـك وراثى عضود.لكن حتى يمكنهم الزعم بامتداد دولتهم لدولـة الخلافة، تحايلوا بالمراسم الصورية والطقوس الشكلية، فكانوا يأخذون البيعة للملك الجديد ولو بالقوة وإسالة الدماء الزكية ، كما حدث في أخذ معاوية البيعة لابنه الفاسق يزيـد، وذبـح حفدة الرسول (ص) بلا خشية ولا ورع.وهو الأمر الذى لـم يسلم من معارضة الصـحابة والتـابعين والأتقيـاء، وهـى المعارضة التى قوبلت بعنف معلوم فى التاريخ العربى. هذا بالطبع مع ما بات ظاهراً للجميع من اختلافات تأسيسى بـين نظام ملكى قائم على قوة الحراب والسـيوف يملـك الأرض ومن عليها، وبين موقف القرآن الكريم من النظـام الملكـى، ومن الملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها .

وبين تراكم التناقضات بين النظام الجديد المعقـد وبـين العموميات المقدسة، أصبح الأمويون بحاجة لإلباس نظـامهم لبوسا مقدساً، فقاموا يشترون الذمم ومـن يمكـنهم اختـراع الأحاديث المنسوبة للنبى(ص)، تلك الأحاديث التـى كانـت تتضارب مع صريح الآيات وتخالف القرآن الكريم وروحـه مخالفة بينة، ولم يتم ذلك إلا بعد أن دربوا الأجيال الجديـدة التى لم تحضر الزمن النبـوى الجليـل، ومسـلمى الـبلاد المفتوحة على قبول مبدأ قدسية السنة القولية. وهنـا لمعـت أسماء وظهرت فى أفق التاريخ الإسلامي مع رواية السـنة القولية، ليس لها من مآثر كمآثر الصحابة الأوائل الذين كانوا وقود الدعوة ونجاحها، وكـل مـأثرتهم أنهـم كـانوا رواة لأحاديث يقف وراءهـا كثيـر مـن الأغـراض وبخاصـة الأغراض السياسية. وتم إكساب السنة القولية قدسية الـوحى التى لا تقبل اعتراضاً بحكم قدسيتها. ولم يعدم المعارضـون الوسيلة فلجأوا لذات الأسلوب كما فعل الشيعة مثلا، فقـاموا يخترعون الأحاديث النقيضة ويوثقونها بالإسناد وبالتواتـر، معارضة لما كان يفعله فقهاء السلطان والتشريعات السلطانية وهنا كانت بداية تقديس أمـر لـم يكـن مقدسـاً .. السـنة القولية...!!.

وواجهت الإدارة الإسلامية مشكلة أخرى، وجدت حلها عن طريق السنة القولية، فهى عندما نقلت نظم الإدارة الرومانية رفضت أى مشاركة فى الحكم بـرفض مجلـس السـوناتو، وأصبحت دولة ثيوقراطية لا تملك هيئـة تشـريعية تسـن القوانين. ومن هنا تم توزيع مسئولية التشريع والإجـراءات الجزائية بين طرفين : الحكام الذين اخترع لهم رعاة شـئون التقديس سلطة (التعزير) لإصدار الأحكام فيما لم يـأت بـه

نص قدسى واضح، ورجال الحديث والفقه الذين قاموا علـى تفصيل التشريعات العامة بالسنة القولية، وتضـافرت فـوق رؤوس العباد ثلاث سلطات : سلطة النص، سلطة الحـاكم، سلطة رعاة التقديس/ رجال الدين. لكن سلطة رجـل الـدين حينذاك كانت تبنى ويعترف بها على صـحابيته أوتابعيتـه أوعلمه وتقواه، ثم أضيف لها مدى تمطط ذمة بعض هـؤلاء وفق مطالب السلطة السياسية. ومع الزمن أضيف إليها مـع إنشاء الأزهر اليونيفورم المشيخى وشهادة التخرج الأزهرية، التى ظنوا بها أنهم ورثة السابقين لامتلاك السـلطان علـى رقاب العباد حتى اليوم، وهو ما يمثله قـول الـدكتور عبـد العظيم المطعنى فى صـحيفة عقيـدتى بتـاريخ ٩٩/٤/٢٠ وهـو يفسر قوله تعالى :«أطيعـوا الله وأطيعـوا الرسـول وأولى الأمر منكم» بقوله «أن المقصود بأولى الأمر الـذين أمر الله بطاعتهم هم: الحكام أو الأمراء ثم العلماء، يطيعـون الحكام فى سياسة الدنيا ويطيعون العلماء فى شئون الدين».

لكن على الجانب الآخر، وإبان محاولات توفيق الشرع مع الواقع الجديد المتغير بالفتوحات، كان هناك المخلصون مـن أبناء الأمة، العقلانيون، الذين لم يبتغوا عـرض الـدنيا ولا تاجروا بالدين، فقالوا رأيهم دون أن يخترعوا حديثا أو يكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا رأيهـم كـرأى بشرى قابل للمناقشة والصواب والخطأ ولم ينسبوه للقرآن ولم يلبسوا أنفسهم عصمة ولا قداسة ولا طلبوا لأنفسهم الطاعة، فاحترموا الدين واحترموا أنفسهم واحترموا مصـالح النـاس ولم يتاجروا بفقههم لصالح السلطان.لكن تاريخنا كدأبه يعلـن أن من اخترع ولفق ونسب للنبى هو الفريق الذى فاز بذهب المعز وجلس عن يمين السلطان، وأن من أخلص الغرض لله

وللناس تم تبديعه وتكفيره لأنه لم يستمد سلطانه من الكـذب على النبى وربه. وهو الفريق الذى اختفى من ساحة تاريخنا، ولم يبق فى ساحة هذا التاريخ سوى فقهاء السـلطان الـذين يطلبون الطاعة لأنفسهم مرافقة لطاعة الحكام والأمراء لأنهم أولى الأمر منا (؟!).

هذا ما كان عن الأسباب الموضوعية لظهور رواية السنة القولية وإلباسها القدسية فى واقع التاريخ العربى،أما تـدوينها فله أسباب أخرى يتفق حولها الجميع، وهى تكاثر الكذب على النبى صلى الله عليه وسلم، حتى تضاربت الأحاديث المروية عنه باختلاف الأغراض ومصالح السلاطين وسـادة الفـرق حتى أن بعضها تناقض مع كتاب الله العزيز . ومع التكـاثر الهائل فى الروايات المكذوبة، لجأ السلطان التقى عمـر بـن عبد العزيز إلى إصدار أوامره بجمع السنة وتدوينها، ومنـع الرواية عن النبى بعد التدوين. لوضع حـد لهـذا التـراكم المتضارب المكذوب. لكن هذا التدوين لم يسلم من معارضة الأتقياء الذين كانوا يعلمون بأمرالنبى عدم تدوين سنته حتـى لا تتحول إلى مقدس بجوار المقدس القرآنـى، وحتـى قـال الزهرى بلسان فصيح : «كنا نكره كتابة السنة حتى أكرهنـا عليها هؤلاء الأمراء».

ولا نقول هنا جديداً، بل المعلـوم لكـل مهـتم بالتـاريخ الإسلامى وتراث الإسلام عندما نؤكـد أن تكـاثر الحـديث المكذوب قد جاء أولا، نتيجة اتساع رقعة الدولة بالفتوحـات، ودخول شعوب مغايرة بنظمها وثقافاتها تحت ربقـة الحكـم العربى، مما احتاج إلى تفاصـيل أوسـع مـن العموميـات القرآنية. ومن ثم كان اللجوء إلى اختراع الأحاديـث التـى تتناسب والمطلوب للأوضاع الجديدة. هذا بالطبع مع أسباب

تأسيسية معلومة، تتمثل في انقسام المسلمين حول نظام الحكم/ الخلافة، الذى لم يأت به نص. فكان أن اخترع كل مذهب وكل فرقة أحاديث لبست القدسية لتأييد توجهاتها، وهو الواضح الجلى بين السنة والشيعة، والواضح أيضاً أن تلك الاختراعات المكذوبة لم تكن تقصد وجه الله بقدر ما كانت لأغراض ومصالح دنيوية بحتة، وساعد على ترسيخ قدسية الحديث بمكذوباته أن القضاة فى ظل عدم وجود هيئة تشريع تمثل الأمة، وفئاتها ومصالحها، قاموا يستقون أحكامهم من اجتهاد أئمة المذاهب كل حسب المذهب الذى يشايعه، ومن الأحاديث المعتمدة لدى هذا المذهب، وبمرور الوقت تحولت تلك الأحاديث واجتهادات الأئمة الظرفية فى أزمانهم، إلى شريعة مقدسة رغم اختلاف شواهدها وأحكامها بين الفرق والمذاهب.

ووجه المشكلة هنا أن الحديث قد أصبح مصدراً من مصادر التشريع إلى جوار النص الأصلى (القرآن الكريم) إضافة إلى الإجماع والقياس. بل تم إلباس المصادر الأربعة قدسية القرار الإلهى رغم أنها جميعاً إنسانية بشرية تتفق ومعارف الزمن الذى انتهى إليها وأقّرها . فالقرآن الكريم رغم أنه النص الصحيح الثابت الأول، فإن من يفهمه بشر ومن يطبقه بشر، ومن الطبيعى أن يختلف البشر فى فهمه وتطبيقاته، فهو كما قال الإمام على لا ينطق بلسان لكن ينطق به الرجال، كما أن فيه اجتهاداً بشرياً مسموحاً به يتمثل فى اجتهادات الخليفة ابن الخطاب بشأن المتعة وسهم المؤلفة قلوبهم، وحد السرقة عام الرمادة .. الخ. والحديث قد علمنا بشأنه ما قد علمنا فهولم يدون إلا فى القرن الثانى الهجرى، وتعرضت نصوصه للتحريف والتزوير ومعظمه أحاديث

آحاد لا تصلح للتشريع الجماعى، وقامت فيه البشرية بـدور واضح لا يجادل فيه إلا صاحب مصالح مكابر، أما الاجماع فمختلف بشأنه هل هو إجماع الصحابه أم الفقهاء أم الأمـة؟ وهو فى النهاية وعلى أى وضع، إجماع بشر غير معصومين غير مقدسين لا يأتيهم وحى من السماء، أما القياس فمستعمار من الفيلسوف اليونانى أرسطو طاليس ولـه قواعـد عقليـة مقبولة فى بعض الأمور وغير مقبولة فـى أمـور أخـرى تجاوزها الزمن بتجاوز القياس إلى الاسـتقراء التجريبـى. وبمبادئ وقوانين هذا القياس نفسه المعتمـد لـدى العـاملين بشئون التقديس لا يصح إسباغ القدسية على السـنة القوليـة جميعاً، فمن أهم أشكال القياس قاعدة تقـول إنـه إذا كـذب الجزء كذب الكل،وإذا كذب البعض يصبح الحكم على الكـل مجهولاً. أى أنه إذا كذب حديث واحد فـإن الشـك وعـدم اليقينية ينسحب بالضرورة على البقية ولا يمكن إصدار حكم إطلاقى بالصدق على كله أو بعضه. وهنا يطـرح السـؤال نفسه: إذا كانت مصادر الشريعة فى نهاية الأمر إنسانية فـى مجملها، فلماذا تثبيتها بإلباسها ثـوب القداسـة ؟ وإذا كـان الإنسان ابن زمنه، وأن تقعيدات تلك الشرائع قد وضعت فى زمن يناسبها فما الحكمة فى تثبيتها بزعم قدسيتها وشموليتها لكل زمان ومكان دون مراعاة للمتغيرات؟.

وأضرب مثلا واحداً لنماذج ذلك الثبات المـدهش ، ففـى قوانين الأحوال الشخصية لم يزل الطلاق عند السنة يقع لفظاً حتى اليوم، فتحول اللفظ إلى كلام سحرى يتحـول بمجـرد نطقه الى فعل مدمر يشتت أسرة ويهيل بنيانها هباء،وهو مـا كان يقع لفظاً فى الزمن القديم إلا لانتشار الأميـة المعممـة وعدم وجود العقود الضرورية فى دواوين وأرشيف يحفظها

ويتابع نتيجتها ويعاقب على انتهاك بنودها. واليوم انتهى ذلك الوضع الجهول بواقع جديد،وزمن مخالف، ومع ذلك تصـر تلك القوانين حتى اليوم على وقوع الطلاق لفظاً فـي فعـل سحرى منتكس إلى مرحلة ما قبل الأديـان، عنـدما كانـت الألفاظ تحمل فى داخلها قدرات سحرية فاعلة.

هذا ناهيك عن كون أى قانون أو تشريع لا قيمة لـه فـى ذاته بعيداً عن مصالح الناس، وتلك المصالح تتغيـر بتغيـر الظروف عبر المكان وبتغير الزمان. وقد وعـى المـذهب المالكى هذا الأمرمبكراً فقال إنه بالإمكان التخلى عن قاعـدة تشريعية إذا تغيرت الظروف وتطلبت مصالح الناس حكمـاً مغايراً .

وهنا يلح موقف مشـايخ الرقابـة والتكفيـر والسـلطان الكهنوتى الذين قاموا بهجمـتهم العنتريـة علـى زميلـتهم الأزهرية لطعنها فى صدق حديث المرأة ناقصةعقل وديـن، ومثله حديث لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، وهـو الحـديث المعتمد فى الموقف المعلن ضد تعيين المرأة فـى مناصـب الولاية والقيادة والرئاسة ،كمنصب القضاء مثلاً.والإصـرار على أن تغير الزمن لا يعطى المرأة حق الولاية .هذا رغـم علمهم أن حديث لا يفلح قوم ولوا أمـرهم امـرأة قـد رواه البخارى وقال إن الصحابى أبا بكرة قد تذكره عقب هزيمـة فريق السيدة عائشة فى موقعة الجمل، وأن النبى كان قد سبق وقاله عندما آل عرش فارس إلى امرأة زمن الدعوة. وفـى هذه الحالة أيضاً نجد السادة العاملين بشئون التقديس يميلـون كل الميل نحو التشدد والتعصب والوقوف صفاً واحـداً وراء حديث أبى بكرة، هذا رغم أن السيدة عائشة أم المؤمنين قـد أخذت الولاية فعلاً، وليس قولاً ولا روايـة قـد تصـدق أو

تكذب،وقادت بنفسها الجيوش والمعارك وتحدثت للرجال فى شئون العلاقات الجنسية. فبأيهما نقتدى: بـالحميراء وعنهـا يمكن أن نأخذ نصف ديننا كما نصح رسـول الله صـلى الله عليه وسلم؟أم بأبى بكرة وموقفه السياسى المعلن بعد انكسار جيش السيدة عائشة؟ وهو الأمر الذى يستدعى التساؤل : هل يقف هذا التعصب الذكورى وراء موقف الدكتور إسـماعيل حبلوش من زميلته العميدة وقوله إنها (المرأة العميدة التى لا يصلح حديثها إلا للمطابخ؟) والإصرار على نقـص المـرأة عقلاً وديناً،ذلك النقص الذى أرجعه الدكتور عبـد العظـيم المطعنى إلى مشاعر المرأة الرقيقة التى قد تجعلها تخطئ فى الحكم إذا تولت رياسة أو قضاء، بينمـا أرجعـه الـدكتور حبلوش لحيضها الذى يمنعها من أداء الفروض الدينية، فهل إذا بلغت المرأة يأسها وانقطع حيضها بلغت مبلـغ الرجـال وانتفى عنها نقص الدين؟

إن المشكلة التى لم يرها كلا الأستاذين عفا الله عنهما أن الإقرار بنقص المرأة عن الرجل يترتب عليه الانتقاص مـن حقوقها، وهذا هو لب القصيد وجوهرة.

ولا شك أن عدم رؤية هؤلاء الأزاهرة اللوامـع لمكمـن المشكلة الحقوقية، والإصرار على أحاديث مشكوك بأمرهـا من باب الإصرار على هذا الانتقاص الحقوقى، يؤدى إلـى حزن عميق، على مناهج الرجال اللوامع.ويزداد هذا الحـزن عندما تراهم يعلنون أنفسهم رعاة للمقدس وحمـاة لـه وولاة للأمر منا فى شئون العقيدة، وفى الوقت نفسه تجدهم فى غاية الضعف ومنتهى العى مع تهافت شديد فى المنطق عنـد أول مناقشة عقلية لما تصوروه ثوابت أو زعموه كذلك.فقد أعلـن

هؤلاء السادة أن ما كتبناه حـول معـركتهم مـع زميلـتهم الأزهرية تهجم على مسلمات الأزهر ورجالـه، وأننـا- لا سمح الله- أعداء للإسلام كما صنفنا الدكتور محمد المسـير، أو أننا من رواد مدرسة المشاغبين فكرياً الجديدة كماوصـفنا الدكتور عبد العظيم المطعنى. لذلك وجب أن يشترك معنـا قارئنا وينظر كيف تعامل السادة الأزاهرة مع مـا طرحنـاه مـن نقاش حول ما اختلفوا فيه مع زميلتهم العميدة، لإنكارها بعض الحديث وافتراض أنها من الموضوعات الغيرصادقة. لنعرف كيف يفكر رعاة التقديس فى بلادنا والى أين يمكن أن يصلوا بالبلاد والعباد.

لقد سبق وطرحنا ما هجس به الخاطر فى شكل تساؤلات عن اعتقاد يقينى أن السؤال غير محرم، فكان رد الـدكتور حبلوش مخيباً لآمالنا فيه.فقد أشاح تماما عن كل التسـاؤلات المشروعة وأدلة مشروعيتها التى جئنا بها من صدور أمهات الكتب الإسلامية وعن المنطق العقلى الذى طرحناه ليـذهب إلى منطقة أخرى بعيدة يصرخ فيها مولولا: «ما صلة هـذا الرجل بالأزهر الشريف كى يتطاول علـى الأزهـر بهـذا الشكل،وعلى السنة النبوية الشريفة، لذلك اخترت له الطريق اللائق به: المحكمة½..هكذا لم يلتفت الرجل إلـى المـنهج والأدلة القواطع ووقف يحتج على تساؤلنا عن مدى عصـمة الأزاهرة،وهل ما يقولون وحى سماوى لا يصح الاعتـراض عليه أم قول بشرى تصح مناقشته وقبولـه؟. أو ورفضـه؟. إنهم لا يقبلون المناقشة ولا الاختلاف، فقط يأمرون وعلينـا الطاعة كالخُشب المسندة. ونعم قلنا إنه ليس فى القـرآن ولا فى الحديث أزهر ولا رجال أزهر، فلماذا انـزعج سـيادته؟

وهل لديه ما يرد به من آيات أو أحاديث ولو مخترعـة؟ أم أنها عروش قد اهتزت لأنه قد آن لها أن تهتز؟

لقد كنا نظن الحبلوش هظبراً برصيده من تكفير المفكرين وتدعير الفنانـات والفنـانين وبريادتـه للجبهـة المنحلـة، وتصورناه سيأتى بما لم يأت به الأوائل، وطمعنا فـى قـول يلجئنا لمزيد من الجهد والبحث والمثابرة بين كتب الأصـول للبحث عن قول فصل. فإذا به يحرمنا متعة البحث بوفاضـه الخالى، وإذا بسيادته مجـرد ظـاهرة صـوتية إن جـازت لتخويف العوام فهى لا تجوز معنا. وكشف الرجل نفسه فإن أنت أتيته بالسؤال بهت، وإن واجهته بالحق التجم، ولم يبـق بيده سوى سلاح الإرهاب لإسكاتنا مسـتنفراً مئـات ألـوف الأزاهرة بندائه الملتاع: «وأطلب من الأزهر تحديد موقفـه من هذا الرجل»!! متصوراً أنه مع رعيلـه قـادرين علـى إسكات أحد أو إخافة أحد . وهكذا لم يرد الرجل على حجـة ولا بيان، وقال ما يخلو من أى برهـان، سـوى العصـبية والتراجع والاعتصام بالمحاكم وبسلطان الأزاهرة الذى ليس بسلطان، ولم يبق إلا أن نقول له قولة الشافعى: «آن للشافعى أن يمد رجليه».

هذا ما كان من رد الحبلوش الذى يمـلأ الـدنيا صـراخا وضجيجاً مملا،لكن هناك موقفا أكثر رصانة واحتراما قدمـه الأستاذ جمال البنا إزاء ما قلنا (وبالمناسبة فإن السيد جمـال البنا يتعرض لحملة مشابهة من العـاملين بشـئون التقـديس بسبب بعض اجتهاداته)، فوافقنا الرجل فى كثير مما قلنا ولم يلجأ للتهويش والترغيب والترهيب، وخالفنا فى بعض آخـر وفى ذلك لا مثلبة، لكن المثلبة تكون عندما يحرف الكلام عن

مواضعه وهو يعلم، فقد احتج سيادته على قولنا إنه لم يصح عند أبى حنيفة سوى سبعة عشر حـديثا، ليسـتبدل الكـلام ويقول:«فهل يعقل أن إماماً من أئمة الفقه أو الإمام الأول فى الفقه لا يعرف إلا ١٧ حديث»، رغم علم الأستاذ البنا الفارق العظيم بين «لم يصح عنده» وبين «لا يعـرف». وبـالمرة رأى الأستاذ البنا أن يفضح مستورنا وأن ما قلنا مجرد سرقة لأفكار من قبلنا بقوله: «وهذه الاتهامات التى أوردها القمنى فى حق أبى هريرة هى نفسها التى قالها منذ عشرين عامـا أبو رية». لكن غريب أمر رعاة التقديس هو عـدم اتفـاقهم على أدلة الاتهام، لأن الدكتور المسير يرى أننا قد أخذنا مـا قلنا عن الأستاذ أحمد أمين رحمة الله عليه فى كتابه (فجـر الإسلام) وكان بدوره مثلنا لا يريد بالإسـلام خيـراً!! أمـا الدكتورعبد العظيم المطعنى المتفرد دوما بأقواله البـاهرات، فلم يناقش شيئاً مما طرحنا، وذهب يبحث عن مصادر سرقتنا للأفكار لإصابتنا فى مقتل، عندما أكد عثوره علـى مصـدر تلك الأفكار، حيث وجدها فى «كتاب فـى الحـديث لرجـل شيعى متطرف يدعى عبد الحسـين» (؟!) . هكـذا (؟!) .. الرجل لم يملك رداً موضوعياً فلجـأ للتشـويه بـالتهويش، واتهمنا دون دليل واضح، فما اسم هذا الكتاب علـى وجـه التدقيق؟ ومن هو هذا العبد الحسين وأين المقارنات النصـية الثبوتية بين ما قلنا وبين ما قـال ذلـك البطـل المجهـول المتطرف؟ أبداً لم يشغل المطعنى نفسه بـذلك لقـد ضـرب ضربته العشوائية متصوراً أنه قد أنهى الأمر بالقاضية، ثـم استكمل أقواله لافض فوه شارحا: «ثم أضاف إليها القمنى

بعض الاجتهادات الخاطئة التى تؤكد أنه لم يؤهل نفسه علميا للسباحة فى هذا المجال، فهو لم يملك الأدوات التى تجعل بحثه مقبولا. وبما أنه أحد رواد مدرسة المشاغبين فكرياً، التى تشكك فى الحديث النبوى، جعلته يتصيد الأدلة بلا دراسة ولا ضابط. ورواد هذه المدرسة يجمعون على التشكيك فى السنة النبوية ويهولون من شأنها فيقولون إن عمر بن الخطاب كان يشعل الحرائق فى كتب الأحاديث، وأنها جمعت جمعا عشوائياً».

لا بأس علينا إن وضعنا الدكتور المطعنى فى محل التلاميذ المشاغبين أمام أساتذة مؤهلين مثله، لأننا لا نطمع فى أستذة ولا ولاية لأمر الناس، بقدر ما يشغلنا هذا الوطن والعباد فى هذا الوطن، وإنى أقر له باستعدادى الدائم للتعلم ومراجعة أخطائى أينما وجدت والاعتراف بها، فلست ممن يزعمون لأنفسهم سلطاناً على العباد، ولا أتباهى بقدسية أزهرية مزعومة. ولا أتصورنى مالكا للحقيقة المطلقة لأن هذا هو الضلال المركب والجهل المبين. أنا فقط يا سيدى أطرح التساؤلات وأستفسر طلبا للإجابات وليس للتعالى وإطلاق الصفات المبتذلة والسخائم، راجيا العلم من رجال مثل الدكتور المطعنى المؤهل. لكننا للأسف لم نجد رداً، ولا تكذيبا واضحا بالبينات، ولا ادعاء بافترائنا أو كذبنا فيما أوردنا من أمهات المصادر الإسلامية، وكل ما سمعنا من سيادته وهو المعلم المؤهل تشكيك غير حميد بكتاب مجهول لشخص مجهول، من باب التهويش الهش واللجاجة التى لا تليق بالأساتذة المؤهلين وذلك كما فى قوله إننا قد قلنا إن السنة قد جمعت جمعا عشوائياً (؟!) المصيبة أن هذا السيد

يعلم يقينا أننا لم نقل ذلك، بل هو من قال ذلك عندما كان يبرر الفارق بين ما جمع البخارى من أحاديث وبين ما تم تدوينه منها. بقوله إن البخارى كان يدون كل يوم حديثين، ولا يدونهما إلا بعد أن يستخير الله ويصلي ركعتين ولا يسجل إلا ما تطمئن إليه نفسه، فهلا يستطع الأستاذ المؤهل الاستنتاج من مقدمات حديثة؟ أم أن للعشوائية معنى خاصا لدى سيادته؟

ثم يتساءل الدكتور المؤهل الحجة قائلا: «إن الروايات التى قيلت عن أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يحرق كتب الحديث، إن صحت هذه الروايات فالذين قاموا بروايتها هم الذين قاموا برواية الحديث، فلماذا تصدقونهم فى هذه الأخبار وتكذبونهم فى رواية الحديث».

هل أراد الدكتور بهذا الكلام إفحام أحد؟ ربما، لكن ألم يلحظ سيادته أن الذين أخذوا بأحاديث النبى وبأمره بعدم تدوين السنة، وصدعوا بها وأطاعوها هم الخلفاء الراشدون وليس نحن، وأن من حرق الحديث هو أبو بكر وعمر وليس نحن، وأن من أصر على عدم التدوين هم أجلة الصحابة وليس نحن، وأننا فقط ذكرنا الأحداث التى تخفونها عن الناس كى لا تنتقص من سلطان ولايتكم عليهم. ولم نحدد موقفنا بالاتفاق معها أو الوقوف ضدها، إنما طرحنا الاستنتاج العقلى والشرعى المقبول من وجهة نظرنا . إننا لم نفعل سوى تسجيل وإعلان ما تخفونه عن جماهير المؤمنين يا ولاة الأمر منا. وأن ما ذكرناه يشكك فى الأهداف التى كانت تقف وراء جمع الحديث وتدوينه رغم نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك؟وإبراز منطقية أن المكذوب فى الحديث يؤدى للشك فى بقيته، والشك يا سيدى من الإيمان، إيمان

المؤمن الكيس الفطن.وإن صدقنا أحاديث النهى عن التـدوين فقد صدقنا أحاديث نبوية صدقها أجلة الصحابة والتابعين، ولم نعادى الذين صدقوا أحاديث السماح بالتـدوين ولا كفرنـاهم ولابدعناهم كما تفعلون مع الذين صدقوا أحاديث النهى عـن التدوين، وهم لم يصدقوها إلا لورودها بالصحاح والمسـانيد ولم يخترعوها وينسبونها للنبى كذبا كما يفعل البعض. لـذلك فموقفهم أكثر احتراما للدين ولمصالح الناس لأنـه لا يبغـى مصلحة ولا سيادة ولا ولاية أمر على العباد ولا تحالفاً مـع السلطان. بينما موقفكم يا سيدى تفوح منـه روائـح كثيـرة تصرون فيها على إعمال أحاديث السماح بالتدوين، وتبـديع من يصدق أحاديث النهى عن التدوين ومهاجمته وتسـفيهه، أنتم أيها السادة لازلتم مع معاوية ويزيد ضد الراشدين، مـع السلاطين ضد مصالح الجماهير، مع الأحاديث بمكذوبها ضد القرآن الكريم. والمشكلة يا سيدى المؤهل ليست فـى الأخـذ بأى من المبدأين: التصريح بالتدوين أو النهى عنه، المشـكلة فى تكفيركم الاختيار والأخذ بأحاديث النهى عن التدوين وهى أحاديث وليست آيات شيطانية، لأنكم تريدون السنة القوليـة سيفا مسلطا فوق رؤوس العباد لتكونوا أنـتم سـدنته وأنـتم الجلادون بواسطته ، وأنتم الحكم والقاضى والمشرع والمنفذ. وهو الموقف الذى أبدعتم فيه وأظهرتموه واضحا فى هجمتكم على زميلتكم الأزهرية التى رفضت حديث المـرأة ناقصـة عقل ودين، وعقوبة رجم الزانى المحصن لعـدم وجودهـا بالقرآن المدون.

المسألة يا سيدى الدكتور المتعالى بعلمه علـى التلاميـذ الضعاف من أمثالنا، فى التناقض الذى لابد أن يفضى منطقيا إلى إنزال السنة من على مقعد التشريع السلطوى إلى مقعـد

المناقشة والتفنيد، بما تقتضيه مصالح الـبلاد والعبـاد، مـع المتغيرات التى فرضها الزمن بعد مضى مئات العقود. لأنها لو كانت جميعا وحيا إلهيا فإنها تعنىتناقض الكامل مع ذاتـه وتضارب قراراته، كما تعنى أن أحد القرارين صـائب وأن الآخر باطل. لكنا بالطبع سنميل كل الميل مع ما أخـذ بـه الراشدون والصحابة والأتقياء حتى لو انـتقص ذلـك مـن سلطانكم. وهو الموقف العقلانى المجـرد عـن المصـلحة والهوى ودون مشاغبة مقصودة، بل هى قلوب مؤمنة تريـد الاطمئنان لطوية ذلك الإيمان، ويشغلها مصير الـوطن إزاء تحجر المفاهيم مع أحاديث تمنع المرأة (كمثال) من الولايـة استناداً لقدسية السنة القولية.

ثم يتابع الأستاذ المؤهل فيقول: «نعود لجزء مـن مقـال القمنى الذى يدل على أنه ليس أهلا للتحدث عن نقد الحديث، حيث أنه استشهد بآية قرآنية يدعى أنها تدعو إلى عدم الأخذ بحجية الحديث، منها: فبأى حديث بعده يؤمنون/ الأعـراف/ ١٨٥ ، وقوله تعالى: اتبعوا ما أنزل إلـيكم مـن ربكـم ولا تتبعوا من دونه أولياء. فهو أوهم القراء بأن القرآن الكـريم ينكر الإيمان بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . مـع أن الآيات تنهى عن اتباع غير شريعة الله ومـا أنـزل علـى رسوله، فالخطاب فى الآيات إلى الـذين تركـوا عبـادة الله وعبدوا الأوثان».

والآن نحاول أن نفهم: عندما سبق واعترضنا على القاعدة الفقهية القائلة إن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب، قام الأزاهرة ولم يقعدوا حتى حاكمونا بمحاكم الدولة ضـمن طلبهم محاكمتى على كتابى (رب الزمان)، لكن انظر معـى

تلون الشيخ حسب الظروف وهو يعود فيلجأ إلى خصـوص السبب لا عموم اللفظ،أليس ذلك بتلون غير حميد ولون مـن التحايل لرد فهمنا المعمم للفظ الآيات؟ حيرتمونا يا أزاهـرة: هل أنتم مع العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السـبب، أم مع العبرة بخصوص السبب وليس بعموم اللفظ؟

وحتى نغلق ملف هذه المناقشة تبقى ملاحظات تحتاج إلى إيضاح، أساء فهمها السادة الأزاهرة. الـذين شـمروا عـن سواعدهم ليضربونا ضربة رجل واحد، فنحن أبداً لسنا مـن منكرى السنة، فمناقشة ما حدث والمسكوت عنـه والمخفـى عمداً لوضع الأمور فى صحيح نصابها حتىلا تكون لبعض الأحاديث سلطة تعوق المجتمع ليس إنكاراً للسنة، بل فهماً لها فهما واضحا يرفع كثيراًمن الالتباسات التى تسمح لمفسـرى الحديث الكهان بأن يكونوا أولى الأمر منـا ضـد مصـالح الوطن.

وأيضاً نحن لسنا مع غربلة الحديث التـى تـدعو إليهـا الدكتورة آمنه نصير والأستاذ البنا ، فكفانا غربلة، فقد غربلنا ثقافتنا القديمة وألقينا بتاريخنا الحضارى العظيم ولغتنا القديمة فى البحر، ولم نبق سوى الثقافة العربية الإسلامية وحدها. ثم غربلنا ثقافتنا الإسلامية ولم نبق منها سوى ثقافـة المـذهب المنتصر حليف السلطان واسـتبعدنا مـا عـداها وكفرنـاه وبدعناه.وغربلنا ثقافة مذهبنا واستبعدنا الاتجاهات العقلانيـة (كالمعتزلة مثلا) وبـدعناها وكفرناهـا وأبقينـا الحفريـات المحنطة وحدها طاعة لأولى الأمر منا. كفانا غربلـة أيهـا السادة فبقاء الحديث على ما هو عليه مساحة عظيمة للدرس العلمى وقراءة الواقع زمن التدوين وفرز التيارات السياسـية وكيف كان الناس يفكرون وكيف كانت تُدار شئون السياسـة

والاقتصاد والمجتمع. إنه نافذة هامة على الماضى لفهمه وفيه للباحث زاد ومادة بحثية غنية وثرية. أما تسـليطه تشـريعا فوق رؤوس العباد فهو الأمر الجدير بإعادة النظر، ويحـق الكلام فيه لكل من يمتلك قدرة الرؤية لمناقشة مساحة النفـع والضرر وحاجة الوطن اليوم خاصة إذا رام ذلـك مـن لا يبتغى سلطانا ولا نفعا ولا مصلحة سـوى مصـالح النـاس والوطن التى حيثما تكون فثم وجه الله.

أما المناقشة السريعة التى سقناها لأقوال الأزاهرة اللوامع الذين يزعمون رعاية المقدس وحمايته، بحسبانهم المقصودين بطاعة أولى الأمر منا، فقد كشفت مـدى تهافـت أقـوالهم ولجاجتها وعدم مصداقيتها، مع إصرارها على مواقفها الثابتة حتى لو ظهر خطؤها. وإن هذا التهافت ليدفع للتساؤل: ماذا لو تعرض الإسلام حقا لهجمات فكرية تريد به شراً، ولـيس مجرد مناقشة من مسلم مثلهم؟ ماذا هم فاعلون؟

إذا كانت هذه كل ممكناتكم أيها السادة فقد أحزنتمونا كثيراً وتركتم كل شيء عاريا من كل حماية، لذلك لم يبـق مـا نقول مع أسمائكم اللوامع وهديركم الزاعم رعايـة المقـدس وحمايته سوى:

استقيلوا يرحكم الله.... ويرحمنا .

ومن الجهل ما قتل(؟!).. (*)

إبان الفترة الانتقالية من اقتصاد ملكيـة الدولـة لوسـائل الإنتاج إلى اقتصاد السوق، وحاجة البلاد إلى هدنة سـلامية تسمح بإعادة بناء بنيتها التحتية المنهارة بالكامل، فـي فتـرة ضعف وهشاشة بعد حروب مدمرة استنفذت كل ممكناتهـا، ظهرت الفتنة المسلحة المتشحة برداء الإسلام تزيـد الأمـر سوءاً وتنشر الإرهاب الدموي فى البلاد، وتضرب مقومـات الاقتصاد فى مقتل وتسقط هيبة الدولة أمام مواطنيها وأمـام العالم، وتشكك رؤوس الأمـوال العالميـة فـي إمكانيـة الاستثمار في بلد غير مستقر أمنياً..

وهى الفترة التى عاشها جيل السبعينات ليرى وطنه يتغير فجأة وبالكلية، حتى علم البلاد ورمزهـا تغيـر، ونشـيدها الوطني تغير، واقتصادها انقلب من ملكية الدولة إلي ملكيـة الأفراد. وتفككت تحالفات دولية وإقليمية، وتحول أعداء إلـى أصدقاء، ومع كل هذه التحولات كان هنـاك أمـر عجيـب مستمر، فبعض رجال العهد الماضـي حمـاة الاشـتراكية المزعومة الثوريين يصبحون من أهم رجال العهد الجديد. هم هم بذواتهم، لكن بعد أن غيروا جلودهم. ورجـال الإعـلام بذواتهم يتكسبون مـن المـرحلتين بـذات الشـخوص مـع استبدال الأقنعة واختلاف الخطاب. وقاموا يعلنـون لشـباب السبعينات أن كل ما بثـه الإعـلام السـابق فـي عقـولهم

(*) تم إرساله إلى مجلة روز اليوسف ولم ينشر.

وأرواحهم كان هو الخطأ بعينه، وأن الجديد فقط هو الصـح التمامي،ومن ثم كان علـى هذا الجيل أن ينقلب على ذاتـه، أو أن ينفصم، أو أن يكفر بكل شيء. لأنهم لم يحظـوا أبـداً بتفسير واضح مقنع لما يحدث، فدولتنا بين بلاد العالم هـي التى لا تصارح شعبها أبداً بالحقائق، وهي الوحيدة التى لـم تفتح حتى الآن ملفات الماضي لتدارس أخطائه أوعلى الأقل لتبرير تحولات الحاضر. وكانت النتيجة مروعة، فقد اتجـه بعض هذا الجيل نحو الثابت الذي لا يتغير الذى هـو خيـر وأبقى، شرع الله الذى شرع الجهاد فريضة. وكان ما كـان من إرهاب دموي مدمر.

وهكذا؛ وبدلاً من أن تصارح الدولـة شـعبها بمـا حـدث وبمبررات ما يحدث في الدنيا من تحـولات، وأن تعتـرف بمشاكلها بصراحة وتطلب من شـعبها أن يشـاركها هـذه المشاكل وحلها عن قناعة وإيمان، ظلـت الدولـة تعـزف أناشيدها الوطنية، وتمجـد العهـدين النقيضـين، وتمـارس القرارات الفوقية وهي في أدني مستويات الضعف والهوان، رغم أن المصارحة والمكاشفة كان يمكن أن تضع كل أبنـاء هذا الوطن فى مصهر واحد،وهو طبع مصري معلوم عبـر التاريخ، لكننا لا نقرأ التاريخ،وكان بالإمكان أن يكون البنـاء الجديد هو المشروع القـومي البـديل الـذي تلتـف حولـه الجماهير.

ومع سياسة التواري والتغطية والإخفاء أدرك العـاملون بشئون التقديس من رجال الدين المحترفين، دون حاجة لذكاء كثير، مدى ضعف موقف الحكومة واحتياجهـا للتبريـرات الشرعية والأحاديث الغيبية وصـرف النـاس إلـي الـنعم الأخروية. أدركوا مدى حاجة الحكومة إلي تغطيـة مناسـبة

إبان التحولات بدلاً من المصارحة الشعبية والاعتماد علـي الجماهير، بل وتم طمس وعى تلك الجماهير وتغييبه وصرفه نحو العلم والإيمان الذى لا هو علم ولا هو إيمان، وإغراقـه في الشعوذات وعالم الجن والعفاريت والصحوة الإسـلامية، بدلاً من إعلاء هذا الوعي بالمصـارحة وطلـب الجمـاهير للمشاركة لإنجاز التحول بأقل قدر ممكن من الكبوات.

ودرس التاريخ يحدثنا بطوال فصوله عن فحولـة أهـل التقديس وقدرتهم على الوصال مع أهل الحكم والسلطان عبر تاريخنا التليد. وفي مقابل تأييد العمائم للدولة فـي مرحلتهـا الانتقالية وصراعها مع الإرهاب المسلح، قام أهل التقـديس يقتنصون كل المساحات الممكنة في فرصة قد لا يجود بهـا الزمان مرة أخرى، حتى اجترأوا على ما كان غير ممكنـاً، فنزلوا ساحة السياسة بعقلية القـرون الوسـطى، ودون زاد علمي أوحضاري وبلا أي ذخيرة معرفية تناسب العصـر أو حتى تتعرف على منجزاته. واستولوا على أوسع المسـاحات في الإعلام والتعليم فأظلموها وأغلقوا كل نوافذ الحريات، بل وجسوا نبض الدولة فوجدوه ضعيفاً فاستمرأوا تشريع ما هو ضد القرارات والمصالح الكبرى، لإثبات وجودهم كسـلطة سياسية موازية وإثبات إمكانات استقلالية قرارهم كي يكونوا هم المرجعية وليسوا مجرد المبررين التابعين. وبهذا الصدد يكفى أن نتذكرفتاوى المرحوم جاد الحق شيخ الأزهر بشـأن البنوك وختان الإناث وتحديد النسل..الخ. ثم نتذكر كيف امتد الوصل والوصال الخفي إلى الأيدي القذرة الملوثـة بالـدماء الزكية، عندما أفتت جبهة علماء الأزهر بكفران فرج فـودة، وتم التنفيذ الفوري باغتيال الرجل بهذه الفتوى.وهى الفتـوى التى دعمها المرحوم محمد الغزالى بطلب من المحكمة بنـاء

على طاب الدفاع(؟!). وسفهوا سياسة وزير التعليم ووزيـر الثقافة، وصادروا الفكر والكتب عياناً بياناً، ودعـروا الفـن وصادروه، وكفروا نصف الأمة من المسيحيين فـي كتـب بالمئات ملأت أرصفة الشوارع، وفى حملة قادها المرحـوم الشعراوى فى تلفزيون الدولة يكفر فيها المسيحيين المصريين تحت سمع الدولة وبصرها دون أن يجرؤ أحد فى الدولة كلها على أن يقول له: استح مما تصنع يا مولانا.

وكعادة الدولة فى عدم المصارحة لسـؤ ظنهـا بشـعبها، استمر الكذب، وأصبح الإرهابيون مجرد قلة منحرفة ابتعدت عن صحيح الدين. وأن سبب الإرهاب ليس مـن سياسـات الداخل لكنه دسيسة أجنبية ومؤامرة دولية. وكان أبرز مثـل للمأساة أو إن شئت(الملهاة السوداء) موقـف الإعـلام إثـر مجزرة الأقصر الرهيبة. فبدلاً من أن يقدم للمواطنين صورة واضحة تشرح حجم الكارثة وأثرها الاقتصادي على كل بيت فى مصر، ومدى المصيبة التى لحقت بالبلاد، ليهب النـاس فى وجه الإرهاب دفاعاً عن أرزاقهم. قام إعلامنا يعلن يومياً ويردد بغباء ببغائي منقطع النظيرعن كون الحادثة بلا تـأثير يذكر، ويحدثنا عن حجم الوفود السياحية القادمة أفواجاً مـن بلاد الفرنجة متطوعين لأجل عيون مصر، بدليل أن جميـع الفنادق(كومبليت)، وكل شيء تمام. بعد أن جعلت مجـزرة الأقصر عامنا عاماً للوفود، باحتشاد السـائحين بمطـارات العالم يتلهفون زيارتنا ليقدموا أنفسهم ذبائح لأجـل عيوننـا. وفى الوقت ذاته، وعلى الخـط المـوازى، بـدأت دعـوة المصريين بأجور مخفضة لملء الأماكن الشاغرة بالفنـادق التى ينعق على خرابها البوم. فهل ثمة سياسـة فـى الـدنيا كتلك؟ في دولة تعيش مرحلة انتقالية مأزومة!!

ولأسباب لازال بعضها خفياً، وصار بعضـها معلومـاً، انحسرت موجة الإرهاب الدموي، لكن مع إصـرار الدولـة على منهجها. ولأن رجال الـدين المحتـرفين ذوى عيـون ثواقب، فقد وجدوا الفرصة سانحة للاسـتيلاء علـى بقيـة المساحة الشاغرة التى غادرها الإرهاب.أما الدولة التى كـان يجب أن تستشعر قوتها وتبدأ في تحكيم القانون في الـبلاد، وضبط الشارع المنفلت، وضرب الفساد المستشري، وتغيير سياستها التعليمية والإعلامية بما يتفق وسياسات اقتصـاديات السوق والمبادئ الديمقراطية. ظلت الدولة على حالها واستمر إرهاب آخر يعلن العصيان على توجهات الدولة عبرصـحف تملكها الدولة وتديرها الدولة. ويكفى أن نلقي نظـرة علـى بعض أعداد صحيفة عقيدتي، أو صحيفة اللـواء الإسـلامي التى يصدرها الحزب الوطني الحاكم، أو حتى مـا تسـمي بالصحف القومية مثل الأهرام وكبار كتابها وكيف يفكـرون مثل الأستاذ فهمي هويدى أطال الله في عمره ومد في أجله.

ولعل الأسباب الواضحة لهذا الذي يحدث فـي الإعـلام والتعليم أنه ترك مساحة الإعـلام والتعلـيم خـلال الحقبـة الانتقالية كاملة للفكر المتطرف حتى تربع فيها وأفرخ وتوالد. وأثناء ذلك تمت برمجة عقول الناس علـى أحاديـة الفكـر والرأي، بواسطة مثقفي الدولة (إن جاز تسـميتهم مثقفـين)، الذين لا يجيدون سوى فن التملق والارتزاق، ولا يملكون من زاد المعرفة شيئاً ولو يسيراً، لكنهم يجيدون حقاً وصدقاً كـل فنون الفاشية الملازمة للجهالة والفكر المتخلـف والإرهـاب الفكري بكل فنونه. حتى أمسينا بحاجة ماسة وفوريـة إلـى إعادة تغيير شامل، ليس فقـط للوجـوه والشـخوص، إنمـا

أصبحت الحاجة ماسة إلى وضع بـرامج جديـدة متكاملـة، ومصر غنية بأبنائها ولم تزل ولاّدة دوماً.

وعند محاولة إصلاح الخلل لم يتم ذلـك بشـكل علمـي مدروس،ونموذجاً لذلك ما حدث إزاء صدام جبهـة علمـاء الأزهر التى تضم كبار الفاشيست و زعيمهم الشيخ حبلـوش المكفراتي مع الأمام الأكبر للأزهر الـدكتور محمـد سـيد طنطاوى. فتلك الجماعة لها ملف عظيم من المخالفات الكفيلة بحلها بشكل قانوني لخروجها عن القواعد المنظمة والمسوغة لوجودها كجمعية، ومع ذلك لم يهتم أحد ببذل هـذا الجهـد البسيط لإدانتها وحلها بشكل قانوني، إنما تم استصدار قـرار سيادي بحلها من السيد محافظ القاهرة.

وهكذا، وبعد الممارسات والتكفيرات وفتاوى القتل التـى أصدرتها الجماعة بحق المفكرين والفنانين،لم تنشغل الدولـة إلا عندما اصطدمت الجماعة برموز الدولة السيادية، وهنـا صدر القرار السيادى بحلها.

وبعدها نامت الدولة في العسل(على طريقة الأستاذ وحيـد حامد فعلاً وقولاً) ولم ينتبه السادة للجماعـة وهـي ترفـع شكايتها للقضاء الإداري، وأظن جازماً أن أحـداً لـم يقـدم الوثائق الكفيلة بإدانة تلك الجماعة قانوناً، حتى صدر قـرار المحكمة ببطلان قرار الحل. لأن القانون في بلادنـا أصـبح غير ذي صفة يكسره الجميع عيانـاً بيانـاً دون رادع مـن الوزير إلي الخفير، لذلك كسبت الجماعة وخسرت الدولـة. ولأنني أحسن الظن بالقضاء المصـري، ولا أظنـه أنحـاز للجماعة، فإن ظني يصبح يقيناً:أن القاضي لم يجد بين يديـه الوثائق الكفيلة بإدانة الجماعة وحلها.

ولتضحك معي قارئي، أو لتبكي إن شئت، وأنت تطـالع معي صحيفة اللواء الإسـلامي فـي ٩٩/٥/٢٠ (يصـدرها الحزب الوطني/ للذكرى الخالدة) حيث كتـب الشـيخ عبـد العظيم المطعنى بسفور مدهش وصراحة صارخة واطمئنان عجيب، يبرره إدراك الرجل مدى الخلل في منظومة الدولة، وأنه لا رابط ولا زمام ما بين الصحيفة وحزبهـا ودولتهـا، وكل واحد في واد، ولا أحد يقرأ، ولا أحد يتابع، بل وربما لا أحد يهتم، حتى أصبحت المجلة وكراً للفكر الإرهابي. أنظر معي فضيلة الشيخ المطعنى يعقب على ما حدث بفرح غامر يقول:« إن الحكم الذى أصدره القضاء المصري في الأسبوع الماضي لصالح جبهة علماء الأزهر بإلغـاء قـرار حلهـا وتمكينهما من العودة لممارسة نشاطها.. وسام شرف علـى صدر القضاء المصري النزيه». ونحن مع المطعنى نـؤمن بنزاهة قضائنا،وأن التقصير كان في سوء الأداء وعدم تقديم وثائق الإدانة، وكان يكفي وثيقة تكفير فرج فودة التـى أدت لاغتياله، وكانت وحدها كافية ليس لحل الجماعة بل ومحاكمة أعضائها للتحريض العلني على القتل.

ونتابع فرحة المطعنى العارمة إذ يقول:« هـذا القـرار.. يبعث على الاطمئنان في قلوب الناس، وأنهـم سـيجدون إذا وقع ظلم من أي مصدر عليهم، فإن هناك سـلطة قضـائية تنصفهم وتسترد لهم حقوقهم، ولو من فم الأسد» وللتوضـيح والبيان فقد وضع المطعنى عبارة(من فم الأسد) بين قوسـين كبيرين في تحد سافر ففم الأسد هنا هو الإمام الأكبر وهيبـة الدولة معاً.

ثم يستكمل المطعنى ليضرب تحت الحزام غامزاً من خلال وفساد بقوله: إن هذا القضاء« يعيد التـوازن إلـى الحيـاة ويقضى على كل فساد إذا رفع إليه الأمر».

وهو ما يعنى أن من اتخذوا قرار الحل فيهم خلل وفساد والكلام واضح لا يحتاج إلى شرح، لـذلك يسـتمر سـيادته محرضاً الجبهة منادياً:« وعلى جبهة علمـاء الأزهـر.. أن تزيل العقبات من طريقها.. وألا تخشى بعد ذلك فـي الحـق لومه لائم، وعليهـا أن تواجـه تلـك الحمـلات العلمانيـة الضارية».

هذا ما كان من فرحة المطعنى أسعده الله وجعل أيامه كلها مرحاً، لكن لتنظر معي كيف يفكر زعـيم الجبهـة الشـيخ حبلوش، وكيف يعبر بفكره عن منهج تلك الجبهة في مثـال يخصنا عقب به علينا قائلاً:« إنني أرى في المسـارعة إلـى منازلة المبطلين ترويعاً لهم وتشريداً لمن خلفهم..وينبغـي أن يشعرهؤلاء الآثمون في منازلتنا لهم بحقارتهم وهوانهم على الأمة.ويجب أن يفزعوا بحرارة إيمان المؤمنين واتقاد يقـين المؤمنين.. فسلاح القذف ولغة الدمغ هي الأسلحة الثقيلة التى لا يصلح غيرها لمنازلة المجرمين الجاحدين».

هكذا يرى الحبلوش نفسه وفريقه هم المـؤمنين متقـدي الإيمان وهو زعيم هذا الأتون الملتهب، ومن خـالفهم مـن الآثمين، وأن على الحبلوش وجماعته المتقدة واجباً جهاديـاً مقدساً لأنهم مبعوثي العناية الإلهية بموجـب توكيـل إلهـي للتفتيش في ضمائر الناس ومحاكمتهم وسبهم علناً وإصـدار الأحكام عليهم وتنفيذ هذه الأحكام،فهل ثمة فاشية أروع مـن فاشية الحبلوش؟

وبطيب أصله ومنبته يقول لي بأدب أهله، وما أطيب ريح فمه إذ يقول:

« وهو الملعون بلعن الله.. والملعون مطرود من سـاحة الرحمة، فينبغي أن يعامل معاملة الأجرب الحقير، فكيف بهذا الملعون إذا جمع إلى حقارته ووضاعته التجـرؤ علـى الله علانية والهزء بدينة صراحة.. إنه في حقيقة أمـره جمـاع الأخلاق السافلة والطباع اللئيمة الذى يجعل صـاحبه قرينـاً لأخس الحيوانات قيمة وقدراً في هذا الوجود»/ انظر كتـاب الآيات البينات لمـا فـي أسـاطير القمنـى مـن الضـلال والخرافات.

ولو تساءلنا كيف تجرأ شخصي المتواضع على الله ودينه فإننا نجده يجيب في صحيفة حزبية لا تستحق ذكر اسمها هنا في تصريح صحفي نشر بتاريخ ٩٩/٥/٨ تعقيباً على ما كتبنا بروز اليوسف حول حد الرجم. يقول الصـحفي (إن جـاز تسميته صحفياً):« وكعادته في الغيرة على الإسلام ومعتقداته يشن الدكتور يحي إسماعيل حبلوش هجومـاً شـديداً علـى القمنى بقوله: الدكتور سيد القمنى يفتـري علـى الإسـلام والأديان السماوية بدوافع خبيثة. وأنا راض بحكـم العامـة والخاصة في كلام القمنـى لنعـرف مـدى تطاولـه علـى المعتقدات ففي كتابه قصة الخلق ص ٧ يقول: عنـدما كـان المجتمع في الابتداء مشاعاً كانت أرباب السماء فـي متعـة الشيوع تمرح.. أيصلح هذا الكلام أن يصدر من رجل ينتسب إلى أي دين فضلاً عن أن يكون منسوباً إلى الإسلام؟ وفـي ذات الصفحة يقول: عندما تم تقسـيم العمـل علـى الأرض تحول مجتمع السماء إلى آلهة شغيلة، فهل هذا يليـق بمسـلم يعد نفسه من المفكرين؟ فالقمنى صاحب بـاع طويـل فـي

ازدراء الله تعالى والسخرية مـن الأنبيـاء والتهـوين مـن الفاحشة، لذلك لا نستغرب تطاوله وإنكاره لحد الرجم».

وهكذا اختلف الرجل معنا بشأن ما قلنا بروز اليوسف عن حد الرجم وهكذا جاءت لغته، لكنه أبداً لم يناقش شـيئاً ممـا قلنا، فالرجل بضاعته من المعرفة قليلـة، وزاده مـن الأدب الرفيع واضح، لذلك ترك الموضوع كله واهتم بتكفيرنا بـأي أسلوب فذهب لكتابي(قصة الخلق/ منابع سفر التكوين) يأخـذ منه أدلة التطاول على الله (؟!) والكتاب في الأسـواق لـدى الجميع،يتحدث عن المجتمع البدائي في الرافدين القديم حيـث كانت الآلهة بالآلاف وكيف تصور الرافديون القدامى خلـق الكون عن طريق هذه الآلهة.ويأخذ منه تلك العبارات ليؤكـد تطاولنا على ذات الله(؟!!) الرجل لم يرد على ما قدمنا مـن مصادر من أمهات الكتب الإسلامية في موضوع الـرجم، أو هو لم يجد ما يرد به، ولم يجد لدينا كذباً أو افتراء، فـذهب لكتاب قديم من كتبي حول أساطير الرافدين القـديم ليصـور للناس أنني أتحدث عن رب العزة..

هكذا يختلفون، ومن خالفهم ولم يسـتطيعوا معـه حجـة كفروه ولو بالتزوير والتدليس، ليس لأن الناس كذلك، ولكـن لعجز الحبلوش وفريقه عن الفهم وأصول الخلاف المحترم.

ثم يقول الحبلوش:« ثم يصف إبراهيم بكل خسة ووالديـه إسماعيل وإسحاق بأنهم مـن البطاركة الأوائل وذلـك فـي كتابة رب الزمان ص، ٣».

الحبلوش تصور كلمة بطاركة أنها سب وشـتيمة فسـبني سامحه الله ووصفني بما ينضح من إنائـه غيـر عـالم أن (بطاركة) تعنى (آباء) من اللاتينية Pater،والكتاب المـذكور كنت أبحث فيه في التوراة، وأصحاب التـوراة لا يعرفـون

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف كرسل أنبيـاء، لأن أول نبي لديهم هو النبي موسى، وأما هؤلاء فهـم آبـاء للشعب العبري، ويطلق على زمانهم الـزمن البطريكـي أي زمن الآباء الأوائل للشعب العبري، والبحث كان في التوراة العبرية وعقائدها وليس في الإسلام ولا في القرآن.

بهذا العلم الغزير والأدب الرفيع يتزعم الحبلوش جبهة مـن أمثاله، وبهذا يكفرون الناس ويهـدرون دمـائهم ويصـدقهم العوام وينفذ الحكم نجار مسلح أو سباك، هذه أمـامكم لغـة حوارهم، وهذا قدر علمهم، وبهذا الزاد يريدون الوصاية على البلاد والعباد.

والجهل ـ كما تعلمون ـ أنواع: منه الجهل البسيط، ومنـه الجهل المركب، ومنه ما قتل.

إن قدر أى مفكر وطنى مخاص اليوم هو أن يحمل صليبه على كتفه ويسير وسط جحور الأفاعى وحقول الألغام. وبين أكاذيب وأباطيل تحولت عبر التاريخ إلى حقائق ورايات وضعت داخل مناطق حدودية فكرية حرام. وتحولت إلى تابوهات أصبح من غير المسموح الاقتراب منها أو مناقشتها، لأنها أصبحت المشجب التاريخى العظيم الذى نعلق عليه أخطاءنا ونبرر به هزائمنا.. ومن يحاول النظر خلف تلك الحجب المحرمة تناله لعنة التحريم وهتك ستر المصطلحات التى أصبحت شبه مقدسة بعد أن اكتسبت بالتكرار والتقادم مصداقية زائفة. وتتمثل تلك المناطق المحرمة فى القول بمؤامرة عالمية يقودها الشيطان وحزبه ضد العرب والمسلمين، فقط كراهية فيهم وحقداً عليهم لما حققوه من إنجازات وتفوق (تاريخى بدوره). وأن تلك المؤامرة هى التى تقف دوماً وراء هزائمنا ونكساتنا ونكباتنا، وتتلخص اليوم فى عبارة واحدة متكررة هى (المؤامرة الصليبية الاستشراقية العلمانية الصهيونية) (؟!).

فهل الأمر كذلك حقاً؟ هذا ما يحاول أن يجيب عليه هذا الكتاب.

